الألف
كتاب
الثانى

معالم تاريخ الإنسانية

هـ.ج. ولز



المجلد الرابع

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد



هـ. ج. ولز

H. G. WELLS.

معالم تاريخ الإنسانية

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الرابع

في التاريخ الحديث

(١٦٠٠ – ١٩٦٥)

هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind By

H. G. Wells.

الفهرس

كلمة المترجم

اليوم وقد استوت "المعالم" كتابًا عربيًا، يلتفت إلينا ولز نحن معشر العرب من بين أطب اق الـ سماوات العلى التي تسكنها روحه بين العباقرة والنابغين، ويهيب بنا: "هاؤم اقرءوا كتابيه".

واليوم يتردد صوته في أجوائنا التي خفت فيها كل صوت نبيل منذ قرون الإسلام الأولى، يتردد جهيرًا مدويًا كأنه النفخ في الصور "إني لسعيد إذ أديت نحو الإنسانية واجبي، وبذلت لها دع وتي، ورض يت لها مذهبي وفكرتي".

واليوم يحق لولز أن تبوئه البشرية مكانًا عليًا، وأن تضمه بين أبنائها المخلصين وأفذاذها الخالدين. فقد قضى نصف عمره في الحدب عليها والمنافحة عن مصالحها والدعوة إلى صلاح أمرها وتمح يض النـ صح لها.

واليوم يستطيع ولز أن يسامي الهداة الملهمين بأنه ظل يحمل مشعل رسالته مضيئًا ذاكيًا وهَّاجًا نصف قرن كامل من الزمان. وهي فترة لم تتح في العصر الحديث لصاحب دعوة ولم تتهيأ لمرشد ذي رسالة.

واليوم يستطيع القارئ أن يستعرض مع ولز مشاهد الحياة منذ هوادي بواكيرها ومستهل تباشـ يرها، إذ هي هزة نشأت بإذن العلي القاهر في ذلك الماء الذي جعل منه كل شيء حي، هزة لا يكاد يق وم لهـ ا أثـ ر ولكنها الأثر كل الأثر، هزة ما زالت الأيام ترعاها والليالي تهدهدها حتى تمثلت على طـ ول الحقـ ب بـ شرًا سويًا. ذلكم هو الكائن الذي حارت البرية فيه، والذي هو حيوان مستحدث من جماد كما يقول شيخ المعـ رة، هذا الكائن الضعيف بقوته القوي بحكمته الثائر بغريزته المتمرد الجبار بطبيعته القابل للصلاح بفطرته، هـ و منذ خليقته مصدر للشغب ومثار للفتن. بسببه فسق الشيطان عن أمر ربه فغوى. وحل بالأرض فأفسد فيهـ ا وسفك فيها الدماء وكانت من قبله مطهرة من كل رجس، ولم يزل هذا دأبه حتى يومنا هذا، تفتنـ ه هوائجـ ه ويزين له حب شهواته، والله في عليائه يرسل له رسله وأنبياءه فما كف عن غيه ولا أقلع.

واليوم من لنا بمن يشهد روحه النبيلة أننا أخذنا بدعوته، وأيقنا أن التاريخ وحدة واحـ دة، وأن ركـ ب الحضارة نهر واحد متدارك اللجات متلاحق الفيضات، وأنه إن هدأ يومًا أو ألم به شيء من الغيض، فلا بـ د أن يتدفق في تاليه ويعود سيرته من جريان وتلاطم واصطخاب، وأن البشرية على مر العصور كتلة واحـ دة متحركة دائمًا إلى الأمام في حركة واحدة تجمعها جميعًا وتضم شملها في عالمنا العصري الذي أصبح بعضه إلى بعض أقرب من حبل الوريد.

* * *

والعصر الذي يستهل به كتابنا هذا كان، كما يقول بعض أفذاذ الزمان، أمثل الأزمان وأسوأها، وأحكمها وأحمقها، وأشدها نورًا وأشدها حلوكة. كان عصر الإيمان وعصر الكفر والإلحاد؛ وكان ينطوي على ربيـ ع الأمل والرجاء وخريف اليأس والقنوط؛ وكان عصر ملكية عظمى باغية وكثرة عظمى مهيضة؛ عصر رقي بلغ الذروة وجهل أنزل الناس إلى الحضيض؛ وكان دهر عز شامخ واستبداد داس كرامة الإنسان بالنعال؛ يوم

كان صاحب الدين يلاحق أخاه ليدخله في دينه وإلا فله الموت والعذاب؛ ويوم كان الغنيّ العزيز يعفى من الضرائب والتبعات ويبهظ بها الفقير الجائع تمد بصرك فتجد في مكان كل شيء، وتسرح الفكر فتجد إلى جواره لا شيء.

وجاءت الثورة الفرنسية لأن ذئب الأرستقراطية كان ينهش كلب العامة، فما كاد الكلب ينتصر ويقطع رأس الذئب وذنبه، حتى انقلب هو كذلك ذئبًا أشد ما يكون عواء وإزعاجًا ولعلعة بلسانه وولوغًا به في دماء الأبرياء.

وأين مبادئ الثورة الفرنسية؟ أين الإخاء والحرية والمساواة؟ لقد ذهبت في أطباق الهواء هباء وراحت طرائق قددًا.

وهذه مغاليق قوى الطبيعة تتفتح منذ أوليات القرن التاسع عشر، إذ أخذ عقل ذلك الجبار يتسلل إليها رويدًا رويدًا. فعرف كيف يستذل البخار، ولم يلبث أن جعله مطية ذلولاً وعسيفًا ذليلاً. وانتقل منه إلى عناصر الطبيعة عنصرًا بعد عنصر يدرسها ويتحكم فيها ويستبد بها، حتى أصبح يفعل بها ما يشاء ويستخدمها أنَّى شاء.

وأبطره العلم حتى زعم أن ليس فوقه عليم، واستهوته المادة حتى أنسي الروح وما لها من قيام معلوم، ولج به الطغيان فبغى في الأرض يستعبد أهلها ويتخذ بعضهم شيعًا. وسلط على أخيه الإنسان مناجل الفناء، وأخذ يستغله استغلال السوائم يمتلك منه وطنه ويستأثر بخيراته دونه بعد أن يفدحه عملاً، ويحرم عليه نعمة التمتع بما وهبه الله لكافة مخلوقاته من حرية. لأن داعي الاستعمار قد أصمه عن كل ضمير وأعماه.

واحتاج العلم إلى مواد الطبيعة يصنعها ويبدعها، فإذا استوت سلعة مصنوعة استوجبت سوقًا يتلقفها. وبشمت أوربا بما أنتجته لها دواليب المصانع فخرجت تهرول تلتمس مشتريًا. وتحول الشراء والبيع في أقطار الشرق المنكودة من السلع إلى الشعوب، فحيثما حل الأوربي فثم الاستعمار البغيض. وتلفتت دول أوربا بعضها إلى بعض، فإذا بعضها قد سبق وأرسى أسسه ووطد في أقطار العالم أقدامه، وإذا بعضها الآخر قد تخلف. وثار في النفوس ما ركب فيها من جشع. فالسابق يريد أن يستأثر، واللاحق يبتغي لقمة يسد بها جوعته. فأما من عدا الأوربيين فتعسا لهم وثبورًا.

فهذا الأسود المسكين وذاك الأصفر أو النحاسي المنكود! ما بالهم ينظر إليهم الأبيض كأنهم من حثالة السوائم، أو من خشاش الأرض؟ وفيم الضن بالعلم عليهم والاستئثار به دونهم حتى لا يقووا به فينازعوه سيادته التي زعم أن الله آثره بها وحده؟

وهذه بريطانيا لماذا تثب على مصر فتحرمها نعمة الحرية بذريعة واهية؛ والله يعلم والناس يعلمون أن الحقيقة غير الذريعة، وأن الهدف إن هو إلا فتح السوق، وقطع الطريق، والاستئثار بما في البلاد من خير وثمار.

وكيف يكون النفط في أرض إيران ومالكته الحكومة البريطانية مستخفية من وراء تلكم الشركات، وما هي بشركات ولكنها خدع وذر للرماد في العيون.

والإنسان لا جرم يطغى أن رآه تقوّى فيعود بهذه القوة على إخوانه من بني الإنسان حربًا يهزمه فيها ويفتك به. ولا يطيق المغلوب على الهزيمة صبرًا، فهو يترصد الغالب ويتربص به الدوائر، ويعد له معدات الفتك والفناء، ويستخدم له ما استطاع من وسائل العلم والعلماء، ثم ينفجر بها حربًا ضروسًا عاتية، يريد أن يجعلها للأولى الجولة الثانية، ولم يدر أنه هدم الكون على أعدائه ونفسه وسعى بيديه إلى حفر رمسه، فإذا انقضت الجولة الثانية كرست جهود العالم للثالثة وأعد لها من المبيدات والمهلكات ما لا يتصوره عقل، وما كان يعد قبل ذلك من بعيد الخيالات. وانقسم العالم كدأبه فإذا هو محور وديموقراطية، ثم أخذ الطرفان بعضهما بتلابيب بعض، هذا ينسف وذاك يدك ويقصف، حتى استلقت البشرية أجمعها جريحة مهيضة ضعيفة دامية، قد نزفت من الدماء ما لا قبل للأيام برده، وأزهقت من الأرواح شبابًا ما كان أجدره بأن يحيا ليسعد بالحياة، وما كان أشد حاجة العالم إلى سواعده الفتية في البناء والتعمير لا في الفتك والتخريب.

والمالية والملكية والنقود، ما خطبهن وما بال آثارهن عميقة في حياة الفرد والجماعة؟ وما بالهن ينتجن المشكلات الاجتماعية والمذاهب الاقتصادية المتناحرة والمعسكرات الشيوعية والرأسمالية المتقاتلة؟ وما بالهن يحيرن الإنسان ويبلبلن فكره ويذهبن به كل مذهب؟ وهل من سبيل إلى علاج لدائهن الوبيل؟

* * *

ألا إن البشرية أصبحت مخيرة بين أمرين: فإما أن تأتلف فتعيش أو تختلف فتهلك، على البشرية أن تأتلف مكونة حكومة اتحادية للعالم أجمع ليس فيها قوي ولا ضعيف ولا استعمار ولا مستعمرات، بل تكون كلها الولايات العالمية المتحدة، كل دولة لها حكومتها وإدارتها الداخلية، وكل دولة منهن خاضعة لتلك الحكومة المركزية التي وظيفتها التصدير والتوريد، وضبط النظام في البر والبحر والجو، وإرساء أسس الديموقراطية الصحيحة، والاطمئنان على احترام روح الدساتير وإجراء الانتخابات البرلمانية النزيهة وإنتاج المجالس النيابية الممثلة للشعوب أصدق تمثيل، وتعليم أفراد العالم قاطبة إلى مستوى موحد عام من العلم.

ألا وإن على البشرية أن تتناسى أحقادها القديمة وتعصباتها الدينية والعنصرية، وأن يشعر الجميع أنهم أبناء قرية واحدة كبرى هي هذه الدنيا التي عليها نعيش، فما اختلاف الألوان ولا الأديان بعيب في طبيعتها جميعًا، ولكن العيب في الناس وفيما يذهب إليه الناس من مذاهب تنطوي على الغل والحقد أو التجبر والتحكم، فالناس جميعًا إخوان، والدين بالفطرة خير، فكيف ينجم عن الخير الشر؟

إن ولز يقف من كل ذلك موقف المحب المحذر لا موقف المتطير المنذر، فإن حافزه حب لا تشاؤم، ولذا فهو يهدي الناس بوعي وقوة وحمية وإخلاص هي السر فيما أوتي من بعد الصيت ونباهة الذكر في الناس.

إن ولز هو بشير الإصلاح إلى هذه البشرية المادية. يريد أن يأخذ بيدها إلى قيم الروحانية وأن يدعوها إلى التخلي عن ذميم الأخلاق وإلى الاستمساك بكريم المبادئ الخلقية. فالمادية إذ طغت ولدت حربًا، والروحانية إذا سادت خلقت على الأرض محبة وسلامًا، وحولتها من دار للشقاء إلى دار نعيم ووئام، وأعادت إلى الإنسانية فردوسها المفقود، وسعادتها الضائعة، وسلامها المنشود.

ومن عجب أن ولز لا يترك علمًا ولا فنًا ولا تقدمًا ولا أدبًا إلا أرخ له وكتب عنه، ولا حادثة ذات أثر في تاريخ البشرية ولا ملكًا أو عظيمًا خلد اسمه في ذاكرة البشر إلا نوه به ناسجًا ذلك كله بهذه المبادئ الإنسانية الرفيعة ومنتجًا منها وشيًا رائع النقش أخاذ الإبداع.

فأنت لا تقف في إعجابك به عند حد، ولا تلبث حتى تقتنع بوجهة نظره وإخلاصه، ثم أنت حين تقرأ كتابه وتنعم فيه النظر وتتدبر ما فيه من آيات، تشعر بأن من المحزن حقًا أن عظماء الدول وأصحاب الرأي فيها لم يأخذوا إلا مؤخرًا جدًا بهذه المبادئ النبيلة التي دعته إليها الأديان السماوية قديمًا والتي يبثها ولز في كل سطر من سطور كتابه. ولكن حسبك عزاء أن ميثاق الأطلسي الذي أصدره روزفلت وميثاق سان فرانسسكو وحقوق الإنسان تكاد تكون الثمرة المباشرة لتعاليم ولز في هذا الكتاب وغيره.

ولا يذهبن عن فطنة القارئ أن ولز كاتب عميق عويص، يعبر عن فكر عميق عويص، لذلك نرجو أن يتدبر كل فقرة من فقرات ولز، وأن يزن بفكره كل كلمة يقرؤها فيه، لأنه مثقف يكتب لكل مثقف مثله. وأنت أيها القارئ – مهما تكن مهنتك أو مزاجك في الحياة – واجد في هذا الكتاب ما يروقك بل ما يروعك، وواجد فيه حيثما تصفحت فائدة فكرية تعود عليك وواجد أنك كلما أمعنت فيه نظرًا زدت منه أثرًا.

فمن زعم أنه لن يجد التاريخ نقيًا صافيًا، منزهًا من كل دخل، مبرئًا من كل هوى، مصفى من كل تحيز فليمدد بسبب إلى سماء "المعالم"؛ ومن كان يريد خلاصة وافية لثقافة الدهور يضمها إلى ثقافته ويزيدها بها صقالا فلينهل من مناهل ولز العذبة؛ ومن كان يريد أن يتعلم كيف يكون مواطنًا حرًا ذا رأي في إدارة شئون بلاده فليفد من ولز، ومن كان من رجال السياسة يريد أن يتعلم نزاهة الحكم، وصراحة العمل، واحترام رأي الأغلبية، وتقديس الدساتير، والتخلي عن الميكيافللية البغيضة والدس والتآمر – فليتخذ من ولز رائده وهاديه.

وما أبدع أن تجلس إليه جلسة التلميذ الخاضع من أستاذه العظيم، لكي تخرج بعد ذلك مثقفًا ناصع الصقل، ومواطنًا بالعالم رحب الأفق فسيح النظرة، عديم التعصب، عارفًا بحقك وكرامتك مؤديًا لواجبك ومؤمنًا بالديموقراطية.

وبعد فإذا لقي القارئ بعض العسر في استيعاب ولز ومتابعة عميق أفكاره فليصبر وليصابر فإن ما سيبذله في ذلك من جهد واصطبار ثمن قليل لما سيجنيه من التزكي بثمرات ذلك العقل الملهم الفياض.

عبد العزيز توفيق جاويد

مصر الجديدة في:

٩ أبريل ١٩٥٢ . ١٤ رجب ١٣٧١

كلمة المترجم للطبعة الثانية

عندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب لقيت استجابة جميلة من جمهور القراء من عشاق أدب ولز وثقافته ورسالته الإنسانية، وكان رواج الكتاب في الأقطار الشقيقة أعظم منه في مصر بلدنا العزيز، وهو أمر عجبت له كثيرًا وأسفت له أكثر، ويوم صدرت الطبعة الأولى من الكتاب كان فيه من المفاهيم والتعبيرات التقدمية ما أعتقد أنه كان ولا جرم سابقًا لأوانه ففيه مثلاً: التطور والتطوير، والتنمية والتخطيط، والتأميم والحكم المحلي، ووحدة البشرية والدولة العالمية المتحدة، إلى غير ذلك مما كان بعض الناس في العالم أجمع يرفضونه بوصفه من شطحات الخيال أو على الأقل يناقضونه أو لا يسيغونه في أبسط الظروف.

ولكن الأيام حققت معظم نبوءات ولز بعد أن ظل زميله ومعاصره برنارد شو نفسه يسخر منه ومنها أكثر من نصف قرن. وها هي ذي الإنسانية تشهد اليوم من الحقائق ما كان يعد وهما بعيدًا في ١٩٣٠. فقد انحسر الاستعمار عن إفريقيا بعد أن ركز نفسه فيها واطمأن عند طرده من آسيا، أنه واجد فيها الأرض الخصبة البكر التي يرتع فيها ويهطع. وأخذت جميع الشعوب تؤمن بنفسها وتؤمن من ثم بحقوقها؛ فتتخذ الديموقراطية أساسًا والاشتراكية منهجًا والمساواة بين الطبقات دعامة وتوزيع العلم على الجميع والاعتماد عليه في رفع مستوى المعيشة ركازًا والنهوض باقتصاد الأمة مبدأ وعقيدة. وأخذت المصالح تجمع الأمم في اتجاهات إن كانت ضيقة الأفق الآن وكانت الأغراض منها غير كريمة في بعض الحين، فقد أخذ هذان العيبان يزايلانها إلى حد كبير. فهناك السوق الأوربية (وهي مثل سيئ) وتهدف إلى ما وراءها من الوحدة الأوربية المنشودة. وهناك وحدة أفريقيا التي بدت نواتها على يد المؤتمر الأفريقي. وهي لن تلبث حتى تجمع بين دولها في الحكومات بعد أن قربت بين أممها الأماني والآلام وجمعت بينها في الأهداف والخطط السياسية. وهناك وحدة العرب التي التأمت على يد الرئيس جمال عبد الناصر. وهناك الدعوة إلى منع الحرب وإلى الحياد الإيجابي وعدم الانحياز التي تتزعمها جمهوريتنا الفتية وتسابق في عقد مؤتمراتها إلى غير ذلك مما يجده القارئ موضحًا في هذا الكتاب كدعوة ومتسلفًا كنبوءة وممثلاً في جو الحياة كحقيقة.

وقد نقحت هذه الطبعة تنقيحًا شاملاً فضلاً عن أنها ضبطت على أحدث طبعات الكتاب في الإنجليزية (١٩٥٦). وهي الطبعة التي قال في مقدمتها المستر رايموند بوستجيت الذي تولى إصدارها إنه جمع فيها كل المواد التي أعدها المؤلف لضمها إلى طبعة حديثة، كان المؤلف نفسه يزمع إصدارها جامعة لتعقيباته على أحداث أربعينات القرن. وكان تاريخ صدور الطبعة التي نقلتها إلى العربية (١٩٣٧) فكأنها لم تكن تحتوي على أحداث الحرب العظمى الثانية، الأمر الذي ألجأني إلى أن أنتهج نفس السبيل التي سلكها المستر رايموند بوستجيت حيث نقلت تاريخ تلك الحرب عن كتاب "موجز تاريخ العالم" الذي أصدر المؤلف نفسه طبعة منه قبيل وفاته، كما أكملت ما في تلك الطبعة من نقص بما نقلته عن المؤلف نفسه وبذلك استكملت تاريخ الحرب العالمية الثانية، ومن ثم فإن الوضع الجديد لآخر طبعات الكتاب الإنجليزية اقتضى تعديل جميع الأجزاء الأخيرة من الكتاب مرة ثانية. فتعدل الفصل ٣٩ وأضيف الفصل الأربعون وألغي ذيل الكتاب القديم.

وكدأبي في الطبعة الثانية من أجزاء اذه الكتاب ذيلته بكشاف أبجـ دي وأضـ فت إليـ ه مـ ن الـ صور والخرائط ما اقتضته ظروف الحرب الثانية.

وإني لأشكر للسادة أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر جميل عنايتهم بهذا الكتاب الذي يمثل الثقافة الرفيعة والفكر التقدمي الكريم ولا يسعني إلا أن أبذل الشكر جزيلاً عاطرًا إلى الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد على عنايته الكريمة بفحص هذه الطبعة وإسداء التوجيهات المرشدة. وإذ أختم كلمتي هذه أؤكد للقـ ارئ أني أفدت من نقل الكتاب فائدة ثقافية وفكرية ومذهبية اشتراكية ديمقراطية، أرجو أن تعود على كل من يطلع عليه من أبناء الضاد.

كما أنني أشهد القارئ أنني أفارق ولز فراق الآسف راجيًا أن يمد الله في الأجل حتى أرى رسالته قـ د تحققت ودعوته قد آمن بها الناس جميعًا، وحتى أستطيع أن أظهر الطبعة الثالثة من الكتاب في مجـ لـ د واحـ د يستعرض به القارئ موكب الحضارة الإنسانية متكاملة بين دفتي سفر محدود.

والله الموفق للسداد..

مصر الجديدة في ١٤/ يناير ١٩٦٥

ع. ت. ج

الكتاب الثامن

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون

أمراء وبرلمانات ودول

١- الأمراء والسياسة الخارجية.

٢- الجمهورية الهولندية.

٣- الجمهورية الإنجليزية.

٤- انقسام ألمانيا واضطرابها.

٥- أبهة الملكية العظمى في أوربا

٦- الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٧- التصوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٨- نمو فكرة الدول العظمى.

٩- جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها.

١٠- أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار.

١١- بريطانيا تسود الهند.

١٢- تقدم الروسيا إلى المحيط الهادي.

١٣- رأي جيبون في العالم في ١٧٨٠.

١٤- الهدنة الاجتماعية تشارف نهايتها.

١- الأمراء والسياسة الخارجية

تتبعنا في الفصل السابق بزوغ فجر مدنية جديدة، هي المدنية ذات الطابع الحديث التي أصبحت في العصر الحالي تعم العالم أجمع. وهي لا تزال إلى الآن شيئاً ضخمًا لم تستو له قسمات، ولم تتخط في يومنا هذا بواكير أدوار النمو والتطور. وشهدنا فكرتي العصور الوسطى عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعن الكنيسة الكاثوليكية - بوصفهما صورتين للقانون والنظام العام - تذويان - عند مستهل ذلك الفجر. وهما إنما تزولان من الوجود بحكم نوع من الضرورة قضت بذلك حتى يتهيأ للناس معاودة صوغ الفكرات الداعية إلى قيام قانون واحد ونظام واحد صوغاً جديدًا يشمل العالم برمته. وبينما كان التقدم يلم بكل ميدان من ميادين المصالح الإنسانية الأخرى، جاء زمان أدى فيه زوال هاتين الفكرتين السياسيتين العامتين وهما الكنيسة والإمبراطورية، إلى تدلي الأوضاع السياسية إلى مجرد الملكية الاستبدادية المطلقة وإلى القومية الملكية ذات الطراز المقدوني.

وجاءت فترة توقف فيها بالفعل تماسك الروابط الإنسانية، وهي طور من تلك الأطوار التي كان يسميها كتّاب الحوليات[١] من الصينيين "عصور الاضطراب". ولبثت فترة التوقف هذه أمدًا يعادل المدة الممتدة بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين تتويج شرلمان في روما. وما زلنا حتى اليوم نعيش في ظلالها ولعلها أشفت على نهايتها. وأقول "لعلها" لأننا لا نستطيع حتى الآن أن نجزم بذلك. وكانت الأفكار المسيطرة القديمة قد تحطمت، وظهر خليط من المشروعات والمقترحات الجديدة غير المجربة أخذ يبلبل عقول الناس وأفعالهم، لذا اضطر العالم في الوقت نفسه أن يرتد على عقبيه فيطلب الزعامة على أساس التقاليد القديمة: تقاليد الأمير الفرد. ذلك أن الناس لم يكن أمامهم من محجة بينة المعالم يستطيعون أن يضربوا فيها بقدم، وكان الأمير بين أيديهم.

شهدت خاتمة القرن السادس عشر أرجاء العالم كافة، وقد سادتها الملكية التي تنزع إلى الحكم المطلق. فكانت ألمانيا وإيطاليا مقسمتين إلى رقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية (الأوتوقراطية). وكان الحكم في إسبانيا استبداديًا بالفعل. ولم يصل العرش يومًا في إنجلترة إلى مثل قوته آنذاك، حتى إذا تقدم القرن السابع عشر كانت الملكية الفرنسية قد أصبحت على الأيام أعظم دولة في أوربا وأشدها تماسكًا. وما نحن بقادرين على أن نسجل ها هنا أطوار رفعتها وما مر بها من تقلبات.

وكانت تحتشد في كل بلاط زمر من الوزراء يلعبون دورًا ميكيافلليًا ضد منافسيهم في الدول الأخرى. والسياسة الخارجية هي الوظيفة الطبيعية للبلاط والملك. ويكاد وزراء الخارجية يكونون أهم الشخصيات البارزة الزعيمة في تاريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر كله. وهم الذين دأبوا على إلقاء أوربا في أتون حُمَّى من الحروب. وكانت نفقات الحروب في ازدياد باهظ، فلم تعد الجيوش بعد مكونة من مجندين غير مدربين ولم تعد جموعًا من فرسان الإقطاع يجلبون معهم خيلهم وسلاحهم وأتباعهم، بل أخذت تشتد حاجة

---

[١] كتاب الحوليات (Annalists) هم الذين يدونون التسجيلات السنوية للأحداث. (المترجم).

هذه الجيوش إلى المدفعية؛ وأصبحت تتكون من جنود يتناولون أجورًا يلحون في طلبها؛ كانوا جنودًا محترفين متأنّين حذاقًا، يقومون بالحصارات الطويلة، ويحتمون إقامة التحصينات المحكمة. فزادت نفقات الحرب في كل مكان واستدعت الزيادة المستمرة في فرض الضرائب.

وهنا حدث أن اشتبكت هذه الملكيات، ملكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر – في نزاع بينها وبين قوى للحرية جديدة غير مكتملة النضج في المجتمع. إذ تلفت الأمراء حولهم فوجدوا أنفسهم لا يتحكمون في حياة رعاياهم ولا أموالهم. بل وجدوا مقاومة مزعجة للضرائب التي كانت ضرورية لا مندوحة عنها إذا شاءوا لاعتداءاتهم ومحالفاتهم السياسية أن تتواصل. وأصبحت الشئون المالية شبحًا كريهًا في كل قاعة يجتمع فيها مجلس. وكان العاهل من الوجهة النظرية هو المالك لبلاده. فقد أعلن جيمس الأول ملك إنجلترة (١٦٠٣) أنه "لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض الناس على قدرة الله، فإن من الوقاحة والاحتقار الكبير أن يعترض أحد الرعايا على ما يستطيع الملك فعله، أو أن يقول إن ملكًا لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك".

ولكنه وجد في الواقع – كما قُدر لولده شارل الأول (١٦٢٥) أن يجد بصورة أقوى أثرًا مما وجد أبوه – أن في ملكه عددًا كبيرًا من أصحاب الأرض والتجار، وهم أشخاص لهم وزنهم ولهم ذكاؤهم، قد رسموا حدًا محدودًا لمطالب الملك ووزرائه ومقتضياتهم. كانوا على استعداد للرضا بحكمه إذا مُكِّنوا هم أنفسهم أن يكونوا ملوكًا وأقيالا لأراضيهم وأعمالهم وتجارتهم وما إلى هذا بسبيل. ولكنهم لا يقبلون عدا ذلك شيئًا.

وكان هناك تطور مماثل لهذا في كل أرجاء أوربا. فمن دون الملوك والأمراء كان هؤلاء الأقيال الصغار، وأعني بهم أصحاب الأملاك والنبلاء والمواطنين (الممادنين) الأغنياء ومن إليهم، الذين كانوا يظهرون آنذاك لمولاهم الأمير نفس المقاومة التي أبداها ملوك ألمانيا وأمراؤها للإمبراطور. وكانوا يرمون إلى تحديد الضرائب بقدر ما كانت تضغط على أشخاصهم، وأن يكونوا أحرارًا في ديارهم وضياعهم. وكان من أثر انتشار الكتب والقراءة وازدياد الاتصال بين الناس، أن تمكن هؤلاء الأقيال الصغار، أقيال الأملاك والتجارة من إنشاء مجتمع فكري متطور ودعم أركان المقاومة فيه بصورة لم يكن لها نظير في أية مرحلة من المراحل التي مرت بتاريخ الإنسانية كله. كانوا نزاعين في كل مكان أن يقاوموا الأمير، ولكنهم لم يجدوا في كل بقعة نفس اليسر في المقاومة المنظمة. فإن الظروف الاقتصادية والتقاليد السياسية في الأراضي المنخفضة وإنجلترة جعلت هذين القطرين أول من جعل الخصومة بين العاهل والمالك موضع البحث للوصول إلى حل ناجع لها.

وفي بادئ الأمر كان "جمهور" القرن السابع عشر هذا، جمهور أصحاب الأملاك، قليل الاحتفال بالسياسة الخارجية. ذلك أنهم لم يستشعروا أول الأمر كيف أنها تؤثر فيهم. فلم يريدوا أن يشغلوا أنفسهم بها فقد سلموا بأنها شئون الأمراء والملوك. ومن ثم لم يحاولوا قط التحكم في معقدات السياسة الخارجية، ولكن حدث أنهم اشتبكوا مع النتائج المباشرة لهذه المعقدات، فقد اعترضوا على الضرائب الفادحة، وعلى التدخل في شئون التجارة، وعلى الحبس التعسفي، وعلى تحكم الملك في الضمائر. وعلى أساس هذه المسائل نزلوا حومة الكفاح ضد التاج.

٢- الجمهورية الهولندية

كان انفصال الأراضي المنخفضة عن الملكية المطلقة بداية سلسلة من تلك المنازعات التي استعرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر. بيد أنها كانت تختلف في تفاصيلها اختلافًا بالغًا تبعًا للخصائص المحلية والعنصرية، ولكنها كانت كلها من حيث الجوهر تمردًا على السلطان الشخصي "للأمير" وعلى توجيهه السياسي والديني.

كانت منطقة الراين الأدنى بأكملها مقسمة في القرن الثاني عشر بين عدد من صغار الحكام، وكان السكان من أرومة ألمانية دنيا (Low German) [١] من دونها أساس كلتيّ قديم، وتخالطهم عناصر دانيمركية متأخرة عهدًا شديدة الشبه بما في بلاد الإنجليز من خليط. وكان الإفريز الجنوبي الشرقي لهذا الإقليم ينطق بلهجات فرنسية؛ على حين تنطق كتلة السكان بلغات فريزية وهولندية ولغات ألمانية دنيا أخرى. ولقد ظهرت الأراضي المنخفضة ظهورًا كبيرًا في الحروب الصليبية. فإن جودفري البويوني (of Bouillon) الذي استولى على بيت المقدس (في الحملة الصليبية الأولى) كان بلجيكيًا. كما أن مؤسس ما يسمى بالأسرة اللاتينية في القسطنطينية (الحملة الصليبية الرابعة) هو بالدوين أمير فلاندرا. (وإن أطلق عليهم اسم الأباطرة اللاتينيين، لأنهم كانوا يظاهرون الكنيسة اللاتينية).

ونمت مدن ضخمة في الأراضي المنخفضة إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر: منها غنت وبروج وإيبر وأترخت وليدن وهارلم وما إليها. وتطورت في هذه المدن "حكومات مجالس بلدية" شبه مستقلة وطبقة من رجال المدن المتعلمين ولن نشغل القارئ بما سنح بين الأسرات المالكة من صدف ربطت شئون الأراضي المنخفضة ببورغنديا (فرنسا الشرقية)، وانتهت إلى انتقال السلطان الأعلى عليها إلى ميراث الإمبراطور شارل الخامس.

وفي عهد شارل انتشرت إلى الأراضي المنخفضة المبادئ البروتستانتية التي كانت عند ذاك تعم ألمانيا. واضطهد شارل الناس في شيء من الشدة، ولكنه ما لبث في (١٥٥٦)، كما أسلفنا أن ترك الأمر إلى ولده فيليب (فيليب الثاني). وسرعان ما أصبحت سياسة فيليب الخارجية الناشطة – وقد كان مشتبكًا بحرب مع فرنسا – مصدر شر آخر بينه وبين نبلاء الأراضي المنخفضة وأهل مدنها، لأنه اضطر أن يلجأ إليهم طالبًا المعونة. فنصب النبلاء العظام أنفسهم على رأس مقاومة شعبية عامة، يقودهم وليم الصامت، أمير أورانج، وكونتا إجمونت وهورن، وصار يستحيل فيها التفريق بين الاعتراض على فرض الضرائب والاعتراض على الاضطهاد الديني. وفي أول الأمر لم يكن النبلاء العظام من البروتستانت، ولكنهم اعتنقوا ذلك المذهب عندما اشتدت حدة النزاع مرارة. أما الشعب فكان من قبل بروتستانتيًا متعصبًا.

---

[1] راجع ص ١٤٠ ج ١ من المعالم ط٢. والأورمة الألمانية الدنيا هي التي كانت تسكن سهل ألمانيا الشمالي المنخفض ولغتهم تسمى باللهجة الألمانية الدنيا. (المترجم).

وعقد فيليب العزم على أن يحكم الأراضي المنخفضة وضمائر أهليها جميعًا. فأرسل إليهم نخبة مختارة من الجنود الإسبان واستعمل على البلاد نبيلاً اسمه ألفا، وهو أحد أولئك الرجال "الصارمين" الذين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا والذين يحطمون الحكومات والملكيات. فطفق يحكم البلاد ردحًا من الزمان بقبضة من حديد، ولكن اليد الحديدية تبث فيما تمسه من جسم روحًا من حديد، ففي (١٥٦٧) جهرت كل الأراضي المنخفضة بالعصيان. وأخذ ألفا يُعمل القتل والانتهاب والمذابح على غير طائل. وأُعدم الكونتان إجمونت وهورن. فأصبح وليم الصامت زعيم الهولنديين الأكبر، ومليكهم في الواقع.

واستمر الكفاح في سبيل الحرية زمانًا طويلاً يتخلله كثير من التعقيد، ومن الجدير بالذكر أن العصاة ظلوا متعلقين في كل أدوار الكفاح بالقول بأن فيليب الثاني إنما هو ملكهم – على شريطة أن يرضى أن يكون ملكًا معقولاً محدود السلطان. ولكن فكرة الملكية المقيدة كانت فكرة كريهة المذاق لدى أصحاب التيجان في أوربا وقتذاك، وأخيرًا دفع فيليب بالمقاطعات المتحدة التي نطلق عليها اليوم اسم هولندة، إلى النزوع نحو الحكم الجمهوري. وليلحظ القارئ أن ذلك النزوع ظهر في هولندة وليس الأراضي المنخفضة جمعاء. ذلك أن القسم الجنوبي من الأراضي المنخفضة وهو بلاد البلجيك كما يسمى ذلك القطر الآن، ظل حتى نهاية الكفاح ولاية إسبانية وكاثوليكية العقيدة أيضًا.

ويمكن أن يتخذ حصار آلكمار (١٥٧٣) كما يصفه موتلي[1]، مثالاً على ذلك النضال الطويل الفظيع بين الشعب الهولندي الصغير وبين موارد الاستعمار الكاثوليكي التي كانت لا تزال كبيرة ضخمة. كتب ألفا إلى فيليب يقول:

"إذا استوليت على آلكمار فلن أدع فيها على قيد الحياة فردًا. ولسوف أضع النصل في كل رقبة.."

والآن وقد مثلت أمام أعينهم مدينة هارلم المجردة من أسلحتها والخاوية على عروشها، وكأني بها شبحًا يتنبأ لهم بمصيرهم، فإن رجال آلكمار الذين يعدون على الأصابع والذين أغلقوا عليهم أبوابها تهيّئوا لأسوأ الظروف. وكان صديقهم البحر هو مناط أملهم الأكبر. ذلك بأن الفتحات الهائلة التي يمكن بواسطتها غمر المقاطعة الشمالية بغاية السرعة، لم تكن إلا على مبعدة أميال قليلة. فلو أنهم فتحوا هذه البوابات وهدموا بعض جسور الماء لجعلوا المحيط يحارب في صفهم. ومع ذلك فقد كانت موافقة الأهلين لازمة للحصول على تلك النتيجة، إذ إن تلف كل المحاصيل التي في الحقول يكون عند ذاك محققًا. وكانت المدينة محوطة بالمحاصرين إحاطة وثيقة جعلت من العسير عليهم أن يجدوا رسولاً يقوم بتلك المهمة المخطرة. وأخيرًا تقدم للقيام بهذه المغامرة نجار يدعي بيتر فان درومااي.

"وسرعان ما تحرجت الأمور في داخل المدينة المحصورة. فقد كانت تحدث في كل يوم خارج الأسوار مناوشات غير حاسمة. ثم حدث آخر الأمر في اليوم الثامن عشر من سبتمبر أن أصدر الدون فردريك في الساعة الثالثة بعد الظهر أمرًا بالهجوم، بعد ضرب المدينة بالمدافع ضربًا متواصلاً دام اثنتي عشرة ساعة تقريبًا. وبالرغم مما مر به من خبرة دامت سبعة شهور في هارلم فإنه ظل يعتقد أن من المحقق أن يأخذ

---

(1) في كتابه "Rise of the Dutch Republic"

المدينة اكتساحًا. وحدث الهجوم في نفس الوقت على كل من البوابة الفريزية والبرج الأحمر في الجهة المقابلة. وكان على رأس الهجوم فرقتان من نخبة الجند وصلتا وشيكًا من لومبارديا، وهما تزلزلان الجو بصيحات أفرادهما معبرين عن ثقتهم بنصر هين قريب. وكانت تظاهرهم قوة جارفة من الجنود المنظمة. بيد أنه لم يحدث قط في تاريخ هارلم القريب، أن قوبلت هجمة بصدور أثبت جنانًا وأشجع أفئدة. فإن كل رجل به نسمة من حياة كان متخذًا مكانه على الأسوار. وكانت الجماعات المهاجمة تقابل بالمدافع والقرابينات والغدارات. وكان الماء الحار والقار والزيت المغلي والرصاص المصهور والجير الحي تصب عليهم في كل لحظة صبًا. وكانت مئات من الأطواق المقيّرة والمحماة تلقى بمهارة حول أعناق الجنود، الذين حاولوا عبثًا أن يخلصوا أنفسهم من تلك الأطواق النارية، في حين أنه لم يكن أحد من المهاجمين يكاد يضع قدمه على الثغرة حتى يتلقاه سكان المدينة بالسيوف والخناجر وينكسوه على أم رأسه في الخندق.

"وتجدد الهجوم ثلاث مرات بحدة وقوة لا تلين وصد كذلك ثلاث مرات بمضاءة وجلد لا هوادة معهما. واستمرت العاصفة هوجاء أربع ساعات. ولم يغادر واحد من المدافعين مكانه طيلة تلك المدة، إلا أن يسقط عنه صريعًا أو جريحًا. ونفخ في البوق نفخة الارتداد، وانسحب الإسبان عن الأسوار مندحرين تمام الاندحار، مخلفين وراءهم في الخنادق ما لا يقل عن ألف قتيل، أما أهل المدينة فلم يقتل منهم إلا ثلاثة عشر من السكان وأربعة وعشرون من الحامية... وقد روى حامل العلم سوليز الذي صعد على ثغرة السور مدة لحظة قصيرة ونجا بحياته بمعجزة حين قذف به من الأسوار، أنه لم ير عندما أشرف على المدينة خوذة ولا سرجًا: بل شهد نفرًا من الناس البسطاء المظهر يرتدون عمومًا ثياب صيادي السمك. ومع ذلك فإن هؤلاء الصائدين البسطاء قد دحروا محنكة جنود ألفا.

"وفي نفس الوقت كان الحاكم سونوي قد فتح كثيرًا من جسور الماء، فأخذت الأرض في المنطقة المجاورة للمعسكر تصبح بركًا، وإن كان الفيضان الداهم لم يحدث حتى آنذاك. ودب دبيب القلق في الجنود وامتلأت نفوسهم بالشكس والتمرد. ولم تذهب مهمة النجار عبثًا...".

فإنه عاد إلى المدينة يحمل بعض الرسائل. ولكنه فقد تلك الرسائل إما على وجه الصدفة أو التدبير – وهو في طريقه إلى المدينة – فوقعت في يد ألفا. وكانت تحوي وعدًا صريحًا من دوق أورانج بغمر البلاد بالماء غمرًا يجعل الجيش الإسباني بأكمله من المغرقين. وكان هذا الأمر يغرق في نفس الوقت معظم محصول الهولنديين وماشيتهم. ولكن ألفا عندما أطلع على تلك الوثائق لم ينتظر حتى تفتح عليه بوابات أخرى. وسرعان ما أخذ رجال آلكمار البواسل يتصايحون ويهتفون – حين شهدوا الإسبان يأخذون أهبة الرحيل والتفرق.

واتخذت حكومة هولندة المحررة شكل جمهورية من الأشراف تحت رياسة بيت أورانج. وكان "مجلس الطبقات States General أقل تمثيلاً لهيئة المواطنين بأكملها من البرلمان الإنجليزي، الذي سنقص عليك فيما يلي قصة كفاحه مع التاج.

ومع أن أسوأ أدوار الكفاح انقضت بعد آلكمار، فإن هولندة لم تصبح مستقلة بالفعل حتى (١٦٠٩)، ولم يعترف باستقلالها اعترافًا تامًا كاملاً إلا في معاهدة وستفاليا في (١٦٤٨).

٣- الجمهورية الإنجليزية

يبدأ النزاع الصريح الذي قام به مالك العقار مناهضًا عدوان "الأمير" في إنجلترة منذ عهد قديم يرجع إلى القرن الثاني عشر. ودور الكفاح الذي علينا أن ندرسه الآن إنما هو الذي ابتدأ بمحاولات هنري السابع والثامن وخلفائهما، إدوارد السادس، وماري وإليزابيث جعل حكومة إنجلترة "ملكية شخصية [1]" من الطراز الشائع بالقارة الأوربية. واشتد الكفاح حدة عندما حدث تبعًا لمصادفات المصاهرة في الأسرة المالكة، أن أصبح جيمس ملك اسكتلندة، هو جيمس الأول ملك إنجلترة واسكتلندة على السواء (١٦٠٣)، وأخذ يتكلم على المنوال الذي اقتبسناه عنه آنفًا عن "حقه الإلهي" في أن يفعل ما يشتهي.

ولكن لم يحدث قط أن كان طريق الملكية الإنجليزية سهلاً معبّدًا. ففي كل العاهليات التي أقامها غزاة الإمبراطورية الشماليون والألمانيون كان هناك تقاليد لجمعية شعبية تجمع ممثلي الشعب ذوي النفوذ من الرجال لحفظ حرياتهم العامة، ولم تكن تلك الجمعية أنشط في أيّ منها حياة في إنجلترة. فكانت لفرنسا تقاليدها الخاصة بجمعية "الطبقات الثلاث Estates" وكان لإسبانيا كورتيزها. بيد أن الجمعية الإنجليزية كانت تتسم بسمة خاصة من ناحيتين: أولاهما أنها كانت تستند إلى تصريح يتخذ صفة الوثيقة ويحتوي على حقوق معينة أولية وعامة؛ وثانيتهما أنها كانت تضم "فوارس مقاطعات" منتخبين كما تضم نوابًا عن المدن منتخبين أيضًا. وكانت الجمعيتان الفرنسية والإسبانية تتألفان من العنصر الأخير دون الأول.

وهاتان الخصيصتان جعلتا للبرلمان الإنجليزي قوة خاصة في كفاحه مع العرش. والوثيقة المعنية إنما هي "الماجناكارتا" أي العهد الأعظم، وهو تصريح أخذ غصبًا من الملك جون (١١٩٩ – ١٢١٦)، وهو أخو الملك ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩ – ١١٩٩) وخليفته، وذلك بعد العصيان الذي قام به البارونات في (١٢١٥). وهو يكرر عددًا من الحقوق الجوهرية التي جعلت من إنجلترة دولة قانون لا دولة ملك. وهو قد أبى على الملك التسلط على الممتلكات والحرية الشخصية لكل نوع من أنواع المواطنين – اللهم إلا أن يكون ذلك برضاء نظراء ذلك المواطن.

فأما وجود ممثلي المقاطعة المنتخبين في البرلمان الإنجليزي – وهي الخصيصة الثانية في حالة بريطانيا – فقد نجم عن بدايات بسيطة جدًا، وحميدة لا مضرة منها. إذ يبدو أن الفرسان كانوا يستدعون من المقاطعات أو أقسام الريف إلى المجلس الوطني ليشهدوا بمقدرة نواحيهم على دفع الضرائب. وكان يرفعهم إلى ذلك المكان من هم أدنى منهم مرتبة من الأعيان وأصحاب الأملاك وشيوخ القرى في نواحيهم في زمان يرجع إلى (١٢٥٤)، فينوب عن كل مقاطعة فارسان. فألهمت هذه الفكرة سيمون دي مونت فورت، وكان في ثورة ضد هنري الثالث، خليفة جون، أن يدعو إلى المجلس الوطني فارسين عن كل مقاطعة، وممادنين لكل

---

[1] الملكية الشخصية أو الفردية هي الاستبدادية المطلقة التي يجتمع فيها الحكم في شخص الملك. (المترجم)

مدينة أو بندر انتخابي [١]. وواصل هذا العمل إدوارد الأول خليفة هنري الثالث، إذ إنه كان يلوح في نظره وسيلة ملائمة تمكنه من الاتصال المالي بالمدن النامية.

وأبدى الفرسان ورجال المدن في بادئ الأمر قدرًا جسيمًا من عدم الرغبة في حضور البرلمان، ولكنهم أدركوا شيئًا فشيئًا القوة التي يملكونها في اتخاذ رفع الظلم عن الناس شرطًا لمنح الاعتمادات المالية.

وكان هؤلاء ممثلو ملاك العقارات العامة في المدن والريف يسمون باسم "العموم Commons". وكانوا يعقدون جلساتهم ويتناقشون في الأمور من زمن قديم جدًا أو قل منذ البداية، بمعزل تمام عن كبار اللوردة والأساقفة. وهكذا نمت في إنجلترة جمعية نيابية تمثيلية، هي مجلس العموم، إلى جانب جمعية أخرى من الأساقفة والنبلاء هي مجلس اللوردة. ولم يكن هناك فارق جوهري عميق يفرق بين هيئتي الجمعيتين. إذ إن كثيرًا من فرسان المقاطعة رجال لهم قيمتهم ووزنهم، وربما بلغوا من الثراء والنفوذ مبلغ النبلاء وبينهم كذلك أبناء النبلاء وأشقاؤهم، على أن مجلس العموم كان في جملة أمره هو الجمعية الأدنى إلى الشعبية.

وأظهر هذان المجلسان منذ البداية، وبخاصة مجلس العموم، ميلاً إلى ادعاء الحق الكامل في فرض الضرائب على البلاد. وأخذا بالتدريج يوسعان دائرة اختصاصهما من النظر في المظالم إلى نقد شئون المملكة كلها.

ولسنا بمترسمين التقلبات التي ألمت بقوة البرلمان الإنجليزي وهيبته إبان حكم ملوك آل تيودور، (أعني هنري السابع والثامن وإدوارد السادس وماري وإليزابيث)، على أنه يتضح للقارئ مما قلناه، أنه عندما أعلن جيمس استيوارت آخر الأمر ادعاءه الصريح للحكم المطلق الأوتوقراطي، وجد التجار والنبلاء والجنتلمانية المستقلون الإنجليز، بين أيديهم وسيلة تقليدية شريفة مختبرة لمقاومته لم يكن عند أي شعب في أوربا نظير لها.

وهناك خصيصة أخرى للنضال السياسي الإنجليزي، هي انفصاله النسبي عن الكفاح العظيم بين الكاثوليك والبروتستانت، وهو الكفاح الذي كانت نيرانه مشبوبة في كل أرجاء أوربا. حقًا إنه اختلطت بالكفاح الإنجليزي منازعات دينية واضحة المعالم جدًا، ولكنه كان في جوهره نضالاً سياسيًا بين الملك والبرلمان مجسمًا في طبقة المواطنين أصحاب الأملاك الخاصة. على أن الشعب والتاج كانا من الناحية الرسمية من الآخذين بالإصلاح الديني كما كانا من البروتستانت. نعم إن كثيرًا من الناس في الجانب الأول (أعني الشعب) كانوا بروتستانت، من طراز يحترم الكتاب المقدس ولا يقيم وزنًا للنظام الكهنوتي، وهو الطراز الذي يمثل الإصلاح الديني كما تراه الشعوب، وإن الملك كان الرئيس الاسمي لكنيسة من نوع خاص تعترف بالعشاء الرباني وتقوم على نظام الكهنوت، وهي كنيسة إنجلترة الرسمية، التي تمثل الإصلاح الديني كما يراه الأمراء [٢] ولكن هذه الخصومة لم تحجب بأية حال أسس الكفاح الجوهرية.

---

[1] البندر الانتخابي: لفظة أطلقناها للدلالة على Borough ومعناها المدينة التي ترسل عنها نوابًا في البرلمان. (المترجم).

[2] انظر ص ٩٧٩ ج٣ من المعالم الطبعة الثانية.

وكان الكفاح بين الملك والبرلمان قد وصل بالفعل إلى دور حاد قبل وفاة جيمس الأول في (١٦٢٥)، ولكنه لم يبلغ ذروته، ويصل إلى الحرب الأهلية إلا في حكم ولده شارل الأول. وفعل شارل بالضبط كل ما يتوقع من ملك في ذلك الموقف، بالنظر إلى قلة الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية. فإنه زجّ بالمملكة في حرب مع كل من إسبانيا وفرنسا، ثم جاء يطلب من بلاده المدد آملاً أن يتغلب الشعور الوطني على ما توقّر في النفوس من كراهية طبيعية لإعطائه المال. فلما أن رفض البرلمان إمداده بالمال، طلب من كثير من رعاياه بعض القروض، وحاول أن يفرض على الناس ألوانًا مماثلة من هذه الفرائض غير القانونية.

فأدى هذا بالبرلمان إلى إصدار وثيقة لا تنسى أبدًا (١٦٢٨)، هي "ملتمس الحقوق Petition of Rights" ذكره فيها بالعهد الأعظم وأكد القيود القانونية على سلطة الملك الإنجليزي، وأنكر حقه في جباية الفرائض من أي إنسان أو سجنه أو معاقبته، أو أن ينزل جنوده على حساب الناس، دون اتخاذ الإجراءات القانونية الواجبة.

إن ملتمس الحقوق عرض قضية البرلمان الإنجليزي. والميل إلى عرض القضية، كان على الدوام خصيصة من الخصائص الإنجليزية الملحوظة جدًا. وعندما كان الرئيس ولسون أثناء الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٨) يمهد لكل خطوة من خطوات سياسته "بمذكرة"، كان يسير في نهج أعظم التقاليد الإنجليزية وقارًا.

وتصرف شارل مع هذا البرلمان تصرف المتعسف المتغطرس – فحله في (١٦٢٩)، وظل أحد عشر عامًا يحكم بلا برلمان. ويجمع الضرائب جمعًا غير قانوني، ولكنها لم تكن تفي بغرضه وإذ أدرك أن في الإمكان أن تستعمل الكنيسة أداة لنشر الطاعة، عين لود رئيسًا لأساقفة كانتربوري وبذا يصبح على رأس كنيسة إنجلترة، وهو رجل من كبار رجال الكنيسة عدواني الطبع، وينطوي على كثير من صفات القسيس وممن يؤمنون "بالحق الإلهي".

وفي (١٦٣٨) حاول شارل أن يبسط طابع الكنيسة الإنجليزية الذي يجمع بين البروتستانتية والكاثوليكية، إلى مملكته الأخرى الاسكتلندية، التي كان تباعدها وانفصالها عن الكاثوليكية أتم وأشمل، والتي كانت تتخذ صورة من المسيحية لا تقوم على نظام كهنوتي ولا تعترف بالعشاء الرباني، وهي الكنيسة البريزبترايانية Presbyterian [1]، التي تأسست بوصفها الكنيسة القومية. فثار الاسكتلنديون، وتمردت الجنود الإنجليزية التي جمعها شارل لمقاتلهم.

وكان الإفلاس – وهو في كل الأزمان النتيجة الطبيعية لكل سياسة خارجية طموح – قاب قوسين منه أو أدنى. واضطر شارل حين لم يعد لديه مال ولا جنود جديرة بالثقة، أن يدعو آخر الأمر برلمانًا (١٦٤٠). ولكنه حل ذلك البرلمان في السنة نفسها، وهو المعروف بالبرلمان القصير. ثم حاول الاستعانة بمجلس من النبلاء في يورك (١٦٤٠)، ثم استدعى في نوفمبر من نفس السنة آخر برلمان له.

---

(1) البريزبترايانية هي كما ترى الكنيسة الاسكتلندية الرسمية. وهي تقوم على إدارة الشئون الدينية والكنيسة بواسطة الكهول والشيوخ سواء أكانوا من رجال الدين أم لم يكونوا. وقد قامت على تعاليم جون كالفن. (المترجم).

واجتمعت هذه الهيئة، وهي البرلمان الطويل، وهي في حالة تهيؤ للنضال. فقبضت على لود، رئيس أساقفة كانتربوري، واتهمته بالخيانة. ونشرت ما يسمى "بالاعتراض الأكبر"، وكان تقريرًا مفصلاً شاملاً لقضية البرلمان ضد شارل. وأصدر البرلمان مشروع قانون (Bill) – اتخذ به التدابير اللازمة لاجتماع البرلمان مرة في كل ثلاث سنين على الأقل، سواء استدعاه الملك أم لم يستدعه. وحاكم أكابر وزراء الملك الذين أعانوه على الحكم مثل ذلك الزمان الطويل بلا برلمان، وبخاصة الإيرل سترافورد.

فدبر الملك إنقاذاً لاسترافورد – مؤامرة للاستيلاء بالجيش فجأة على لندن. ولكن المؤامرة اكتشفت، وسارع البرلمان إلى إصدار مشروع القانون القاضي بإدانة سترافورد وسط عاصفة عظيمة من الهياج الشعبي. ودب الخوف من جماهير لندن إلى قلب الملك شارل الأول، الذي لعله كان من أسفل من جلسوا على العرش البريطاني وأشدهم خيانة. ولكي يموت سترافورد حسب الأصول القانونية السليمة ما لم يكن بد من أن يوافق الملك على القرار. فوافق الملك وقطعت رأس سترافورد.

وكان الملك في الوقت نفسه يأتمر في الخفاء ويبحث عن المعونة في مواطن غريبة، ينشدها بين الإرلنديين الكاثوليك وبين الخونة من الاسكتلنديين. وأخيرً لجأ إلى مظهر للعنف ضعيف. فذهب إلى دار البرلمان ليعتقل خمسة من أنشط خصومه. فدخل إلى مجلس العموم واعتلى منصة الخطابة. وكان مستعدًا لإلقاء خطبة جريئة عن الخيانة، ولكنه عندما رأى أماكن خصومه الخمسة خالية، أرتج عليه واضطرب وتكلم في جمل متقطعة. إذ علم أنهم ارتحلوا عن مدينته الملكية وستمنسر، ولجئوا إلى مدينة لندن التي كان لها مجلس بلدية يحكمها حكمًا ذاتيًا. وتحدته لندن. وبعد ذلك بأسبوع قام رجال حرس لندن المدربون بتوصيل هؤلاء الأعضاء الخمسة إلى دار البرلمان بوستمنستر في موكب عظيم من مواكب النصر، ولكي يتجنب الملك جو الصخب والعداء الذي صحب الحادث، غادر قصر هوايت هول إلى وندسور. وعندئذ استعد كل من الفريقين صراحًا للحرب.

وكان الملك هو الرئيس التقليدي للجيش وقد جرت عادة الجند بطاعة الملك. وكانت لدى البرلمان موارد أعظم. ورفع الملك لواءه في نوتنجهام في مساء يوم مظلم عاصف من أغسطس (١٦٤٢).

وعقبت ذلك حرب أهلية طويلة عنيدة، كان الملك فيها مستحوذاً على أكسفورد والبرلمان على لندن. وكان النجاح يتنقل من جانب إلى جانب، ولكن الملك لم يستطع قط أن يطبق على لندن، كما لم يستطع البرلمان أن يستولي على أكسفورد. وكان يفل من عزم كل من الخصمين وجود أتباع من المعتدلين الذين "لم يكونوا يحبون الاشتطاط في الأمور".

وبرز من بين قادة البرلمان، رجل اسمه أوليفر كرومويل، كان قد جمع ثلة من الفرسان وارتفع إلى رتبة جنرال. ويصفه معاصره اللورد واورويك بأنه رجل بسيط يرتدي بدلة من قماش عادي صانعها خياط "ريفي رديء". لم يكن مجرد جندي مقاتل، بل كان منظمًا عسكريًا، أدرك ما عليه كثير من القوات البرلمانية من حالة دنية، ونصب نفسه لإصلاحها. وكان لفرسان الملك تلك التقاليد الجميلة، تقاليد الفروسية والولاء. وكان البرلمان شيئًا جديدًا عسيرًا على الأفهام ليست له تقاليد تقارن بتلك. قال كرومويل "إن معظم جنودكم

إنما هم خدمة وسقاةٌ كهولٌ واهنو القوى، فهل تظنون أن أرواح مثل هؤلاء الأشـ خاص الأسـ افل الأدنيـ اء، تستطيع يومًا أن تقاتل الجنتلمانية الذين ملأ أعطافهم الشرف والشجاعة والعزم؟.

ولكن هناك شيئًا أقوى وأحسن من الفروسية الجذابة في العالم، وذلك هو الحماسة الدينية. ولذا نـ صب كرومويل نفسه ليجمع فرقة من "الربانيين الأتقياء". وكان لا بد لهم من أن يكونوا رجالاً جادين معتدلين فـ ي حياتهم. وكان لا بد لهم فوق كل شيء من أن يكونوا رجالا ذوي عقيـ دة قويـ ة. فتجاهـ ل جميـ ع التقاليـ د الاجتماعية وجمع ضباطه من بين كل طبقة. قال: "إني لأفضل أن أحصل على ضابط بسيط يرتـ دي بدلـ ة ريفية حمراء، ويعرف الذي من أجله يحارب ويحب ما يعرف، على ما تسمونه جنتلمانًا وليس بـ شيء عـ دا ذلك".

واكتشفت إنجلترة بين ظهرانيها قوة جديدة هي الحرس الحديدي. كان السعاة والحوذية وربابنة الـ سفن يتولون فيها قيادة عليا، إلى جوار أبناء البيوتات. وأصبحوا النموذج الذي حاول البرلمان أن يبني على منواله من جديد جيشه بأكمله. وكان الحديديون هم العمود الفقري "للنموذج الجديد". واجتاح هؤلاء الرجال أمـ امهم فرسان الملك من مارستون مور إلى نيسبي. وأخيرًا وقع الملك أسيرًا في قبضة البرلمان.

ورغم ما جرى بذلت محاولات لتسوية الأمور هدفها ترك الملك في عرشه بشكل ما، ولكن شارل كان رجلاً قدرت عليه العواقب المحزنة، فهو لا ينقطع عن تدبير الخطط؛ "رجلاً بلغ من إفكه أنه لا يجوز أن يثق به إنسان". وكان الإنجليز ينساقون نحو موقف جديد في تاريخ العالم، وجب فيه أن يحاكم ملك على خيانتـ ه شعبه وأن يقضي فيه بحكم.

والحق أن جميع الثورات – شأن هذه الثورة الإنجليزية – إنما تدفعها نحو العجلة المتهورة تـ صرفات الحاكم ومحاولته استعمال القوة والحزم استعمالا يتجاوز حدود القانون. وتتقذف معظم الثورات بحكم نوع من الضرورة نحو خاتمة أشد تطرفًا مما كان يستشف من الخلاف الأصلي. ولم تكن الثورة الإنجليزية اسـ تثناء لهذا الأمر. والإنجليز بطبعهم شعب ميال إلى الصلح والتفاهم بل هم قوم متـ رددون، والـ راجح أن الغالبيـ ة العظمى منهم كانت لا تزال تريد أن يظل الملك ملكًا وأن يكون الناس أحرارًا، وأن يرقد الأسود والخـ راف بعضهم إلى جوار بعض في سلام وحرية. ولكن الجيش ذا الطراز الجديد لم يكن في مستطاعه أن يتراجـ ع. فلن تكون هناك إذا ما عاد الملك إلى عرشه ذرة من الشفقة نحو هؤلاء الـ سعاة والحوذيـ ة الـ ذين وطئـ وا جنتلمانية الملك بخيولهم. وعندما شرع البرلمان في التفاوض من جديد مع المخاتل الملكي، تـ دخَّل الطـ راز الجديد. فطرد الكولونيل برايد ثمانين عضوًا من أعضاء البرلمان الإنجليزي كانوا يميلون إلـ ى الملـ ك، ثـ م قدمت البقية الباقية غير القانونية وهي البرلمان الأبتر (Rump Parliament)، الملك إلى المحاكمة.

ولكن الواقع أن الملك كان مقدرًا عليه من قبل قضاء لا مرد له. فلما أن رفض مجلس اللوردة قـ انون المحاكمة، أعلن البرلمان الأبتر عند ذلك "أن الأمة إنما هي في ظل الله مصدر كل الـ سلطات العادلـ ة" وأن "العموم في إنجلترة أصحاب السلطة العليا في هذا الشعب"، وإذ افترض المجلس الأبتر أنه هو نفسه العموم – فإنه واصل المحاكمة. وحكم على الملك بأنه "طاغية وخائن وقاتل وعدو لبلاده". وأخذ في صباح أحـ د أيـ ام

شهر يناير (١٦٤٩) إلى مشنقة، أقيمت خارج نوافذ قاعة ولائمه الخاصة في هوايت هول. وهناك قطعت رأسه. فمات وعليه سيما التقوى وضرب من الإشفاق على الذات نبيل – وذلك بعد إعدام استرافورد بثمانية أعوام، وبعد ست سنوات ونصف مضت في حرب أهلية مدمرة، سببها كلها تقريبًا بلا استثناء خروجه على القانون.

والحق أن هذا الذي عمله البرلمان كان عملاً فظيعًا مرعبًا. فلم يسمع الناس بمثله قط في العالم من قبل نعم إن الملوك كثيرًا ما قتل أحدهم الآخر؛ وإنما كان قتل الأب أو الأخ والاغتيال وسائل اختص بها الأمراء؛ فأما أن يقوم فريق من الشعب، ويحاكم ملكه في جد وتعمد متهمًا إياه بعدم الولاء وإثارة الشر والخيانة، ويحكم بإدانته ثم يقتله، فأمر بث الذعر في كل بلاط في أوربا. ذلك أن البرلمان الأبتر تجاوز ما يطيقه ضمير زمانه وفكراته. وكأنما خرج من إحدى الغابات سرب من الظباء فأسر أحد النمور وقتله – وهي جريمة مخالفة للطبيعة. فطرد قيصر الروسيا السفير الإنجليزي من بلاطه. واتخذت فرنسا وهولندة تصرفات عدائية صريحة. ووقفت إنجلترة منعزلة أمام العالم، مبلبلة يؤنبها ضميرها بجرمها.

ومضى ردح من الزمان تهيأ فيه للمزايا الشخصية لأوليفر كرومويل ولنظام الجيش الذي أنشأ وقوته، أن تصون لإنجلترة النهج الجمهوري الذي سلكت. وكان الإرلنديون الكاثوليك قاموا بمذبحة في الإنجليز البروتستانت النازلين في إرلندة، وعند ذاك قمع كرومويل بشدة عظيمة الإرلنديين العصاة. وفيما عدا رهبانا بأعيانهم قتلوا أثناء الهجوم العنيف على دروجيدا فإن جنوده لم يقتلوا إلا الرجال الذين يحملون السلاح بأيديهم. ولكن فظائع المذبحة كانت لا تزال قوية الأثر في ذهنه، ولذا لم تبد من جانبه أية رحمة في المعركة، ومن ثم لا تفتأ ذكراه يتقد لهيبها في أذهان الإرلنديين، الذين يطول تذكرهم لما يصيبهم من النوازل.

وبعد إرلندة، جاء دور اسكتلندة، حيث مزق كرومويل جيشًا ملكيًا في معركة دنبار (١٦٥٠).

ثم صرف انتباهه إلى هولندة، وهي القطر الذي نهز في حماقة فرصة الانقسامات بين الإنجليز واتخذها ذريعة لإيقاع الأذى بهم كمنافسين له في التجارة. وكان الهولنديون آنذاك سادة البحر، فكان قتال الأسطول الإنجليزي من ثم غير مضمون العاقبة. ولكن حدث بعد سلسلة من الحروب البحرية العنيدة أن طرد الهولنديون من البحار البريطانية، وحل الإنجليز محلهم بوصفهم الدولة البحرية العظمى. وأصبح حتمًا مقررًا على السفائن الهولندية والفرنسية أن تخفض لها راياتها. وذهب أسطول إنجليزي إلى البحر الأبيض، وكان أول قوة بحرية إنجليزية دخلت تلك المياه؛ فأصلحت كثيرًا من الحيف الواقع على أرباب السفن الإنجليز من توسكاني ومالطة، وأطلقت قنابلها على وكر القرصان التونسي وحطمت أسطول القراصنة – الذي تعوّد في أيام شارل وتراخيه أن يصل حتى شواطئ كورنوال وديفون ليقطع الطريق على السفن ويحمل الرقيق إلى إفريقية.

وتدخلت كذلك ذراع إنجلترة القوية لمساعدة البروتستانت في جنوب فرنسا، وكان دوق سافوي يطاردهم ويفتك بهم. ثم وجدت كل من فرنسا والسويد والدانمارك أن من الحكمة أن يتغلبن على نفورهن الأول من "قتل العاهل" فتحالفن مع إنجلترة. ونشبت الحرب مع إسبانيا، ودمر الأميرال الإنجليزي العظيم

بليك أسطول المعادن [1] الإسباني في تناريف في إقدام وجرأة لا يكاد يصدقها عقل. فإنه هاجم البطاريات البرية. فكان بذلك أول رجل "جعل السفن تخدش كبرياء قلاع الشواطئ". (ومات في ١٦٥٧، ودفن دير وستمنستر، ولكن نبشت عظامه بعد عودة الملكية بأمر من شارل الثاني، ونقلت إلى كنيسة القديس مارجريت بوستمنستر). تلك هي الصورة التي نقشتها إنجلترة لنفسها أمام عين العالم أثناء أيامها الجمهورية الوجيزة.

وفي اليوم الثالث من سبتمبر (١٦٥٨) توفي كرومويل أثناء عاصفة هوجاء لم يفتها أن تبلغ من نفوس أصحاب الخرافات كل مبلغ. وما كادت يده القوية تجمد عن الحركة، حتى تخاذلت بريطانيا عن تلك المحاولة السابقة لأوانها لتحقيق إنشاء دولة تقوى قوامها الأحرار من الرجال؛ ففي (١٦٦٠) رحب الناس في إنجلترة بعودة شارل الثاني ابن شارل "الشهيد" بكل مظاهر حفاوة الولاء الشخصي المحببة إلى قلوب الإنجليز، وتراجعت البلاد عن كفايتها العسكرية والبحرية كأنها النائم إذ يستيقظ ويتمطى ويتثاءب بعد حلم عنيف حاد. قُضي على البيوريتان (المتطهرين) وانتهى أمرهم. وعادت إنجلترة المرحة سيرتها الأولى، وفي (١٦٦٧) دخلت سفن الهولنديين – وقد عادت إليهم سيادة البحر ثانية – في نهر التاميز حتى وصلت جرافزند Gravesend وأحرقت أسطولاً إنجليزيًا في الميدواي [2].

يقول ببيس في يومياته: "وفي الليلة التي أحرق فيها الهولنديون سفننا، تعشى الملك فعلاً مع مولاتي الليدي كاستيل مين، وهناك جن جنونهم وهم يطاردون فراشة مسكينة".

وتناول شارل منذ ساعة عودته (١٦٦٠)، زمام شئون الدولة الخارجية بين يديه، و (١٦٧٠) عقد محالفة سرية مع لويس الرابع عشر الفرنسي، تعهد فيها أن يجعل السياسة الإنجليزية الخارجية تابعة تمامًا لسياسة فرنسا مقابل جعل سنوي مقداره مئة ألف جنيه. وكانت دنكرك التي سبق أن استولى عليها كرومويل قد بيعت قبل ذلك إلى فرنسا. وكان الملك رياضيًا عظيمًا، وله الولع الإنجليزي الصحيح بمشاهدة سباق الخيل، ولعل أبلغ آثاره في الدلالة على خصائصه حلبة السباق في نيوماركت.

وقد استطاع شارل بفضل فكاهته السهلة، الاحتفاظ مدى سني حياته بالعرش البريطاني، ولكنه وصل إلى ذلك بالتزام الحيطة وخطة التفاهم والمسالمة، حتى إذا خلفه في (١٦٨٥) أخوه جيمس الثاني، الذي كان كاثوليكيًا مخلصًا، وكان أغبى من أن يدرك التحديد الخفي الذي يحد من سلطة الملكية في إنجلترة، عاد النزاع القديم بين البرلمان والملك إلى حدته الأولى.

ونصب جيمس نفسه لإرغام مملكته على العودة إلى الاتحاد الديني مع روما. وإذا به في ١٦٨٨ يتخذ طريق الهرب إلى فرنسا. على أن اللوردة الكبار والتجار والجنتلمانية كانوا في هذه المرة أحرص من أن يسمحوا بأن يقذف بهم هذا التمرد على أيدي كولونيل برايد آخر أو كرومويل آخر. وكانوا استدعوا آنفًا ملكًا آخر هو وليم أمير أورانج ليحل محل الملك. وتم التغيير سريعًا. ولم تحدث أية حرب أهلية – اللهم إلا في إرلندة – ولم تنطلق في البلاد أية قوة ثورية أكبر من هذه.

---

[1] المستعمل في نقل المعادن النفيسة المغتصبة من أمريكا. (المترجم)

[2] الميدواي: نهر صغير بإنجلترة يصب في نهر التاميز. (المترجم)

وليس هنا مجال البحث في دعوى وليم بالعرش، أو بالحري في ادعاء زوجته ماري به، فإن هذا موضوع فني بحت – كما يقولون – ولا كيف حكم وليم الثالث وماري، ولا كيف حدث بعد ذلك أن الملك الأرمل وليم حكم وحده ردحًا من الزمان، ثم انتقل العرش إلى آن (١٧٠٢ – ١٧١٤) أخت ماري. ويلوح أن آن كانت تنظر بعين العطف إلى عودة الملك إلى أسرة استيوارت، ولكن اللوردة والعموم الذين كانوا عند ذاك المسيطرين على الشئون الإنجليزية، فضلوا أن يليهم ملك أقل كفاية. إذ كان في الإمكان أن يقام نوع من الادعاء على العرش لمنتخب هانوفر، الذي أصبح ملكًا على إنجلترة باسم جورج الأول (١٧١٤ – ١٧٢٧). كان ألمانيًا قحًا لا يعرف اللغة الإنجليزية، واجتلب معه إلى البلاط الإنجليزي حشدًا من النساء الألمانيات والحشم الألمان؛ وبمقدمه حلت بالحياة العقلية في البلاد فترة خمود وركود وزال عنها الصقل، ولكن انعزال البلاط عن الحياة الإنجليزية كان أعظم ما يزكيه لدى كبار ملاك الأراضي وأصحاب المصالح التجارية، بل كان الميزة التي من أجلها خاصة استقدموه.

ودخلت إنجلترة مرحلة يسميها اللورد بيكونز فيلد باسم مرحلة "أوليجركية البندقية "[1]؛ وكانت ناصية السلطة العليا مستقرة بين يدي البرلمان الذي كان يسيطر عليه آنذاك مجلس اللوردة، وذلك لأن فن الرشوة ودراسة طرائق طبخ الانتخابات، اللذين رفعهما إلى درجة عالية السير روبرت والبول، سلبت مجلس العموم حريته وقوته الأصليتين. فإنه استخدم طرقًا خبيثة ماهرة قصرت الأصوات البرلمانية من الناخبين. فقد ترسل مدن قديمة تحوي نفرًا قليلاً من السكان أو هي لا تحوي أحدًا قط عضوًا أو عضوين (فكان لمدينة سارووم القديمة ناخب واحد لا يقيم فيها، وليس بها أحد من السكان وينوب عنها مع ذلاك نائبان)، على حين لم يكن أحد يمثل على الإطلاق بعض المراكز الجديدة الآهلة بالسكان. وأفضى الإصرار على وجوب امتلاك الأعضاء مؤهلا عقاريًا ضخمًا، أن زادت ضيقًا على ضيق، الفرص المتاحة للعموم الذين يتكلمون بلسان العامة معبرين عن حاجات السوقة.

وعقب جورج الأول جورج الثاني (١٧٢٧ – ١٧٦٠) الشديد الشبه، وبموته أتيح لإنجلترة من جديد ملك مولود في إنجلترة، ويستطيع أن يتكلم الإنجليزية بدرجة من الجودة متوسطة وهو حفيده جورج الثالث. وسنحدثك في فصل تال عن محاولة هذا الملك استرداد بعض السلطات الملكية الكبرى.

ذلك موجز لقصة الكفاح الذي حدث بإنجلترة إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العوامل الثلاثة الكبرى في مشكلة الدولة العصرية؛ أي بين التاج وأصحاب الأملاك الخاصة وتلك القوة المبهمة، التي لا تزال عمياء جاهلة، وهي قوة الناس العوام الخلّص. وهذا العامل الأخير لا يبدو حتى الآن إلا في اللحظات التي تهتز فيها البلاد اهتزازًا أشد ما يكون عمقًا، ثم لا يلبث أن يعود إلى الأعماق. ولكن نهاية القصة تعد حتى ذلك الوقت نصرًا تامًا جدًا لصاحب الأملاك الخاصة البريطاني على أحلام الحكم المطلق الميكيافللي وخططه. وأصبحت إنجلترة وعلى رأسها الأسرة الهانوفرية "جمهورية متوجة"، على حد تسمية جريدة التايمز لها في الآونة الأخيرة. فإنها صاغت طريقة جديدة للحكم، هي الحكم البرلماني، الذي يذكرنا من نواحي كثيرة

[1] الأوليجركية: هي حكومة هيئة صغيرة من الرجال تمسك زمام السلطة العليا بإحدى الدول. (المترجم).

بمجلس السناتو والجمعية الشعبية لدى الرومان، ولكنه حكم أرسخ قدمًا وأشد كفاية لاستخدامه طريقة التمثيل ل النيابي مهما يكن ذلك الاستخدام محدودًا. وكان أن قُدر لجمعيتها في وستمنستر أن تصبح "أم البرلمانات" في كافة أقطار العالم.

وقد أمسك البرلمان الإنجليزي وما يزال ممسكًا حيال التاج بقسط وفير من العلاقة بين ذ اظر الق صر وبين الملوك الميروفنجيين. وهم يرون في الملك شخصًا للرسميات غير مسئول، ورمزًا حيًا للنظام الملك ي والإمبراطوري.

ولكن يظل الشيء الكثير من القوة كامنًا في تقاليد التاج وهيبته، وإن في اعتلاء الملـ وك الهـ انوفريين المسمين بجورج، ووليم الرابع (١٨٣٠)، وفيكتوريا (١٨٣٧)، وإدوارد السابع (١٩٠١) وجـ ورج الخـ امس (١٩١٠) وإدوارد الثامن (١٩٣٦)، لأسلوبا يخالف تمامًا ملوك الميروفنجيين الضعفاء. فقد مـ ارس هـ ؤلاء الملوك جميعًا على درجات متفاوتة في شئون الكنيسة، والهيئات العسكرية والبحرية، والـ سياسة الخارجيـ ة، نفوذًا لم يقلل من شأنه كونه غير ذي حدود تحدده.

٤- انقسام ألمانيا واضطرابها

لم يجلب انهيار الفكرة القائلة بمسيحية موحدة، في أي قطر من أقطار أوربا، عواقب أوخم مما جره على ألمانيا، وطبيعي أن يتبادر إلى ظن الإنسان أن الإمبراطور، وقد كان ألماني الأرومة، في كل حالة الأسرات الأولى وحالة آل هابسبرج، كان لا بد أن يتطور به الأمر حتى يصبح المليك القومي في دولة تتكلم الألمانية. على أنه كان مما جلبته المصادفة من نكد الطالع على ألمانيا، أن لم يظل أباطرتها قط ألمانيين. فإن فردريك الثاني آخر سلالة آل هوهنشتاوفن، كان كما رأينا، صقليًا نصف مستشرق. وأصبح آل هابسبرج بالمصاهرة والميل، ممثلين في شخص شارل الخامس، بورغنديي الروح بادئ ذي بدء، ثم إسبانيين. وبعد موت شارل الخامس أخذ أخوه فردريناند النمسا والإمبراطورية، وأخذ ابنه فيليب الثاني إسبانيا والأراضي المنخفضة وجنوبي إيطاليا. ولكن السلالة النمسوية، كانت كاثوليكية عنيدة في كثلكتها، ممسكة بزمام معظم ميراثها على الحدود الشرقية متورطة لذلك أعمق التورط في الشئون الهنوغارية ودافعةً الجزية للأتراك شأن فرديناند وخليفته، لذا لم تحتفظ لنفسها بأي سلطان على شئون الألمان الشماليين بما فيهم من نزعة إلى البروتستانتية، وأواصر بلطيقية واتجاه نحو الغرب، وجهلهم بالخطر التركي أو عدم اهتمامهم به.

وما كان أصحاب السلطان من الأمراء والدوقة والمنتخبين والأساقفة الأمراء وأشباههم، الذين كانت أملاكهم تقطّع أوصال ألمانيا في القرون الوسطى إلى مرقّعة تكد البصر بأجزائها الممزقة، - بمعادلين في الحقيقة لملوك إنجلترة وفرنسا بل كانوا على التقريب في مستوى كبار أصحاب الأراضي من الدوقات والنبلاء بفرنسا وإنجلترة. ولم يكن فيهم واحد حتى (١٧٠١) يحمل لقب "ملك"؛ وكان الكثير من ممتلكاتهم أضأل في الحجم والقيمة من الأملاك الكبيرة التي يملكها بعض النبلاء البريطانيين. وكان مجلس الدايت الألماني شبيهًا بمجلس الطبقات (States Genseral) أو مثيلاً لبرلمان ليس فيه نواب منتخبون. حتى إن الحرب الأهلية العظيمة التي شبت للفور في ألمانيا، وهي حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ٤٨)، كانت في جوهرها أوثق قربى وشبهًا بالحرب الأهلية في إنجلترة (١٦٤٣ - ٤٩)، وبحرب الفروند (١٦٤٨ - ٥٥)، (وهي عصبة النبلاء الإقطاعيين ضد الملوك في فرنسا)، - مما يبدو على ظاهرها لأول وهلة.

وفي كل هاته الحالات كان التاج إما كاثوليكيًا أو نزاعًا إلى الكثلكة، ووجد الأمراء المعاندون أن ميلهم الفردي، ينزع بهم نحو نزعة بروتستانتية. ولكن على حين حدث في إنجلترة وهولندة أن النبلاء البروتستانت والتجار الأغنياء فازوا في النهاية فوزًا مبينًا، وكان نجاح التاج في فرنسا أكمل وأوفى، فإن الإمبراطور في ألمانيا لم يبلغ من القوة والسيادة مبلغاً كافيًا، ولا كان لدى الأمراء البروتستانت من الوحدة والتنظيم فيما بينهم، ما يكفل لأحد الطرفين نصرًا نهائيًا. وانتهت الحال هناك بتمزق أوصال ألمانيا.

ومما زاد الكفاح الألماني تعقيدًا اشتباك شعوب غير ألمانية منوعة فيه، وهي: البوهيميون والسويديون (الذين كانت لهم ملكية بروتستانتية جديدة نشأت تحت جوستافوس فازا كنتيجة مباشرة للإصلاح الديني). وأخيرًا تدخلت الملكية الفرنسية، وقد انتصرت نهائيًا على نبلائها، فعضدت البروتستانت وإن كانت كاثوليكية، رامية بذلك إلى غاية واضحة هي الحلول محل آل هابسبرج في رياسة الإمبراطورية.

وقد ترتب على طول أمد الحرب، وعدم جريانها على امتداد جبهة محددة، لتناثرها في كل أرجاء إمبراطورية قوامها الرقاع: فمن بروتستانت هنا وكاثوليك هنالك – أن تحولت إلى حرب من أقسى الحروب وأشدها تدميرًا، حرب لم تشهد أوربا لها مثيلاً منذ أيام الغارات الهمجية. وليس يقوم شرها الخاص في القتال، بل فيما يلازم القتال من ويلات. فإنها حدثت في زمن تطور فيه التاكتيك العسكري إلى حد جعل المجندين العاديين غير ذوي غناء حيال المشاة المحترفين المدربين. فإن إطلاق الجماعات النار دفعة واحدة من القرابينات إلى مبعدة بضع عشرات من الياردات قضى على الفارس الفرد ذي الدروع السابغات، بيد أن هجمات جموع الفرسان المنظمة كانت لا تزال تستطيع أن تشتت شمل أي مشاة، لم تصل في تدريبها إلى درجة كافية من الصلابة الآلية. فإن المشاة بقرابيناتهم التي لا بد من حشو أنابيبها بين لحظة وأخرى لم تكن لتستطيع أن تقيم من النار سياجًا متواصلاً يفي بتشتيت فرسان ذوي عزم وصرامة قبل وصول هجمتهم إلى هدفها وإنزالهم ضربتهم. ومن ثم كان لزامًا عليهم أن يقابلوا الصدمة وقوفًا أو راكعين خلف جدار براق من الخوازيق أو السونكيات. وكان لا بد لهم في هذا من تنظيم عظيم وخبرة كبيرة؛ وكانت المدافع الحديدية لا تزال صغيرة الحجم كما لم تكن وفيرة العدد جدًا، ولم تكن تقوم حتى آنذاك بدور حاسم في الحرب. نعم إنها كانت تستطيع أن "تشق خطوطًا" في صفوف المشاة، ولكنها لم تكن لتستطيع في سهولة أن تحطمها وتبددها، إن هي كانت قوية العزم جيدة التدريب.

وكانت الحرب في مثل تلك الظروف موكولة تمامًا إلى جنود مدربين محترفين، وكانت مسألة أعطياتهم أمرًا يعادل في أهميته لدى قواد ذلك الزمان أهمية مسألة الميرة والذخيرة. وبينما الكفاح الطويل يجر قدميه جرًا من طور إلى طور، وتتفاقم معه محنة البلاد المالية؛ كان قواد كلّ من الجانبين مضطرين أن يرجعوا بالانتهاب على المدن والقرى، رغبة في أخذ المؤن والتعويض عن متأخرات أعطيات جنودهم. ومن ثم أخذ جندهم يتحولون رويدًا رويدًا إلى مجرد مناسر تعيش على حساب البلاد نهبًا واستلابًا، وأوجدت حرب الثلاثين سنة تقاليد من الانتهاب والسلب بوصفهما عملية قانونية في الحرب ومن انتهاك الحرمات بوصفه امتيازًا للجندي، وهي تقاليد لوثت سمعة ألمانيا الطيبة حتى الحرب العظمى (١٩١٤).

إن الفصول الأولى من كتاب "مذكرات فارس Memoirs of a Cavalier" تأليف "دانيال ديفو"، بما حوت من وصف رائع لمذبحة ماجدبورج وحريقها، لتعير القارئ فكرة عن طريقة الحروب في ذلك الزمان، أحسن جدًا من أي كتاب رسمي في علم التاريخ. إذ بلغت البلاد من الخراب حدًا حمل الفلاحين على الكف عن الزراعة، وكان ما يستطاع حصده من المحصولات السريعة غير المنتظمة يخفى فور جمعه، وأصبحت جماهير غفيرة من النساء الطاويات والأطفال الجائعين ممن يتتبعون معسكرات الجيوش، حاشية من اللصوص إلى جانب الناهبين الأشد خشونة وشراسة. فما إن انتهى الكفاح حتى كانت كل ألمانيا قد أمست خرابًا بيانًا. ولم تتخلص أوربا الوسطى تخلصًا تامًا من هذه السرقات والمفاسد المدمرة إلا بعد قرن من الزمان.

ولن يسعنا ها هنا إلا أن نذكر اسمى تللي (Tille) ووالنشتين (Wallenstein) قائدي النهب الكبيرين في جانب أسرة هابسبرج، وجوستاف أدولف ملك السويد أسد الشمال ونصير البروتستانت الذي كان يحلم بأن يجعل من بحر البلطيق "بحيرة سويدية". ولكن جوستاف أدولف قتل ساعة نصره الحاسم على والنشتين في لوتزن (١٦٣٢)؛ وقتل والنشتين في (١٦٣٤).

وفي (١٦٤٨) اجتمع الأمراء والسياسيون بين ظهراني ذلك الدمار الذي حاكته أيديهم، اجتمعوا لترقيع شئون أوربا الوسطى في صلح وستفاليا. وبهذا الصلح استحالت قوة الإمبراطور إلى شبح أو خيال، وترتب على استلحاق للألزاس أن وصلت إلى نهر الراين. وأصبح في حوزة أمير ألماني هو منتخب براندنبرج سليل آل هوهنزلرن قدر عظيم من الأراضي جعل بين يديه أعظم قوة ألمانية تلي قوة الإمبراطور، وهي قوة سرعان ما أصبحت (١٧٠١)، مملكة بروسيا.

واعترفت معاهدة وستفاليا أيضًا بحقيقتين مقررتين من زمان مديد، وهما الانفصال عن الإمبراطورية والاستقلال التام لكل من هولندة وسويسرة.

٥- أبهة الملكية العظمى في أوربا

افتتحنا هذا الفصل بقصتي قطرين، هما الأراضي المنخفضة وبريطانيا، اللتين نجحت فيهما مقاومة المواطن الخاص لهذا الطراز الجديد من الملكية، وهي الملكية الميكيافللية، التي أخذت تنشأ عن انهيار المسيحية الخلقي. ولكن الملكية الفردية في فرنسا والروسيا وفي كثير من أنحاء ألمانيا وإيطاليا- في سكسونيا وتوسكاني مثلاً لم تُصد وتقهر على مثل تلك الدرجة. بل الواقع أنها وطدت نفسها بوصفها النظام الأوربي السائد أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر. بل لقد كانت الملكية في هولندة وبريطانيا آخذة بأسباب استرجاع قوتها أثناء القرن الثامن عشر. (فأما بولندة فلها ظروف خاصة، وإنا لمعالجوها في فصل تال).

ولم يكن ثمة "عهد أعظم" (ماجناكارتا) في فرنسا، ولا كان للحكم البرلماني بها مثل تلك التقاليد المحددة الفعالة. أجل كان هناك نفس تعارض المصالح بين التاج من ناحية وبين أصحاب الأراضي والتجار من ناحية أخرى، ولكن هؤلاء لم يكن لهم متجمّع (أي مكان اجتماع) معترف به، ولا كان لهم أسلوب للوحدة كريم. لقد شكلوا المعارضة للتاج ألوانًا، وأنشئوا عُصبًا للمقاومة، - كذلك شأن "الفروند [1]"، الذين كانوا يكافحون الملك الشاب لويس الرابع عشر ووزيره العظيم مازارين، على حين كان شارل الأول يقاتل لاستنقاذ حياته في إنجلترة - ولكن الأمر انتهى في (١٦٥٢) بأنهم هزموا هزيمة نهائية بعد حرب أهلية. وعلى حين حدث في إنجلترة بعد تأسيس بيت هانوفر أن مجلس اللوردة وتابعه مجلس العموم صارا يحكمان البلاد، فإن البلاط في فرنسا على العكس من ذلك كان بعد (١٦٥٢) هو صاحب السيطرة التامة على الأرستقراطية. وكان الكردينال مازارين نفسه يبني على أسس مهدها له الكاردينال ريشيليو معاصر جيمس الأول ملك إنجلترة.

ولسنا نسمع بعد زمان مازارين بأي نبيل فرنسي عظيم إلا أن يكونوا في البلاط حشمًا للملك وموظفين. ذلك أنهم شروا وروِّضوا - ولكن بثمن، والثمن هو إلقاء عبء الضرائب على جماهير العامة التي لا صوت لها. فكان كل من رجال الدين والنبلاء، بل وفي الواقع كل إنسان يحمل لقبًا - معفين من كثير من الضرائب. وأصبح هذا الظلم في النهاية أمرًا لا يطاق، ولكن الملكية الفرنسية ازدهرت ردحًا من الزمان ازدهار شجرة الغار الخضراء في المزامير. وإنك لترى الكتاب الإنجليزي عند مفتتح القرن الثامن عشر، وقد أخذوا يستلفتون الأنظار إلى بؤس الطبقات الدنيا الفرنسية وإلى ما يستمتع به الفقراء الإنجليز، في نفس ذلك الزمان، من رخاء نسبي.

على مثل هذه الأوضاع الآثمة أقامت ما عسانا أن نسميها "الملكية العظمى" الفرنسية أسسها. فحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم زمانًا لا نظير له في الطول هو اثنتان وسبعون سنة (١٦٤٣ - ١٧١٥)، وأقام من نفسه نموذجًا يحتذيه كل ملوك أوربا. وكان يقوده بادئ الرأي وزيره الميكيافللي الكردينال مازارين. وبعد وفاة الكردينال أصبح هو نفسه بشخصه ونصه وفصه "الأمير" المثالي. وكان - داخل حدود

---

[1] وحروب الفروند: هي الحروب الأهلية الفرنسية (١٦٤٨ - ٥٣) وتقع في مرحلتين: محاولة برلمان باريس في (١٦٤٨ - ٤٩) تحديد سلطات الملكية وثورة كبار النبلاء برئاسة كونديه على حكم مازارين في (١٦٥٠ - ٥٣) (المترجم)

عطنه الضيق – ملكًا ذا كفاية استثنائية؛ وكان طموحه أقوى من شهواته الدنيا، فجر على بلاده الإفلاس بما انتهج من معقدات سياسية خارجية شديدة النشاط أظهر فيها وقارًا محكمًا ما يزال يستدعي إعجابنا. وكان أول ما يخالجه من رغبة أن يربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض وأن يمد حدودها إلى نهر الراين وجبال البرانس، وأن يتمثل الأراضي المنخفضة الإسبانية؛ وكانت أحلامه البعيدة ترى في ملوك فرنسا خلفاء محتملين لشرلمان في دولة رومانية مقدسة يعاد سكها.

واتخذ من الرشوة وسيلة للدولة تكاد تكون أعظم أهمية من الحرب. وكان شارل الثاني ملك إنجلترة يتناول منه الأعطيات المالية، وكذلك كان شأن معظم النبلاء البولنديين، الذين سنصفهم من فورنا. وكانت نقوده أو بالحري نقود الطبقات الدافعة للضرائب في فرنسا تذهب كل مذهب. ولكن البذخ كان شغله الشاغل. فكان قصره العظيم في فرساي بقاعاته (صالوناته) ودهاليزه ومراياه وشرفاته ونافوراته وجناته ومنظراته، موضع غبطة العالم أجمع وإعجابه.

لقد حفز الجميع إلى محاكاته. فإن كل ملك أو أمير صغير في أوربا كان يبني لنفسه قصر فرسايه الخاص متجاوزًا موارده المالية بالقدر الذي يسمح به رعاياه ودائنوه. وكان النبلاء في كل مكان يعيدون بناء قصورهم أو يوسعونها وفق النموذج الجديد. وتطورت صناعة الأقمشة والأثاثات الجميلة المحكمة الصنع وعظم شأنها وازدهرت فنون الترف في كل مكان، فثمة تماثيل من الرخام المجزع، والقاشاني[1] (Faience) وأشغال الخشب المذهب، وأشغال المعادن والجلد المضغوط بالنقوش البارزة، وموسيقى كثيرة وتصوير فاخر، وطباعة جميلة وتجليد مونق وطباخة ممتازة وخمور بديعة. وكان يسير بين المرايا والأثاث البديع جنس عجيب من السادة في شعور مستعارة ضخمة مذرورة بالمساحيق، وحرائر ومخرمات وهم يتمايلون على أعقاب عالية حمراء، ويتوكئون على عصي باهرة!! هذا إلى سيدات أكثر إدهاشًا وإعجابًا، تحت أبراج من الشعور المغطاة بالمساحيق وفي ثياب لها متسعات عظيمة من الحرير والفساتين تحملها الأسلاك. وكان يتجلى وسط ذلك كله لويس العظيم، شمس عالمه، غير شاعر بالوجوه الهزيلة المتجهمة المريرة التي كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التي لم تخترق حجبها شمس ضيائه.

وليس هذا مجال التفصيل في قصة حروب ذلك الملك وأعماله. وما يزال كتاب فولتير المسمى "عصر لويس الرابع عشر" أحسن ما كتب عنه وأصحه من وجوه كثيرة. أنشأ الملك بحرية فرنسية كفئًا لمقاتلة الإنجليز والهولنديين. وهو عمل يعد مأثرة عظيمة القدر. ولكن نظرًا لأن ذكاءه لم يسمُ قط عن سحر مغريات ذلك السراب الخادع، أو تلك اللوثة التي أصابت العقلية السياسية في أوربا، وأعني به الحلم بقيام "إمبراطورية رومانية مقدسة" تشمل العالم طرًا، فإنه تحول في سنواته الأخيرة إلى استرضاء البابوية، التي كانت حتى ذلك الحين معادية له. ونصب نفسه حربًا على روح الاستقلال والانفصال، الممثلة في الأمراء البروتستانت، وأشعل نار الحرب على البروتستانتية في فرنسا. فأبقت إلى خارج البلاد فرارًا من اضطهاداته الدينية جماعات وفيرة العدد من خيرة رعاياه اعتدالاً وأعظمهم قيمة، حاملين معهم فنونًا وصناعات. فإن صناعة

---

[1] القاشاني: هو ضرب من الخزف الممتاز مطلي بطبقة صقيلة من الطلاء الملون. (المترجم)

الحرير الإنجليزية مثلاً، قام بتأسيسها البروتستانت الفرنسيون. ونف ذت إب ان حكم ه عملي ة "ال دراجوناد Dragonnades" وهي طريقة للاضطهاد شريرة فعالة بوجه خاص. فكان بعض الجنود الأجلاف يُنزَلون في منازل البروتستانت، ويباح لهم أن يفسدوا نظام حياة مضيفيهم وأن يهينوا نساءهم على الشاكلة التي ترضيهم. وخضع لهذا النوع من الضغط، كثير من الرجال ممن لم يكونوا ليخضعوا للنار والعذراء، خالعة العظام.

وانقطع تعليم الجيل التالي من البروتستانت، وكان الآباء بين أن يعلموا أولادهم تعليمًا كاثوليكيً ا أو لا يعلمونهم البتة. ولا يداخلنك شك أنهم كانوا يعطونهم ذلك التعليم، ولكن في سخر ونغمة صوت تذهب بكل ثقة فيه. وبينما الأقطار الأكثر تسامحًا أصبحت في معظم أمرها مخلصة في عقيدتها الكاثوليكية أو البروتستانتية فإن الأقطار التي أنزلت الاضطهاد برعاياها أمثال فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، بلغ من قتلها للتعليم البروتستانتي الشريف، أن أصبح هؤلاء الناس في جل شأنهم مجرد كاثوليك معتنقين للكثلكة أو كاثوليك ملحدين، مستعدين للانتقال إلى الإلحاد الغفل المطلق ما سنحت لهم الفرصة لذلك. وكان العهد التالي أي عهد ل ويس الخ امس عشر هو عصر ذلك الساخر الرفيع فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨)، وهو عصر كان فيه كل إنسان في الجماع ة الفرنسية مطابقًا للكنيسة الكاثوليكية ومتمشيًا معها، على حين لا يكاد يكون فيهم واحد يؤمن بها.

وكان من مقومات الملكية العظمى – بل من مقوماتها الفائقة الممتازة – أن تنصر الآداب والعلوم. فأقام لويس الرابع عشر أكاديمية للعلوم منافسًا بها الجمعية الملكية الإنجليزية التي أنشأها شارل الث اني ومثيلته ا جمعية فلورنسا. وقد زين بلاطه بالشعراء وكتاب المسرحيات والفلاسفة ورجال العلم. ولئن خرجت الطريقة من هذه الرعاية بالشيء القليل من الإلهام، فإنها حصلت على كل حال على موارد مالية تعينها على التجريب والنشر مع قدر خاص من الهيبة في أعين السوقة.

وكانت الجهود الأدبية في كل من فرنسا وإنجلترة، منوالا تقيس على مثاله معظم الجهود الأدبية أثن اء تلك الفترة، فترة الملوك الأعظمين ما بين صغير وكبير، وفترة البيوتات الريفية الكبيرة والمنشئات التجاري ة النامية. وكانت ظروف الأحوال بفرنسا أكثر اعتمادًا على الملكية منها بإنجلترة، وأشد تمركزًا واتساقًا. وكان الكتاب الفرنسيون تعوزهم التقاليد العظيمة التي تهيأت لمثل تلك الروح الحرة غير المنظمة – روح شك سبير – إذ كانت الحياة الذهنية للفرنسية تتركز حول البلاط، وكانت أشد من الإنجليزية إح ساسًا بال ضبط وك بح الجماح. وهي لم تنتج أبدًا أدباء من "العامة" أبناء الشعب أمثال "بنيان Bunyan" الإنجليزي، ولم يك ن ف ي متناول أيديها في القرن السابع عشر مثل ذلك السراح المطلق لروح التمرد والانشقاق ال ذي قام ت علي ه الجمهورية والذي يطلق عقال رجل مثل ملتون. وكانت نزعتها أميل إلى مراعاة الصحة والقيود، وكانت أتم خضوعًا لنفوذ معلمي المدارس والنقاد المتمسكين بالقواعد. وكانت تخضع المادة للأس لوب. فك أن تنظ يم الأكاديمية لم يزد قيودها المفرطة إلا تشديدًا. وترتب على تلك الفروق، أن تشبع الأدب الفرنسي السابق على القرن التاسع عشر بالوعي الذاتي الأدبي، وكأني به قد كتب بروح طالب ماهر يخشى الدرجات الرديئة، أكثر منه بروح رجل ينشد التعبير الصريح. فإنه أدب قوامه الدرر اليتيم ة والمآس ي والمه ازل (التراجيديات

والكوميديات) وقصص الرومانس [1] والمباحث النقدية وكلها باردة صحيحة مطابقة للأصول، جوفاء خالية من الحيوية بشكل خارق للعادة. وممن برزوا بين ممارسي "الصحة" في الدراما، كورني (Cornelle) (١٦٠٦ – ١٦٨٤) وراسين (١٦٣٩ – ١٦٩٩). وانتصر موليير (١٦٢٢ – ٧٣) كذلك على عصره بكوميديات يراها بعض الثقات خير ما ظهر في العالم. ويكاد العرق الوحيد من القراءة السهلة الناصعة اللذيذة الذي يبدو وسط الرياش العقلي الدمث الفاخر للملكية الفرنسية العظمى، أن يوجد في مذكرات ذلك الزمان المليئة بالقيل والقال والفضائح. فهناك هذه، وهناك تدوين بعض المساجلات القوية الاجتماعية والسياسية.

ومن أروع وأحسن ما سطر بالفرنسية أثناء ذلك الزمان ما قام به في خارج فرنسا فرنسيون منفيون ومتمردون. فإن ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) أعظم الفلاسفة الفرنسيين عاش معظم حياته في ظلال أمن هولندة النسبي. وهو الشخصية المركزية المتسلطة بين مجموعة متألقة من العقول المتأملة وأهل النظر، نشطت في إعمال معول التقويض والتعديل والتحقير بمسيحية عصرهم المهذبة. وكان يعلو محلقًا فوق كل هؤلاء المبعدين، وفوق كل الكتاب المعاصرين الأوربيين شخص فولتير العظيم، الذي سنتكلم عن اتجاهاته الذهنية في فصل تال. وإن جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) – وهو روح أخرى منبوذة – بما قام به من هجوم عاطفي على الأخلاق الشكلية واتخاذه العاطفي للطبيعة والحرية مثلا أعلى، ليقف مبرزًا بوصفه الروائي الأعظم في عصره ووطنه. وسنزيد القراء عنه بيانًا.

وكان الأدب الإنجليزي في القرن السابع عشر مرآة تعكس سمة الشئون الإنجليزية الأقل قرارًا وتمركزًا، وكان به من العنفوان قدر أكبر ومن الصقل قدر أصغر مما للفرنسي. ولم يكن البلاط والعاصمة الإنجليزيان ابتلعا حياة البلاد القومية كما فعلت العاصمة والبلاط الفرنسيان. وربما أمكننا أن نضع مقابل ديكارت ومدرسته، باكون الذي سبق أن نبأناك عنه في بياننا عن النهضة العلمية، ثم هوبز ولوك. وكان ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤)، يرتدي ثوبًا مخلطًا من الدراسات الإغريقية واللاتينية، والثقافة الإيطالية واللاهوت البيوريتاني مع أبراد من المجد من نسج يديه. وكان هناك قدر جسيم من الأدب الحر خارج مجال النفوذ الكلاسيكي، ولعله وجد أشد خصائص تعبيره في كتاب بنيان "مسير الحاج Pilgrim's Progress " – (١٦٧٨). وواضح أيضًا أن تواليف ديفو Defoe المبتكرة (١٦٥٩ – ١٧٣١) الذي لم ينل بعد قدره الحق من التقدير، موجهة إلى جمهور بريء من تهذيبات العالم الأكاديمي وادعاءاته. وإنما جاء مؤلَّفه روبنسون كروزو واحدًا من أعظم مبتكرات الأدب. وكتابه "مول فلاندرز Moll Flanders" إنما هو دراسة للأخلاق تستدعي الإعجاب، وديفو هذا الكتاب وفيما كتبه في التطورات الخيالية للتاريخ، إنما يسبق كثيرًا من الناحية الفنية كل معاصرية. ويكاد يكون على نفس مستواه، فيلدنج الحاكم اللندني ومؤلف "توم جونز". وكان صمويل ريتشاردسون بائع الأقمشة الذي كتب "باميلا وكلاريسا"، شخصية عظيمة ثالثة بين حقائق الأدب الإنجليزي الحية في القرن الثامن عشر؛ وهو الأدب الذي لم يعن بأن يكون أدبيًا، وإلى هؤلاء الثلاثة جرت عادة النقاد أن يربطوا اسم "سموليت Smollett"، وهو أدنى كثرًا. وبهذه الأسماء وباسم جان جاك روسو معها، تعود

---

[1] الرومانس: قصص الغزل والفروسية. (المترجم)

إلى الأهمية" الرواية" وهي البيان شبه الحقيقي عن طرائق العيش، وعن الضرب في أرجاء العالم، وعن الالتقاء بالمسائل الخلقية، وذلك بعد أن اختفت بتدهور الإمبراطورية الرومانية. وتؤذن عودتها بانطلاق سراح أنواع جديدة غير محدودة من الناس ميالة إلى الاستطلاع في شئون الحياة والخُلق، وهم أناس أوتوا شيئاً من وقت الفراغ، وأناس تواقون إلى تكميل تجربتهم الخاصة بقصص مغامرات من هم على شاكلتهم. ذلك بأن الحياة أصبحت أقل وطأة وأكثر لذة.

وربما جاز لنا هنا قبل أن نختم هذه الحاشية الأدبية، أن نلحظ أيضًا ما عليه أديسون (١٦٧٢ – ١٧١٩)، من خواء رشيق بوصفه شخصية لها أثرها في الأدب الإنجليزي، وما للدكتور صمويل جونسون (١٧٠٩ – ١٧٨٤)، من رغبة في التعقيد يحبها الناس، وهو مصنف أول قاموس إنجليزي. ولا يكاد يصلح للقراءة الآن من كتاباته الفعلية شيء اللهم إلا تراجم قليلة قصيرة للشعراء، بيد أن أمثاله وغرابة أطواره قد بقيت لنا في الكتاب الذي ألفه بوزويل عن تاريخ حياته جونسون. فأما إسكندر بوب (١٦٨٨ – ١٧٤٤)، وكان كلاسيكي الاتجاه فرنسي الروح، فإنه ترجم هوميروس ثم تناول بعض المذاهب الدايستية [1] فحولها إلى شعر صقيل متقن. وصدرت أقوى كتابات هذا العصر، عصر الرجال المؤدبين غير الممتازين في إنجلترة شأنه في فرنسا، عن روح انغمست في نزاع عنيف مع النظام السائد، بل مع نظام العالم بأجمعه في الواقع، وهو سويفت (١٦٦٧ – ١٧٤٥)، مؤلف رحلات جليفر. وهناك "لورانس سترن L. Sterne"، (١٧١٣ – ١٧٦٨)، وهو رجل الدين الذي تكاد تتصل باسمه شهرة السوء والذي كتب "تريسترام شاندي"، وعلم من تلاه من كتاب القصص مائة حيلة مبتكرة في فن الرواية. وقد استقى حيويته من عظمة الفرنسي رابليه السابق على العهد الكلاسيكي. ولسوف نقتبس من جيبون المؤرخ في قسم تال، وعند ذاك نحدثك ثانية عن التحديدات العقلية العجيبة التي تغل ذلك العصر عصر الجنتلمانية.

ومات الملك الأعظم في ١٧١٥. وخلفه لويس الخامس عشر وهو ابن حفيده والمقلد غير الكفء لفخامة سلفه العظيم. اتخذ وضعة ملك وجلاله، ولكن الشهوة المتسلطة عليه كانت هي الشيء العادي الملازم لجنسنا البشري، وهي طراد النساء الذي يخفف منه خوف من جهنم يمتّ إلى الخرافات بسبب. فأما كيف أن نساء من أمثال الدوقة شاتوروه ومدام دي باري تسلطن على ملذات الملك، وكيف أن الحروب كانت تشب والمحالفات تعقد وأن المقاطعات كان يعاث فيها فسادًا، وآلافًا من الناس يقتلون بسبب غرور هاته المخلوقات وأحقادها، وكيف حدث أن كل الحياة العامة لفرنسا وأوربا تلوثت بالدسائس والبغاء والاحتيال بسببهن، فأمور ينبغي أن يعلمها القارئ من مذكرات ذلك الزمان. وصارت السياسة الخارجية الطموح في حكم لويس الخامس عشر بقدم ثابتة صوب تحطيمها النهائي.

[1] الفلسفة الدايستية أو الربوبية Deistic فلسفة مخالفة للمسيحية تؤمن بوجود الإله وتنكر الوحي. (المترجم)

وفي ١٧٧٤ مات هذا اللويس بمرض الجدري، لويس المحبوب جدًا كما كان مملِّقوه يسمونه، وخلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ – ١٧٩٣)، وهو رجل غبي حسن النية، وصاحب طلقة نارية بديعة التسديد، وصانع أقفال هاو على شيء من المهارة. فأما كيف أنه تبع شارل الأول إلى المقصلة فأمر سندلي به في قسم تال. إذ ينحصر كل اهتمامنا في الوقت الحاضر، في الملكية العظمى إبان مجدها.

وقد نستطيع أن نذكر من بين ممارسي الملكية العظمى خارج فرنسا الملوك البروسيين أولاً وهم فردريك وليم الأول (١٧١٣ – ١٧٤٠)، وابنه وخلفه فردريك الثاني وهو فردريك الأكبر (١٧٤٠ – ١٧٨٦). وقصة النهوض البطيء لأسرة هوهنزلرن، التي حكمت مملكة بروسيا، مبتدئة من بدايات مغمورة غير مُبرزة، قصة مملة ليس يهمنا أن نتتبعها هنا. وهي قصة تجمع بين الحظ والعنف، والدعاوى الجريئة والخيانات المباغتة. ويسردها مع التقدير العظيم كتاب كارليل المسمى "فردريك الأكبر". حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كانت المملكة البروسية قد بلغت من الأهمية حدًا هددت معه الإمبراطورية؛ وكان لها جيش قوي حسن التدريب، وكان ملكها ممن أعطوا ميكيافللي حظًا كبيرًا من التفاتهم وعنايتهم. وجعل فردريك من قصر بوتسدام فرسايًا آخر بلغ به حد الكمال. إذ هناك بلغت جنات سان سوسي، بنافوراتها وشوارعها المزدانة بالأشجار وتماثيلها حد التقليد "القردي" لنموذجها الفرنسي؛ وكان هناك كذلك القصر الجديد وهو بناء هائل من الطوب أنفقت في تشييده أموال طائلة، وكذلك صوبة البرتقال (الأورانجري[1]) ذات الطراز الإيطالي وفيها مجموعة من الصور، وقصر من الرخام إلى غير ذلك. وسما فردريك بالثقافة إلى حد التأليف، كما أنه أخذ يراسل فولتير ويستضيفه حتى انتهى بهما الأمر إلى السآمة المتبادلة.

وكانت الإمبراطورية النمساوية مشغولة على الدوام ما بين مطرقة الفرنسيين وسندان الأتراك حتى إنها لم تستطع أن تطور نموذج الملك الأعظم الحقيقي إلى عهد ماريا تريزا (١٧٤٠ – ١٧٨٠) (التي لم تحمل لقب الإمبراطورة لأنها امرأة). وخلفها على قصورها في ١٧٨٠ جوزيف الثاني الذي تولى الإمبراطورية منذ (١٧٦٥ – ١٧٩٠).

وبظهور بطرس الأكبر انفصلت الإمبراطورية المسكوفية عن تقاليدها التتارية ودخلت إلى حيز الجاذبية الفرنسية. وحلق بطرس لحى نبلائه الشرقية وأدخل الثياب الغربية. ولم تكن هذه إلا الرموز الخارجية المرئية لميوله الغربية. ولكي يحرر نفسه من الشعور الآسيوي وتقاليد موسكو، التي لها – شأن بكين – مدينة جوّانية مقدسة، هي "الكرمِلْين Kremlin" بنى لنفسه عاصمة جديدة هي بتروجراد على مستنقع النيفا. وطبيعي أنه شاد لنفسه فرسايًا أخرى هي قصر البيترهوف على قرابة ثمانية عشر ميلا من باريس الجديدة هذه، مستخدمًا في ذلك مهندسًا معماريًا فرنسيًا ومنشئًا شرفة (تراسًا) ونوافير ومساقط مائية وبهوًا للصور وجنات وكل المظاهر المعترف بها. وكان من أبرز خلفائه إليزابث (١٧٤١ – ١٧٦٢) وكاترين العظيمة، وهي أميرة ألمانية، عادت بعد الحصول على التاج بطريقة شرقية بحتة هي قتل زوجها، القيصر الشرعي، فانحرفت إلى مثل عليا غربية تقدمية وحكمت البلاد بقوة عظيمة من (١٧٦٢ إلى ١٧٩٦). فأقامت

---

[1] الأورانجري أو صوبة البرتقال (Orangery) مبنى من الزجاج يساعد بدفئه شجر البرتقال على النمو. (المترجم)

أكاديمية، وتراسلت مع فولتير. وعاشت حتى شهدت نهاية "الملكية العظمى" في أوربا وإعدام لويس السادس عشر.

ويضيق المقام عن مجرد تقديم قائمة بأسماء صغار "الملوك الأعظمين" في فلورنسا (توسكاني) وسافوي وساكسونيا والدانماركة والسويد. ولو راجعت كتاب دليل بيديكار [1] لشهدت في كل عاصمة فرسايًا جديدًا باسم جديد تقلد فرساي باريس، وإن السائح لتأخذه الدهشة أثناء مروره في تلك القصور لدقة التقليد. وكذلك يضيق المقام عن معالجة حرب الوراثة الإسبانية. فإن إسبانيا وقد أجهدتها فوق طاقتها مشروعات التوسع الإمبراطوري التي دبرها شارل الخامس وفيليب الثاني، وأضعفها ما أظهرته نحو البروتستانت والمسلمين واليهود من اضطهاد تعصبي، أخذت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر تهبط عما أوتيت من أهمية موقوتة في الشئون الأوربية وتعود ثانية إلى مستوى دول الدرجة الثانية.

كان هؤلاء الملوك الأوروبيون يحكمون ممالكهم كما يحكم نبلاؤهم مزارعهم، كانوا يتآمرون بعضهم ببعض، وكانوا "سياسيين" "وبعيدي النظر" بطريقة أبعد ما تكون عن الواقع، وكانوا يخوضون الحروب ويبددون العصارة الحيوية لأوروبا في سياسات سخيفة من العدوان والمقاومة. وانتهى الأمر بأن انفجرت عليهم من الأعماق عاصفة هوجاء. وكانت تلك العاصفة هي الثورة الفرنسية الأولى، فإنّ غضب الرجل العامي في أوربا أخذ نظامهم بغتة وعلى حين غرة. ولم يكن ذلك إلا الانفجار الافتتاحي لدورة عظيمة من العواصف السياسية والاجتماعية لا تزال مستمرة، ولعلها ستستمر حتى يزول آخر أثر للملكية القومية النزعة ثم ينقشع الغمام وتتجلي السماوات ثانية على السلام الأعظم الذي سيظل اتحاد البشرية جمعاء.

---

[1] دليل بيديكار (Baedeker): كتاب يصدر بلغات أجنبية متعددة عن أهم أقطار العالم مبينًا أهم ما بها من المدن والآثار والمعالم (المترجم)

٦- الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر

كان القرنان السابع عشر والثامن عشر فترة تقدم قوي في الموسيقى. إذ إن العوامل الفكرية الممه دة لذلك كانت أحكمت، وتأسس الديوانان (السلمان) الموسيقيان الكبير والصغير بما لهم ا م ن تعاق ب ثاب ت للنغمات، ومن قابلية للتكيف وفق التلحينات وبما يكمن فيهما من احتمالات اللون اله ارموني. ف صار ف ي الإمكان تحديد القصد الموسيقي (Musical intention) تحديدًا واضحًا، وأن ينظم التعاون بين آلات متنوعة في دقة عظيمة. وكانت الأحوال الاجتماعية ما بين مدن نامية وبلاطات وبيوتات ريفية تضيف ميادين جديدة من الاحتمالات الموسيقية إلى المجال القديم المنحصر في جوقة المرتلين الكنسيين. وكانت الحفلات التنكري ة والمهرجانات قد انتشرت وأصبحت محبوبة من الشعب في القرن السادس عشر، فأتاحت أمام محكم الموسيقى فرصًا جمة، وأصابت الأوبرات والأناشيد الدينية تقدمًا عظيمًا عند حلول القرن السابع عشر.

وظهرت في إيطاليا الموسيقى الجديدة (Nuove Musiche). يقول السير و. ه .. ه ادو "إن ل ولّي (١٦٣٥ – ١٦٣٥ – ١٦٨٧)، هو أعظم شخصية من الوجهة التاريخية، وما كان ذلك فقط من أجل ما حوته ألحانه من قوة درامية تمثيلية، بل لما تجلى في طريقة خطابه الدرامي من ضبط متسق". ويقف إلى ج واره الإيطالي مونتيفردي. ذلك أن الموسيقى شرعت تعمل على معيار كبير في تلك المدة.

"ودونت قدّاسات القرن السادس عشر لجوقات المرتلين بالكنيسة، وكتبت غزليات (مادريجالات) القرن السادس عشر ليستمتع بها جماعة من الخلان حول مائدة عشائهم، ولم يحدث إلا عند قريب م ن نهايت ه أن عازفي العود والفرجينال يشرعون في أن يتجهوا بأذهانهم إلى فك رة الأس تاذية [١] Virtuoso ف ي الف ن التنفيذي... واجتلب التحسين العظيم في بناء الأرغن عددًا متعاقبًا من العازفين العظماء: منهم بُ ل وفيل بس الإنجليزيان، وسويلنك الهولندي، وفرسكو بالدي في روما، وفروبرجر في فيينا، وبكستودي في لوبيك، وه و الذي سعى إليه باخ ماشيًا على قدميه لكي ينعم بسماعه... ويساير هذا كله التط ور ال ذي لح ق موس يقى الفرجينال [٢] ولا يقل عن ذلك في الأهمية وصول الكمان وعائلتها وتلكؤ الناس في قبولها. فإنها وإن رجعت إلى عهد تيفن بروخر وأسرة أماتي [٣] في النصف الأول من القرن السادس عشر، إلا أنها قضت زهاء مئ ة عام تشق طريقها نحو القبول والرضا العام. ناهيك بأن ماس عازف العود كان في عصر يصل ف ي ت أخره إلى ١٦٧٦ ما يزال مستطيعًا أن يطعن في "الكمان الصارخة" – على حد تعبيره، وأن يأسف على نغم جدتها القيول Viol الأكثر هدوءًا واستواءًا. بيد أن نطاقها الأرحب، وخفة حركتها العظمى وقوة تعبيره ا الأش د وخزًا وتأثيرًا فرضت نفسها وأصبحت شيئًا ملموسًا على طول المدى.. وبلغ من شأنها في إيطالي ا موطنه ا

(1) (Virtuoso): الأستاذ الماهر في الفنون الجميلة وخاصة الموسيقى. (المترجم)

(2) الفرجينال: آلة موسيقية صغيرة يلعب عليها بواسطة الدساتين (لوحة الأصابع). (المترجم)

(3) أسرة أماتي (Amatis): اسم عائلة من صناع إيطاليين للكمان وهم مؤسسو مدرسة الكمان الكريمونية. (المترجم)

الأصلي وإن حملوها في سماجة وعزفوا عليها في سماجة – أن اعترف لها الناس بأنها الآلة الوحيـدة التـي تستطيع أن تضارع الصوت الإنساني وتنافسه [1]".

ويقال إن التطور الموسيقي تأخر حيناً من الدهر بسبب التباهي بالصائت المغني والإعجاب بـه فـي الأوبرا الإيطالية، وكان لمغني القرن السابع عشر، وبخاصة أصحاب صوت السوبرانو من الذكران، صـيت يقارب في سوقيته وشناعته ما لنجوم السينما العصريين، ومع هذا فإن تلك الفترة أظهرت موسيقى الـسَّاندرو اسكرلاتي (١٦٥٩ – ١٧٢٥) الجميلة الوفيرة وهو البشير الممهد لموزار. وحدث في إنجلترة انفجار عظـيم من النشاط الموسيقي بلغ أوجه في شخص بورسل (١٦٥٨ – ١٦٩٥) بعـد فتـرة هـدوء أثنـاء عـصر الجمهورية. وفي ألمانيا أمدت البلاطات الصغيرة وجوقات المدن الشعب الألماني بقدر لا حـصر لـه مـن مراكز الاستثارة الموسيقية، وولد في ١٦٨٥ بسكسونيا يوهان سباستيان باخ وهاندل، لـذ يحملا الموسـيقى الألمانية إلى سمت التفوق والاستعلاء الذي قدر لها أن تحافظ عليه طيلة قرن ونصف مـن الزمـان، يقـول السير و. هـ.. هادو "إنهما بين جميع الملحنين قبل عصر فيينا أشداهم وأوثقاهم ارتباطاً بـا بزماننـا هـذا وإن صوتيهما ليرنان في آذاننا بآلف اللهجات وأدناها إلينا".

فأما بالسترينا الذي سجل لنفسه آنفاً ذروة في الموسيقى، فإنه بالمقايسة مخلوق يعيش في عالم آخر. إذ كان تاجًا على مفرق أساتذة موسيقى جوقة المرتلين الكنسية قبل عهد الآلات العظيم. وجاءت بعقـب أسـماء باخ وهاندل مجموعة من أسماء أخـرى. فـإن هايـدن (١٧٣٢ – ١٨٠٩)، ومـوزار (١٧٥٦ – ١٧٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠ – ١٨٢٧) يقفون مبرزين بين أشد الكواكب تألقًا. ذلـك أن الفـيض العظـيم للموسـيقى العصرية كان ينثال آنذاك عميقًا جياشاً واسع الجنبات. وما يزال يهمي ويفيض. ولا يتسع المقام هنا إلا لذكر المؤلفين الموسيقيين ثم ندلي إليك بعد ذلك في فقرة موجزة أو ما إليها بتعميمات قليلة مركزة حول موسـيقى القرن التاسع عشر وموسيقى أيامنا هذه. كانت هذه الموسيقى، موسيقى القرنين السابع والثامن عـشر إبـان صنعها امتيازًا خاصًا لعالم صغير مثقف – هو من في البلاطات من الناس، ومن في مدن المقاطعات والدور الريفية من أناس يستطيعون أن ينظموا حفلات عزف ومن من الناس في مدن تحوي لكبرهـا دور الأوبـرا وحجرات العزف. وكان نصيب الفلاح والعامل من الموسيقى في أوربا الغربية قدرًا مطرد التنـاقص إبـان القرنين السابع عشر والثامن عشر بينما كانت هذه الأشكال الجديدة آخذة في التطور. ذلك أن الغناء الـشعبي تدلى واضمحل وبدت عليه مظاهر التعرض للنسيان. وكان كل ما تبقى للكافة من الناس من حياة موسيقية هو بضع أغان شعبية وبضع ترانيم. والراجح أن النهضات الدينية في تلك الأيام، مدينة بشيء من قوتها الدافعـة إلى إطلاقها سراح الحافز الغنائي السجين. ولم يحدث إلا في أيامنا هذه مع ظهور تطور ضخم في الطرائـق الآلية للإنتاج والنشر الموسيقي، أن الموسيقى وقد صبغت بالصباغ العصري وخالطهـا النـشوء والارتقـاء وارتفعت في علياء التسامي – تعود إلى غمار الحياة العادية. فأصبح من ثم باخ وبيتهوفن جزءًا مـن ثقافـة الجنس البشري العامة.

---

[1] انظر كتاب "Music" من تأليف السير و.هـ. هادو.

٧- التصوير في القرن السابع عشر والثامن عشر

إن فني التصوير والعمارة في هذا الزمان شأن موسيقاه، مرآة تعكس الأحوال الاجتماعية فيه. وهو زمان تحطمت فيه الفكرات وتمزق السلطان، ولم تعد اعتبارات المظهر (Object) والروعة تسيطر على الفن التصويري. وقد نزلت الموضوعات الدينية إلى مرتبة ثانوية، فحيثما عالجها الناس عالجوها بوصفها أحداثًا صغيرة في قصة وليس بوصف كونها حقائق عظيمة هائلة. وتنحط أشكال الكنايات [1] والرمزيات. فإن المصور يصور من أجل الرؤية لا من أجل الفكرة ولا من أجل الحقيقة. وتحل صورة الحقيقة والواقع محل صورة الأبطال أو صور التبتل الديني على نفس الشاكلة التي تحل بها الرواية محل الملحمة والرومانس العجيبة الخيال. والأستاذان المتفوقان في تصوير القرن السابع عشر هما فيلاسكويز (١٥٩٩) – ١٦٦٠) ورامبرانت (١٦٠٦ – ١٦٦٩). إذ يخيل إلينا أن الحياة كانت في نظرهما متكافئة كلها لا تتفاوت إلا بمقدار ما تقدم إليهما من مجال ضاق أو رحب لتحقيق الجمال في الجو والنور والمادة. وكان فيلاسكويز يقوم في البلاط الإسباني المتدهور، برسم الباباوات والملوك دون تمليق، ورسم الأقزام والمقعدين دونما احتقار. ويخلي الرسم الدقيق التحليلي والتسجيلي (Documentary) مكانه في أشغال هذين الرجلين – وهما أول المصورين العصريين – لعملية إفراغ إجمالي للأثر، ولتركيز على وحدة الانطباعة وذلك على حساب كل الاعتبارات الثانوية. وكانت الصورة إلى ذلك العهد في حياة الماضي الشديدة لتمركز، إما شاهدًا يشهد بشيء أوحتثاثًا على شيء أو تمليقًا لشخص أو حلية لمكان؛ فأما الآن فإنها أصبحت في عدد عظيم من الحالات، شيئًا في حد ذاته، شيئًا يوجد من أجل نفسه. فالصور تعلق بوصفها صورًا وتجمع في معارض للصور. وتطورت المناظر الطبيعية (Landscape) تطورًا قويًا، كذلك تصوير مناظر الحياة العادية (Genre) [2]. وصارت الصور العارية (Nude) تنقش في شكل لطيف مثير؛ وفي فرنسا أبهج كل من واتوه وفراجونار وغيرهما طبقة الخاصة وتملقوهم بلمسة من التقديس الرقيق لحقائق الحياة الريفية. وإن الإنسان ليدرك في هذه الأشياء شواهد تنم عن مجتمع نامٍ مكون من أناس آمنين موفقين ذوي أرواح جدّ ممتازة، يقدرون الحياة وينفصلون شيئًا ما عن مباذخها وآلامها جميعًا.

ولم يبدُ عصر إليزابيث في إنجلترة أي تحمس في فنون التشكيل يطاول جهوده الأدبية والموسيقية. فهي إنما كانت تستورد مصوريها ومعمارييها. بيد أنه حدث في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أن خلقت الثروة المتجمعة والرخاء المتكاثف اللذان أصابتهما تلك الدولة التي كانت حتى حين قطرًا على هامش المدنية الغربية – أحوالاً توائم ازدهار المجهود الفني، حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كان أمثال رينولدز (١٧٢٣

---

[1] الكنايات :(Allegory): ضرب من التصوير المجازي أو الرمزي يرمي إلى موقف له ظل من الحقيقة ومع ذلك فهو موضوع في عالم الخيال. (المترجم)

[2] الجنر (Genre): هو لفظ يطلق في النقش والتصوير على الصور التي تصور الحياة العادية من أمثال المناظر المنزلية أو الريفية أو القروية. (المترجم)

– ١٧٩٢)، وجينزبورو (١٧٢٧ – ١٧٨٨) ورومي من المصورين الإنجليـز يـ ستطيعون أن يطـاولوا أي مجهود معاصر.

وكانت هذه الفترة، فترة الملكيات وطبقة الخاصة، موائمة أيضًا أعظم المواءمة لتطور طرز معينة من العمارة. ذلك أن عمليات ناشطة من قبل في القرن السادس عشر، كانت لا تزال تعمل عند ذاك بقوة متزايدة. وكان الملوك في كل مكان يبنون القصور ويعيدونها بناءً، وكان النبلاء والأعيان يهدمون قلاعهم ويـ شيدونها منازل أنيقة. فأما منازل المدن فقد شرع فن العمارة في التفكير فيها على معيار أكبر. فأمـا فـن العمـارة الكنسي فإنه ذوى. وأضحى مجهود البلديات أقل أهمية نسبيًا، والواقع أن المثرى الكبير الفـرد، إنمـا هـو القابض بيده على مفتاح الابتكار في ذلك العصر في هذا الشأن وفي غيره من الشئون. وأتاح احتـراق قـسم عظيم من لندن في الحريق الكبير (١٦٦٦)، لإنجلترة نهزة خاصة أتيحت للسير كرستوفررن، وإن كاتدرائية سانت بول وكنائس لندن، لتسجل دورًا بالغًا الأوج في العمارة الإنجليزية. وكان له الفضل علـى أمريكـا إذ أرسل إليها تصميمات لبيوت ريفية منوعة شيدت هناك، كما أن عبقريته الخاصة طبعـت أثرهـا فـي فـن التصميم الأمريكي الباكر. وكان إينيجو جونز شخصية عظيمة ثانية بين المعماريين الإنجليز في بواكير القرن السابع عشر، وهذه قاعة الولائم التي قصد بها أن تكون قسمًا من قصر في هوايت هول [1] لم يـتم بنـاؤه – تجعل عمله مألوفًا لدى كل زائر لمدينة لندن. وكان كل من هذين الرجلين بل في الواقـع كـل المعمـاريين الإنجليز والفرنسيين والألمان في تلك الفترة، يشتغلون على أساس النهضة الإيطالية التي كانت لا تزال حيـة متطورة، وذلك أن كثيرًا من أحسن المباني في ذلك الزمان كان من عمل إيطاليين. وحـدث بالتـدريج مـع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته، أن توقف التطور الحر الطبيعي لعمارة عصر النهضة، إذ اعترضـته موجة من التحذلق الكلاسيكي. وكان لما نال الدراسات الكلاسيكية بمدارس أوربا الغربية من تجمد تدريجي، نظير بدا في ظهور نزعة متزايدة إلى تقليد نماذج إغريقية ورومانية فما كان يومًا من المنبهات أضحى الآن مخدرًا ذهنيًا تقليديًا مخبلا للعقول. وأصبحت البيوت المالية والكنائس والمتاحف تبني على صـورة المعبـد الأثيني، وحتى شرفات (تراسات) المنازل نفسها أخضعت لنظام أبهاء الأعمدة (Colonnades). ولكن أسوأ غلوّ تهيأ لهذه النزعات القاتلة، جاء في القرن التاسع عشر خارج حدود عصرنا الراهن هذا.

---

[1] هوايت هول: قصر بناه ولم يتمه هنري الثامن ودمرته النيران في ١٦٩٨. (المترجم)

٨- نمو فكرة الدول العظمى

رأينا كيف ظهرت في الشئون الإنسانية فكرتا الحكم العالمي والمجتمع البشري، وقصدنا كيف أن إخفاق الكنيسة المسيحية على اختلاف مذاهبها في توطيد وصيانة تينكم الفكرتين، فكرتي مؤسسها يسوع، قد أفضى إلى انهيار خلقي في الشئون السياسية وانتقال إلى الأنانية ونقص في الإيمان. ورأينا كيف أن الملكية الميكيافللية نصبت نفسها لمناهضة روح الأخوة في المسيحية، وكيف أن الملكية الميكيافللية تطورت في قسم كبير من أوربا فأصبحت الملكيات العظمى والملكيات البرلمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. بيد أن عقل الإنسان وخياله لا ينفكان ناشطين، لذلك فقد كانت تنتسج انتساج الشبكة تحت سلطان الملوك الأعظمين مجموعة معقدة من الأفكار والتقاليد، تهدف إلى اصطياد عقول الناس والإمساك بها. تلك المجموعة المعقدة هي فكرة السياسة الدولية لا بوصفها موضوع معاملات بين الأمراء، بل بوصف كونها موضوع معاملات بين نوع من الكائنات الخالدة، هي الدول. ذلك أن الأمراء يجيئون ويذهبون. فإن لويس الرابع عشر قد يخلفه لويس خامس عشر متصيد لربات الدل والجمال، وقد يخلفه بدوره ذلك صانع الأقفال الهاوي الغبي لويس السادس عشر. وجاء بعد بطرس الأكبر خلف متعاقب من القيصرات. وكان أهم مظهر مستمر لآل هابسبرج بعد شارل الخامس، في كل من النمسا أو إسبانيا، تواصلاً للشفاه الغليظة والذقون القبيحة والاعتقاد في الخرافات. وإن النذالة المحببة التي يبديها ملك مثل شارل الثاني، لتتخذ من مدعياته هزوًا وسخريًا. فأما الشيء الأرسخ قدمًا فهو أعباء وظيفة وزير الخارجية، وفكرات الناس الذين كتبوا عن اختصاصات الدولة. وقد كان الوزراء يحافظون على استمرار السياسة أيام اعتكاف ملوكهم، وفي الفترات التي يخلو فيها العرش بين ملك وخلفه.

ولذا فإنا نجد أن الأمير أصبح بالتدريج أقل أهمية في أذهان الناس من "الدولة" التي كان الأمير رأسًا لها؛ ومن ثم يحين الزمان الذي نقرأ فيه القليل فالأقل عن خطط وأطماع هذا الملك أو ذاك، ونقرأ أكثر من "خطط فرنسا" أو "أطماع بروسيا". فإنا نجد في عصر كانت فيه العقيدة الدينية في انحدار، رجالاً يظهرون إيمانًا جديدًا جازمًا بحقيقة هذه الشخصيات المعنوية. وذلك أن تلك الأطياف الضخمة المبهمة وأعني بها "الدول" تسللت خفية إلى الفكر السياسي الأوربي، حتى تسلطت عليه تسلطًا كاملاً عند ختام القرن الثامن عشر وإبان التاسع عشر. وهي لا تبرح متسلطة عليه إلى يومنا هذا. وظلت القارة الأوربية مسيحية اسمًا، ولكن عبادة رب واحد روحًا وحقيقة معناها الانتماء إلى مجتمع واحد يضم كل زملاء الإنسان في تلك العبادة. ولكن الواقع العملي أن أوربا لا تفعل ذلك، بل إنها قد سلمت نفسها تسليمًا تامًا لعبادة تلك الرطانة (Mythology) العجيبة المسماة بالدولة. ومن أجل هذه الآلهة "الدول ذات السيادة"، ومن أجل وحدة "إيطاليا"، وزعامة "بروسيا"، ومن أجل مجد "فرنسا"، ومقدرات "الروسيا"، ضحت بأجيال عديدة من الوحدة الممكنة والسلام والرخاء وأودت بحياة ملايين من الرجال.

والنظرة إلى القبيلة أو الدولة كنوع من الشخصية إنما هي نزعة قديمة جدًا في العقل الإنساني. والكتاب المقدس حافل بمثل هذه التجسمات أو الشخصيات المعنوية. فإن مملكة يهوذا وآدوم وموآب ومملكة آشور (آشوريا) لتبدو في الكتب المقدسة العبرانية كأنما هي أفراد. بل قد يكون من المستحيل في بعض الأحايين أن يقول المرء هل الكاتب العبري يعالج شخصًا أو أمة؟ ولا خفاء في أنها نزعة بدائية وطبيعية. ولكنها في حالة أوربا العصرية، ضرب من النكوص. فإن أوربا في كنف فكرة "عالم Christendom" المسيحية تقدمت مراحل كثيرة في سبيل الوحدة. وبينما كانت شخوص قبلية أمثال "إسرائيل" أو "صور" تمثل بالفعل مجتمعًا بعينه من القرابة الدموية، واتساقًا بعينه في الطراز وتآلفًا في المصلحة، فإن الدول الأوربية التي نشأت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كانت وحدات افتعالية تمامًا. فالروسيا مثلاً كانت في الحقيقة مجموعة من أشد العناصر تباينًا وعدم تجانس، ما بين قوزاق وتتار وأوكرانيين ومسكوفيين ثم انضم إليهم – بعد زمان بطرس – الأستونيون واللتوانيون. وكانت فرنسا في حكم لويس الخامس عشر تضم الألزاس الألمانية ومناطق بورغنديا المتمثلة حديثًا، وكانت سجنًا للهوجنوت المهيضي الجناح ومستنزفًا لحياة الفلاحين. فأما في "بريطانيا" فإن إنجلترة كانت تحمل على كاهلها الممتلكات الهانوفرية في ألمانيا كما تحمل اسكتلندة، وأهل ويلز الأجانب تمامًا، والإرلنديين الكاثوليك المعادين. وإن هناك دولا كالسويد وبروسيا، وأكثر منها في هذا بولندة والنمسا، وكلها تروح إذا نحن تتبعناها في سلسلة من الخرائط التاريخية، تتقلص وتتمدد، وتقذف بزوائدها وذوائبها خارجًا وتتجول فوق خريطة أوربا كما تفعل الأميبا تحت الميكرسكوب.

ولو أنّا تأملنا سيكولوجية العلاقات الدولية كما نراها متجلية في العالم المحيط بنا، وكما يظهرها تطور فكرة "الدولة" في أوربا العصرية، لأدركنا حقائق بعينها على غاية الأهمية من الوجهة التاريخية عن طبيعة الإنسان. لقد قال أرسطو إن الإنسان إنما هو حيوان سياسي، ولكنه في المعنى العصري الذي لدينا عن كلمة "السياسة" وهي التي تشمل الآن سياسة العالم بأجمعها، ليس بأي حال شيئًا من هذا القبيل. ولا تزال غرائز قبيلة العائلة باقية فيه إلى يومنا هذا، ولديه بعد هذا نزعة تدفعه إلى ربط نفسه وعائلته إلى شيء أكبر منهما، أي إلى قبيلة أو مدينة أو أمة أو دولة. ولكن هذه النزعة لو تركت ونفسها لكانت نزعة مبهمة جد غير نقادة. ومهما يكن من شيء، فإنه ميال إلى خشية وكراهية كل نقد يوجه لذلك الشيء الأكبر الذي يحيط بحياته والذي سلم نفسه إليه، كما أنه ميال إلى تجنب مثل هذا النقد. ولعل في نفسه خوفًا شبه شعوري من العزلة التي قد تترتب على تحطيم النظام أو هدم ثقة الناس به ذلك أنه الوسط الذي يجد فيه نفسه أمرًا مسلمًا به. وإنه ليتقبل مدينته أو حكومته مثلما يتقبل الأنف أو الهضم الذي حباه الحظ به. بيد أن ولاءات الرجال، أعني الجوانب التي ينحازون إليها في الأمور السياسية ليست فطرية، وإنما هي نتائج تربية وتعليم. ولكن التعليم الذي يتلقاه أغلب الناس في تلك الأمور إنما هو التعليم الصامت المستمر الصادر عن الأشياء المحيطة بهم. فإن الناس يجدون أنفسهم جزءًا من إنجلترة المرحة أو الروسيا المقدسة. وهم إنما يشبون على هذه العقائد ويتقبلونها كجزء من طبيعتهم.

الواقع أن العالم شرع يدرك ولكن بغاية البطء، إلى أي حد من العمق يمكن التعليم الضمني المفهوم بالاستنتاج والذي تجيء به الظروف العابرة، أن يُستكمل أو أن تُعدل أو يصحح بالتعليم الإيجابي والأدب

والجدال، والخبرة المنقودة نقدًا صحيحًا. فحياة الفرد العادي الحقيقية هي حياته اليومية وأعني بها الدائرة الصغيرة لعواطفه ومخاوفه وجوعاته وشهواته واندفاعاته الخائلة. وهو لا يلزم عقله المتكره أن يؤثر في الشئون السياسية إلا عندما يُوجَّه نظرُه إليها بوصفها شيئًا له أثره الحيوي في تلك الدائرة الشخصية. ولا تكاد تكون هناك مبالغة في القول بأن الرجل العادي يفكر في الأمور السياسية بأقل قدر مستطاع، وأنه يكف عن التفكير فيها بأسرع ما يستطيع. فالعقول الشديدة التطلع والقدرة الاستثنائية، أو العقول التي استطاعت بفضل المثل المحتذى أو التربية الممتازة بلوغ تلك العادة العلمية ألا وهي الرغبة في معرفة أسباب الأشياء، أو العقول التي حزت فيها أو صدمتها كارثة قومية عامة حتى استثارتها إلى التخوف من الأخطار المقبلة، هي وحدها التي تأبى قبول حكومات ونظم سخيفة غير معقولة واعتبارها مقبولة لا بأس بها لمجرد أنها لم تؤذ تلك العقول ولم تسبب لها ما يكدرها شخصيًا. وإن الكائن الإنساني العادي لينضوي – حتى يأتي الوقت الذي يستثار فيه على تلك الشاكلة – تحت ظلال أية مناشط جماعية تجري في هذا العالم الذي يجد فيه نفسه؛ كما أنه يتقبل أي تعبير أو رمز يواجه حاجته المبهمة إلى شيء أعظم وأكبر يمكن أن ترسو لديه وتطمئن إليه شئونه الشخصية ودائرته الفردية.

فإذا نحن وعينا جيدًا هذه التحديدات الواضحة التي تغل طبيعتنا، لم يصبح بعدُ سرًا خافيًا كيف أنه كما حدث أن فكرة اتخاذ المسيحية أخوّة عالمية بين الناس قد هوت في دركات المهانة وضياع الثقة بسبب اشتباكها القاتل بدسائس القساوسة ومطامع البابوية من ناحية، وبسلطان الأمراء من ناحية أخرى، ومن ثم انتقل عصر الإيمان إلى عصرنا الراهن عصر الشك وعدم الإيمان، – فقد حول الناس مدار حياتهم عن ملكوت الرب وأخوّة الجنس البشري إلى هذه الحقائق الماثلة بين أيديهم والأكثر في ظاهرها دوامًا وحياة، وهي فرنسا وإنجلترة والروسيا المقدسة وإسبانيا وبروسيا، التي كانت على الأقل تتجسم في شخص بلاطات ناشطة، والتي كانت تحافظ على القوانين وتظهر القوة بواسطة الجيوش والأساطيل، والتي كانت تلوح براياتها في هيئة جد ووقار تعنو لعزتها الجباه كما كانت رافعة رءوسها اعتزازًا بالنفس بهمة نهم من لا يشبع بصورة متسقة تمام الاتساق مع الطبيعة الإنسانية.

ولا مراء أن رجالاً من أمثال الكردينال ريشليو والكردينال مازارين كانوا يرون أنفسهم خدامًا لغايات أعظم من غاياتهم هم، ومن غايات ملوكهم، إذ يخدمون فرنسا شبه المقدسة التي تصورها لهم أخيلتهم. كما لا مراء أيضًا أن هذه العادات العقلية انسابت منهم إلى مرؤوسيهم وإلى هيئة الشعب العامة. وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت عامة السكان في أوربا تستمسك بالدين ولم تكن وطنيتهم إلا شيئًا مبهمًا؛ فما إن حل القرن التاسع عشر حتى أصبحوا وطنيين بكليتهم. فلو حدث في عربة مزدحمة من عربات السكك الحديدية الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية في أخريات القرن التاسع عشر، أن شخصًا سخر من الله لاستثار من العداوة قدرًا أقل كثيرًا مما تستثيره السخرية بأحد من هاته المخلوقات العجيبة: إنجلترة أو فرنسا أو ألمانيا. فإلى هذه الأشياء تعلقت أذهان الناس، تعلقت بها لأنه لم يبد في كل أنحاء العالم أي شيء آخر تقتنع النفوس بأن تتعلق به. ولذا كانت هي آلهة أوربا الحقة الحية.

لقد رفعوا الحكومات ووزارات الخارجية إلى مصاف المثل العليا، وحلفوا منها رطازة، هي رطازة [١] "الدول" ومحباتها وكراهياتها ونضالاتها. واشتد تشبع خيال أوربا وآسيا الغربية بها إلى حد أن كانت مصدرًا تستقي منه "أشكال تفكيرها". ويكاد كل ما دوِّن من التواريخ، وكل الأدب السياسي في القرنين الأخيرين في أوربا، أن تكون مكتوبة بنفس تلك اللغة والروح. على أنه لا بد أن يأتي ذلك الزمان الذي سوف يقرأ فيه جيل أوضح نظرة وأصفى بصيرة ويرى في شيء من الارتباك والحيرة، كيف حدث في المجتمع الأوربي الغربي، المكون في كل مكان (مع تنوعات طفيفة جدًا) من خليط عنصري مشترك من الشعوب النوردية والأيبيرية وعناصر نازحة ساميّة ومغولية وهي تتكلم في كل مكان تقريبًا لهجات محورة عن نفس اللسان الآري، ولها ماضٍ مشترك متمثل في الإمبراطورية الرومانية، وأشكال دينية مشتركة، وعادات اجتماعية مشتركة وفن وعلم مشتركان، وهي تتزاوج فيما بينها بحرية لا يستطيع إنسان معها أن يتكلم في أي تحقق عن جنسية (أي قومية) أيٍّ من أولاد أحفاده، كيف حدث أن كان في الإمكان أن تهيج في الرجل أقصى أنواع الانفعال حول مسألة عظمة فرنسا، ونهضة وتوحيد ألمانيا، ومدعيات الروسيا واليونان المتنافستين على امتلاك القسطنطينية. ولسوف تبدو هذه المنازعات عند ذلك غريبة لا سبب لها، جنونية لا عقل فيها، شأن ما اندثر قبلها من منازعات لا يفهمها الناس الآن أمثال التي اشتجرت بين "الخضر والزرق [٢]" الذين كانوا يملئون شوارع بيزنطة بالضجيج وسفك الدماء.

وهذه الأطياف أعني الدول عظيمًا ما عظم تسلطها اليوم على عقولنا وحيواتنا إنما هي – كما يبين لك هذا الكتاب أوضح بيان – أمور لا ترجع إلى أقدم من القرون الأخيرة القليلة بل هي مجرد ساعة واحدة أو دور عرضي في التاريخ المقصود المتعمد لنوعنا البشري. وهي تسجل دورًا من أدوار الانتكاس أو ضربًا من الانسلاخ من ركب التقدم، مثلما يسجل نهوض الملكية الميكيافللية حالة تخلُّف وقتي عن مسايرة الركب. هي جزء من نفس دوامة العقيدة المضطربة المترددة تعترض سبيل اتجاهها العام وهو اتجاه أشد منها قوة وأبعد ما يكون عنها جملة وتفصيلاً: ألا وهو الاتجاه نحو الاتحاد الخلقي والذهني للبشرية. لقد ارتد الناس حينًا من الدهر إلى أربابهم هؤلاء من قومية وإمبراطورية ولكن هذا لن يدوم إلا إلى حين. فإن فكرة "الدولة العالمية" ومملكة الصلاح العامة التي يصبح فيها كل كائن حي مواطنًا، كانت موجودة في العالم قبل ذلك بألفين من السنين، ولن تغادر العالم بعد ذلك قط. وإن الناس ليعلمون أنها بين أيديهم وإن أبوا أن يعترفوا بها. وإنك لتحس في كتابات وأحاديث الناس عن الشئون الدولية اليوم وفي المناقشات الجارية الدائرة الآن بين ظهراني المؤرخين والصحفيين السياسيين، كأنما بين يديك رجال ثملون قد شرعوا يستفيقون، ويداخلهم ذعر شديد من استفاقتهم هذه. فهم لا يفتئون يتكلمون بصوت مرتفع عن "حبهم" لفرنسا و "كراهيتهم" ألمانيا وعن

---

[1] الرطازة (Mythology): هي أسطورة أو حكاية تقليدية كثيرًا ما تعبر عن معتقدات وأحلام بدائية لشعب بعينه وعن طريقة تفسيره للظواهر الطبيعية والتاريخية. (المترجم).

[2] الخضر والزرق: فرقتان رياضيتان قديمتان بالقسطنطينية كانتا تعدان حرسًا للمدينة. وكان النزاع بينهما دائمًا لا ينقطع (انظر للمترجم كتاب الحضارة البيزنطية في مجموعة الألف كتاب). (المترجم)

"سيادة بريطانيا التقليدية في البحار"، وهكذا وهكذا... شأن أولئك الذين يغنون مترنمين بكئوسهم بالرغم من تواصل دبيب الاستفاقة إليهم وخوفهم من زوال الخمار [1] عنهم. وما تلك التي يخدمون إلا أرباب ميتة. فإن الناس لا يريدون في البحر أو البر دولا تتسم بالرفعة، وإنما يبتغون القانون والخدمة. وإن ذلك التحدي الصامت الذي لا مندوحة منه ولا مفر، لموجود في أذهاننا وجود الفجر وهو يبزغ في تمهل وأناة، وينفذ ضياؤه خلال مصاريع حجرة مشوشّة النظام.

---

[1] الخمار: كما ورد في المعجم الوسيط: ما خالط الإنسان من سكر الخمر. (المترجم)

٩- جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها

كان القرن السابع عشر في أوربا قرن لويس الرابع عشر الذي كان هو وعظمة فرنسا وفرساي قطب الرحى في القصة. وكان القرن الثامن عشر بالمثل "قرن نهضة بروسيا كدولة عظمى"، والشخصية الرئيسية في قصته هي فردريك الثاني، أي فردريك الأكبر. وتجيء قصة بولندة مشتبكة وتاريخه.

كانت الشئون في بولندة ذات سمة خاصة. وبولندة بخلاف جيرانها الثلاثة الروسيا وبروسيا وملكية آل هابسبرج في النمسا والمجر، لم تطور لنفسها ملكية عظمى. وخير وصف يوصف به نظام حكومتها أن يقال إنه كان نظامًا جمهوريًا له ملك، أي رئيس ينتخب مدى الحياة. وكان كل ملك ينتخب على حدة. فكأنها كانت في واقع الأمر أبلغ في روحها الجمهورية من بريطانيا، ولكن روحها الجمهورية كانت أكثر أرستقراطية في شكلها. وكان لبولندة تجارة طفيفة ومصنوعات قليلة العدد، وكانت قطرًا زراعيًا ما يزال به مساحات عظيمة للرعي والغابات والأرض البراح؛ فكانت لذلك قطرًا فقيرًا، وكان أصحاب الأراضي فيها أرستقراطيين فقراء. وكانت جمهرة سكانها فلاحين أذلاء جهلة جهلاً وحشيًا، وكانت تئوي كذلك جماهير غفيرة من اليهود الشديدي الإدقاع. وقد حافظت على عقيدتها الكاثوليكية. فكأنها كانت – إن صح هذا التشبيه – بريطانيا أخرى أرضية كاثوليكية فقيرة، يكتنفها الأعداء من كل جانب مثل ما يكتنف البحر بريطانيا. ولم تكن لها على وجه الإطلاق أية تخوم محدودة، فلا بحر ولا جبل. ومما زاد في مصائبها أن بعض ملوكها المنتخبين كانوا حكامًا أذكياء عدواني النزعة. فكان سلطانها يمتد شرقًا امتدادًا ضعيفًا إلى مناطق يسكنها كلها تقريبًا الروسيون؛ كما يشمل من ناحية الغرب بعض الرعايا الألمان.

ونظرًا لأنها لم يكن لها تجارة عظيمة، لم تنشأ لديها مدن عظيمة تقاس إلى مدن أوربا الغربية، ولا تكونت بها جامعات قوية تضم شتات ذهنها بعضه إلى بعض. وكانت طبقتها النبيلة تعيش على ما تغله لها مزارعها، دون الشيء الكثير من الاختلاط الذهني. كانوا وطنيي النزعة، ولديهم إحساس أرستقراطي بالحرية يتسق تمامًا مع الإفقار المنظم الذي يعيش فيه موالي أراضيهم – ولكن وطنيتهم وحريتهم كانتا غير قادرتين على إنتاج التعاون الفعال. كانت بولندة يوم كانت الحروب أمر جمع للرجال والخيل، دولة قوية نسبيًا؛ ولكنها لم تستطع بأي حال أن تماشي تطورات الفن العسكري الذي كان يتخذ من قوات دائمة من جنود محترفين، العدة الضرورية في الحروب. ولكنها على ما كانت عليه من الانقسام وقلة الاقتدار، تستطيع أن تكتب في كتاب حسابها بعض انتصارات جديرة بالذكر. فإن الهجوم التركي الأخير على فيينا (١٦٨٣) قد قضى عليه الفرسان البولنديون بقيادة الملك حنا سوبيسكي (الملك دون الثالث). (وكان هذا السوبيسكي نفسه قبل أن ينتخب ملكًا، أجيرًا يتقاضى المال من لويس الرابع عشر، وكان قد حارب في صفوف السويديين ضد وطنه). ولا حاجة بنا إلى القول إن هذه الجمهورية الأرستقراطية الضعيفة، بانتخاباتها المتداركة الحدوث كانت تستدعي العدوان من كل من جيرانها الثلاثة. وكانت "الأموال الأجنبية" وكل نوع من أنواع التدخل تنساب إلى البلاد عند كل انتخاب. وكان كل مواطن بولندي ساخط منهم يفر – شأن الإغريق قديمًا – إلى أحد الأعداء الأجانب ويصب جام غضبه على وطنه الناكر للجميل.

ولم تكن للملك البولندي إلا سلطة ضعيفة جدًا حتى بعد أن يتم انتخابه، وذلك بسبب غيرة النبلاء البولنديين بعضهم من بعض. إذ هم شأن النبلاء الإنجليز كانوا يفضلون الأجنبي؛ ولأنه – لنفس السبب – لم يكن له عماد من قوة أو عزوة يرتكز عليها في البلاد. ولكنهم بخلاف البريطانيين لم تكن لحكومتهم نفس قوة التماسك التي كانت تعيرها للنبلاء البريطانيين الاجتماعات الدورية للبرلمان في لندن، التي كانوا يسمونها: "الحضور إلى العاصمة". وكانت لندن ملتقى المجتمعات وما يتلوها من تمازج متواصل بين الفكرات وبين أصحاب النفوذ من الأشخاص. ولم تكن لبولندة مدينة كلندن ولا كان فيها "هيئة اجتماعية". ولذا فالواقع أنه لم تكن لبولندة حكومة مركزية على الإطلاق. وما كان ملك بولندة بمستطيع أن يعلن حربًا أو يعقد صلحًا، ولا أن يجبي ضريبة أو يغير قانونًا دون موافقة مجلس الدايت، (وكان لكل عضو بمفرده في مجلس الدايت الحق في الاعتراض (Veto) على أي مقترح مطروح للبحث). وما كان عليه إلا أن ينهض ويقول "إني غير موافق" فيسقط الموضوع. بل إنه كان يستطيع أن يحمل حقه في الاعتراض المطلق (Liberum Veto) إلى مدى أبعد من هذا. إذ يستطيع أن يعترض على اجتماع المجلس، وعند ذلك ينحل الدايت. فكأن بولندة لم تكن إذن مجرد جمهورية أرستقراطية متوّجة مثل تلك البريطانية، بل كانت جمهورية أرستقراطية متوجة مشلولة.

وكان وجود بولندة في نظر فردريك الأعظم أمرًا مثيرًا بوجه خاص بسبب الطريقة التي كانت بها ذراع لبولندة تمتد إلى بحر البلطيق في دانزج، وتفصل ممتلكاته الموروثة عن أجداده في بروسيا الشرقية عن أراضيه داخل الإمبراطورية. فكان هو من حرض كاترين الثانية قيصرة الروسيا وماريا تريزا النمسوية – التي فاز باحترامها بحرمانه إياها من سيليزيا – على القيام بهجوم مشترك على بولندة.

واسمحوا الآن لخرائط أربع لبولندة أن تروي لكم القصة.

وبعد هذا الانتهاك الذي أصاب بولندة في (١٧٧٢)، ألم بفؤادها تغير كبير. إذ الواقع أن بولندة ولدت شعبًا متماسكًا في ليلة انحلالها. إذ حدث فيها تطور إن يكن سريعًا فقد كان إلى ذلك جسيمًا ضخمًا في التعليم والأدب والفن. ونشأ المؤرخون والشعراء بغتة، وقذف جانبًا بالدستور العقيم الذي جعل من بولندة دولة كليلة واهنة. وألغي حق الاعتراض المطلق، وجعل التاج وراثيًا من أجل إنقاذ بولندة من المؤامرات الأجنبية التي كانت تصحب كل انتخاب، وأقيم برلمان يحاكي البرلمان البريطاني. على أنه كان هناك مع ذلك محبون للنظام القديم في بولندة، كرهوا تلك التغييرات الضرورية، وطبيعي أن تعين الروسيا وبروسيا هؤلاء المعترضين، إذ كانتا لا ترغبان في نهضة بولندية. وجاء التقسيم الثاني، وبعد كفاح وطني عنيف ابتدأ بالمنطقة التي سلختها بروسيا، ووجد في كوزكيوسكو (Kosciusko)، زعيمًا له وبطلاً وطنيًا، حدثت إزالة بولندة نهائيًا من الخريطة. وبذا انتهى إلى حين من الزمان ذلك التهديد البرلماني للملكية العظمى في أوربا الشرقية. ولكن وطنية البولنديين اشتد تضرمها وتلألأ صفاؤهم لهذا الضغط. فإن بولندة ظلت مائة وعشرين سنة تكافح كفاح مخلوق مغمور بالماء، تحت تلك الشبكة السياسية والعسكرية التي كانت تمسك بها وتغل حركتها. ثم نهضت ثانية في (١٩١٨) عند نهاية الحرب العظمى.

١٠- أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار

أدلينا إليك ببعض البيانات عن ارتقاء فرنسا مدارج الرفعة في أوربا، وعن الانحلال السريع لذلك النماء الرخو الذي تهيأ للدولة الإسبانية وعن انفصالها عن النمسا، وقيام بروسيا. فأما فرنسا والبرتغال وإسبانيا وبريطانيا وهولندة، فإن تنافسها على الرفعة في أوربا قد امتد وتعقد في كفاح على الممتلكات وراء البحار.

ذلك بأن اكتشاف قارة أمريكا وهي الضخمة القليلة السكان، غير المتطورة والمكيفة تكيفًا رائعًا لإقامة الأوروبيين واستغلالهم، وما رافق ذلك من اكتشافات لمساحات عظيمة من الأرض البكر جنوبي المناطق الاستوائية الحارة في إفريقية التي كانت حتى ذلك الحين تحد من معرفة الأوربيين، ثم التوصل على التدريج إلى معرفة أقاليم جزيرية فسيحة في البحار الشرقية، لم تمسسها حتى ذلك الحين المدنية الغربية، - كانت بأكملها عملية عرض للنهزات أمام أعين الإنسانية لم يسبق لها مثيل في التاريخ أجمع. وكأنما ورثت شعوب أوربا ميراثًا فاخرًا باذخًا. فإن عالمهم تضاعف بغتة أربعة أضعافه. وكان لكل ما يفي بحاجته ويفيض. ولم يكن عليهم إلا أن يتسلموا تلك الأراضي وأن يواصلوا بها عيش الثراء، وعند ذلك يتبدد ما هم عليه من فقر وتزاحم تبدد الحلم عند اليقظة. ولكنهم تلقوا ذلك التراث الفاخر تلقي الورثة السيئي التربية. إذ لم يكن له لديهم من معنى إلا أنه ظرف جديد تتجلى فيه المنازعات الفظيعة. ولكن أنَّى لنا ذلك المجتمع البشري الذي يؤثر الخلق والابتكار على المؤامرة؟ وأي شعب في قصتنا بأجمعها تعاون قط مع شعب آخر بينما كان يستطيع بأي ثمن أن يدبر المكايد لإلحاق الضرر بذلك الشعب الآخر؟ ابتدأت دول أوربا الأمر "بادءاء" المدعيات الجنونية المتهوسة على الأقطار الجديدة. ثم ترامى بهم الأمر إلى منازعات مستنفدة للقوى. فإن إسبانيا صاحبة أول الادعاءات وأشدها، والتي ظلت ردحًا من الدهر "سيدة" ثلثي أمريكا، لم تفد من ممتلكاتها بطريقة أحسن من أن تنزف دماء نفسها فيها إلى درجة الموت تقريبًا.

ولقد ذكرنا كيف أن البابوية في آخر أدوار تمسكها بالسيادة العالمية، قسمت القارة الأمريكية بين إسبانيا والبرتغال بدل أن تحافظ على الواجب المشترك لكل عالم المسيحية بإنشاء حضارة عظيمة مشتركة في الأراضي الجديدة. وطبيعي أن يستثير ذلك عداوة الشعوب المحرومة. ومن ثم فإن رجال البحر الإنجليز لم يعيروا مدعيات الطرفين أي احترام، ونصبوا أنفسهم ضد الإسبان بوجه خاص. وحوّل السويديون نزعتهم البروتستانتية إلى شيء من هذا القبيل. وما كاد الهولنديون يلقون عن أنفسهم نير أسيادهم الإسبان حتى نشروا قلوعهم غربًا ليسخروا من البابا، وينالوا نصيبهم من خيرات العالم الجديد. فأما صاحب الجلالة الكاثوليكية الورعة ملك فرنسا، فإنه لم يتردد إلا قدر ما يتردد أي بروتستانتي. فكانت كل هذه الدول مشغولة تتنافس في دعاواها على أمريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية.

ولم تفد المملكة الدانيماركية (وكانت آنذاك تضم النرويج وإيسلندة) ولا السويد شيئًا كثيرًا جدًا في هذا التخاطف. فضم الدانيمركيون إليهم بعض جزائر الهند الغربية. ولم تصل السويد إلى شيء منها. وكان كل من الدانيمرك والسويد في ذلك الأوان غائصتين في الشئون الألمانية. فقد ذكرنا آنفًا جوستاف أدولف "أسد

الشمال" البروتستانتي، وأشرنا إلى حملاته في ألمانيا وبولندة والروسيا. والحق أن هذه الأق اليم الأوروبي ة الشرقية تمتص الطاقات امتصاصًا عظيمًا، وإن هذه القوة التي ربما كانت تكسب السويد قسطًا عظيمً ا م ن العالم الجديد، قد حصدت لها محصولاً عقيمًا من المجد في أوروبا. وسرعان ما س قطت تل ك الم ستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا في أيدي الهولنديين.

وكذلك الهولنديون أيضًا فإنهم وقد شهدوا حيالهم الملكية الفرنسية تحت الكاردينال ريشليو وتحت لويس الرابع عشر، وهي تشق طريقها عبر الأراضي المنخفضة الإسبانية نحو تخومهم، لم تكن لديهم الموارد غير المبددة ولا القوة المجتمعة التي كانت بريطانيا من خلف لجج "بحرها الفضي" تستطيع أن تق ذف به ا ف ي ميادين المغامرات وراء البحار.

وفضلاً عن ذلك فإن الجهود التي بذلها في سبيل الحكم المطلق جيمس الأول، وشارل الأول، وع ودة شارل الثاني، كان من أثرها أن دفعت خارج إنجلترة عددًا عظيمً ا م ن البروت ستانت الأقوي اء العق ول، الجمهوريي الروح، وهم قوم أشداء ذوو وطنية قوية وأخلاق متينة، أقاموا في أمريكا، وبوجه خ اص ف ي منطقة نيوإنجلند، بعيدًا عن منال الملك وضرائبه – فيما كانوا يظنون. ولم تكن السفينة "ماي فلور" إلا واحدة من السفن الأولى في فيض من سفن المهاجرين. وكان من حسن طالع بريطانيا أنه م ظل وا تح ت العل م البريطاني، وإن كانوا مخالفين منشقين. فأما الهولنديون فلم يرسوا إلى أمريكا البتة مستقرين على نفس وفرة العدد والرقي، وذلك أولاً لأن حكامهم الإسبانيين لم يكونوا ليسمحوا لهم، وثانيًا لأنهم تملكوا بلادهم هم. ومع أنه حدثت هجرة عظيمة للهوجنوت البروتستانت لما لقوا عذاب الدراجوناد واضطهاد لويس الرابع عشر، فقد كان لهم من هولندة وإنجلترة ملتجأ قريب، فانتقلت صناعاتهم ومهاراتهم وجدهم وقناعتهم إلى ذينك القط رين فكان لهما منهم وبخاصة إنجلترة قوة أي قوة. وأسس القليل منهم المستقرات في كارولينا، على أن ه ذه ل م تستمر فرنسية. فإنها انتقلت إلى الإسبان أولاً ثم انتقلت آخر الأمر إلى الإنجليز.

كذلك خضعت المستقرات الهولندية ومعها السويدية لبريطاني ا. فأص بحت نيوأم ستردام بريطاني ة (١٦٧٤) وتعدل اسمها إلى نيويورك، كما قد يرى القارئ في كتاب واشنجتن إرفنج الفكه: "تاريخ نيوي ورك الموجز". وتتبين حال الأمور بأمريكا في (١٧٥٠) تبينًا واضحًا جدًا من خريطة كيفناها عن أخرى في كتاب "العصور الوسطى والحديثة" لروبنسون[1]. وقد تأسست دائرة النفوذ البريطانية على امتداد الشاطئ ال شرقي من سافانا إلى نهر السانت لورنس، فأما نيوفوندلند وأراضي شمالية مترامية هي أراضي شركة خليج هدسون فقد اكتسبت من الفرنسيين بمعاهدة صلح. واحتل البريطانيون بربادوس في (١٦٠٥)، (وهي تكاد تكون أق دم ممتلكاتهم الأمريكية)، واستحوذوا على جامايكا وجزائر بهاما وهندوراس البريطانية من الإسبان. ولكن فرنسا كانت تطارد صيدًا خطرًا مزعجًا جدًا، وهو صيد يبدو على الخريطة أشد خطرًا وإزعاجًا منه في الحقيق ة. فإنها أنشأت مستقرات حقيقية في كوبيك ومونتريال في الشمال وف ي نيوأورلي انز ف ي الجن وب، وتق دم مستكشفوها وعملاؤها جنوبًا وشمالاً، يعقدون المعاهدات مع الهنود الأمريكيين بالسهول العظيم ة ويقيم ون

---

(1) Robinson: "Medieval & Modern Times".

المدعيات – دون أن يقيموا المدن – عبر القارة بأكملها خلف منطقة البريطانيين. ولكن حة ائق الموقـ ف لا تمثّل على هذا النحو تمثيلاً كافيًا. فإن المستقرات البريطانية قد توطدت بها إلى أقصى حد إقامة طبقة صالحة من الناس؛ وكان عددهم يتجاوز بالفعل المليون. وما كان الفرنسيون في ذاك الزمان يدانون عُشر ذلك العدد.

أجل كان لهم عدد من أذكياء الرحالين والمبشرين يعملون ناشطين، على أنهم لم يكن من ورائهم م ادة عظيمة من السكان.

وما يزال في الإمكان العثور على كثير من الخرائط القديمة لأمريكا في تلك الفت رة، وه ي خ رائط وضعت خصيصًا لإخافة البريطانيين واستثارتهم حتى يتنبهوا إلى "خطط الفرنسيين" ف ي أمريك ا. و ذ شبت الحرب في (١٧٢٤). وفي (١٧٥٩) استولت القوات البريطانية وقوات المستعمرات بقيادة الجن رال وول ف على كويبك وأتمت من فتح كندا في السنة التالية. وما وافت (١٧٦٣) حتى كانت كندا قد انتقلت نهائيًا ا إل ى أيدي بريطانيا. (على أن الجزء الغربي من إقليم لويزيانا الذي يكاد يكون لا حد له في الجن وب، والم سمى باسم لويس الرابع عشر، ظل خارج الدائرة البريطانية. فأخذته إسبانيا، وفي (١٨٠٠) استردته فرن سا. ث م اشترته آخر الأمر (١٨٠٣) حكومة الولايات المتحدة من فرنسا). وف ي ه ذه الح ر ب الكندي ة، ح صل المستقرون الأمريكيون على خبرة جسيمة في فن الحروب، وعلى علم بالتنظيم العسكري البريط اني ع اد عليهم بعظيم النفع بعد ذلك بزمن وجيز.

١١- بريطانيا تسود الهند

لم يقتصر اصطدام الدولتين الفرنسية والبريطانية على أمريكا وحدها. بل إن أحوال الهند كانت في ذلك الزمان شديدة الجاذبية عظيمة اللذة للمغامرين الأوربيين. فإن الإمبراطورية المغولية العظيمة، إمبراطورية بابر وأكبر وأورانغزيب، كانت قد سارت في الانحلال شوطًا بعيدًا. وما حدث للهند كان موازيًا ومماثلاً لما جد لألمانيا. فإن المغولي الأكبر، شأن إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في ألمانيا، كان ما يزال صاحب السيادة العليا شرعًا، ولكنه كان بعد وفاة أورانغزيب، يتولى سلطة اسمية ليس غير، اللهم إلا في المنطقة المجاورة مباشرة لعاصمته. وقد حدث نهوض عظيم في الهندوكية وفي الروح الوطنية. ففي الجنوب الغربي ثار على الإسلام شعب هندوكي هو الماراتا (Mahrattas)، وأعاد البرهمانية ديانة سائدة. ثم بسطوا سلطانهم حينًا من الدهر فوق مثلث الهند الجنوبي بأجمعه. وتقوض حكم الإسلام في راجبوتانا أيضًا وحلت محله البرهمانية، وكان يحكم في بهورتبور وفي جايبور، أمراء راجبوتانيون أقوياء. وكانت في أوده مملكة شيعية عاصمتها لَكْنو، وكانت البنغال كذلك مملكة إسلامية منفصلة. ونشأت في بلاد البنجاب القصية في الشمال هيئة دينية شائقة جدًا هي السيخ، الذين أعلنوا أن الحكم العام لرب واحد وهاجموا الفيدا الهندوكية والقرآن الإسلامي على السواء. وكان السيخ في الأصل طائفة سلم ما لبثوا أن احتذوا حذو الإسلام [1] وحاولوا – موقعين أنفسهم في أول الأمر في أشد الكوارث – أن يؤسسوا مملكة الرب بحد الحسام. وإلى هذه الهند الهندية المتبلبلة البالغة الفوضى وإن كانت ناهضة قوية الحيوية، هبط للفور (١٧٣٨) غاز من الشمال، هو نادر شاه (١٧٣٦ – ٤٧) حاكم فارس التركماني، الذي انثال بجيوشه عابرًا ممر خيبر، موقعًا بكل جيش اعترض طريقه، واستولى على دلهي ونهبها، وحمل منها غنائم هائلة. وخلف شمال الهند محطمًا يبابًا إلى حد أن عدد غارات النهب الأخرى الناجحة في العشرين سنة التالية لم يقل عن ست غارات في شمال الهند أتت جميعًا من بلاد الأفغان، التي أصبحت دولة مستقلة عند وفاة نادر شاه. وواصل الماراتا محاربة الأفغانيين ردحًا من الزمان على حكم شمال الهند. ثم تحطمت دولة الماراتا وتقسمها عدد من الإمارات وهي إندور وجواليور وبارودا وغيرها. فكانت الهند في القرن السابع عشر شديدة الشبه بأوربا في القرن السابع أو الثامن، إذ كانت أرض نهوض بطيء لا يفتأ المغيرون الأجانب ينزلون بها الكوارث.

ذلك شأن الهند التي كان يندفع إليها الفرنسيون والإنجليز إبان القرن الثامن عشر. ذلك أن عددًا متعاقبًا من الدول الأوربية الأخرى ما فتئ يكافح طلبًا لمرسى تجاري وسياسي في الهند والشرق منذ السنة التي قام فيها فاسكودا جاما برحلته العظيمة حول رأس الرجاء إلى قاليقوت. وكانت تجارة الهند البحرية قبل ذلك في يد عرب البحر الأحمر، فظفر بها منهم البرتغاليون بعد سلسلة من المعارك البحرية. إذ كانت السفن البرتغالية أكبر حجمًا، وكانت تحمل أسلحة أثقل. وظل البرتغاليون زمانًا وزمام التجارة الهندية ملك خاص ليمينهم،

---

[1] سبق أن رددنا على هذه النقطة في المجلد الثالث من المعالم ص ٦٣٢ ط١ و (ص ٧٨١ – ط٢) فليرجع إليها القارئ في موضعها. (المترجم)

وبزت لشبونة البندقية كسوق للأفاويه الشرقية. ومهما يكن من شيء فإن القرن السابع عشر شهد الهولنديين قابضين على هذا الاحتكار. وكان للهولنديين وهم في أوج قوتهم مستقرات عند رأس الرجاء الصالح، هذا إلى جزيرة موريشيوس، وإلى مؤسستين في فارس، واثنتي عشرة في الهند، وست في سيلان، وكانوا قد نثروا محطاتهم المحصنة في كل أرجاء جزائر الهند الشرقية. ولكن ما أبدوا من عزم أناني على حرمان التجار من أية جنسية من الاستفادة من تجارة الشرق، ألجأ السويديين والدانمركيين والفرنسيين والإنجليز إلى المنافسة العدائية. فكانت أولى الضربات التي كيلت لاحتكارهم وراء البحار، تلك التي وجهها بليك الأميرال الإنجليزي الجمهوري في المياه الأوربية. وكان كل من الإنجليز والفرنسيين عند مفتتح القرن الثامن عشر في نزاع ومنافسة قوية للهولنديين على التجارة والامتيازات في كل أرجاء الهند. وأنشأ الإنجليز مراكزهم الكبرى في مدراس وبمباي وكلكتا؛ وكانت المستقرات الفرنسية الرئيسية هي بوندتشيري وشاندر ناجور.

وفي بادئ الأمر، كانت كل هاته الدول الأوربية تأبى بوصفها مجرد متجرين، وكانت المؤسسات الوحيدة التي يحاولون تشييدها هي المخازن. ولكن حالة البلاد غير المستقرة، والطرق غير الشريفة التي كان يتبعها منافسوهم، جعلت تحصينهم أنفسهم وتسلحهم شيئًا طبيعيًا، وجعلهم هذا التسلح حلفاء جذابين في أعين الأمراء المتنوعين المتقاتلين الذين كانت تتقسم الهند آنذاك بينهم. وكان مما يتواءم تمامًا وروح السياسة القومية الأوروبية الجديدة. أنه ما يكاد الفرنسيون ينضمون إلى جانب، حتى يجب أن ينحاز الإنجليز إلى آخر. وكان الزعيم في الجانب الإنجليزي هو روبرت كلايف، المولود في (١٧٢٥) والذي وصل إلى الهند في (١٧٤٣). وكان خصمه الأكبر هو دوبليه. ولكن قصة هذا الكفاح الذي استغرق النصف الأول من القرن الثامن عشر أطول وأعقد من أن يتسع لها هذا المكان. ولما وافت (١٧٦١) نظر الإنجليز وإذا لهم السيادة الكاملة على شبه الجزيرة الهندية. وفازت جنودهم في بلاسي (١٧٥٧) وبوكسر (١٧٦٤) بانتصارات رائعة فاصلة على جيش البنغال وجيش أوده. وكان المغولي الأكبر، صاحب السيادة عليهم اسميًا، قد أصبح في الحقيقة ألعوبتهم الخاضعة. وكانوا يجبون الضرائب في مساحات عظيمة؛ وكانوا يحتمون دفع التعويضات جزاء لأية معارضة حقيقية أو خيالية.

على أن هذه الانتصارات لم تحرزها أيدي قوات ملك إنجلترة مباشرة، بل فازت بها شركة الهند التجارية، التي ما كانت في الأصل حين إنشائها في حكم الملكة إليزابيث، إلا شركة من المغامرين البحريين. واضطروا خطوة فخطوة أن يجمعوا الجنود وأن يسلحوا سفنهم وعند ذلك وجدت هذه الشركة التجارية بما لها من تقاليد الكسب والربح، أنها لا تتجر فحسب في الأفاويه والأصباغ والشاي والجواهر، بل في إيرادات الأمراء وممتلكاتهم وفي مقدرات الهند. جاءت لتشتري وتبيع، ووجدت نفسها تصيب قرصنة هائلة. ولم يكن هناك من إنسان يتحدى تصرفاتها. أعجيب إذن أن قادتها وضباطها وموظفيها، كلا بل كتبتها وجنودها العاديين، كانوا يعودون إلى إنجلترة محملين بالغنائم؟ إن رجالاً في مثل هذه الظروف وتحت رحمتهم أراضٍ عظيمة غنية، لا يستطيعون أن يميزوا بين ما يجوز أن يفعلوه وما لا يجوز. كانت في أعينهم أرضًا عجيبة ذات شمس عجيبة الضياء. وكان سكانها السمر القاتمون جنسًا مختلفًا، يخرج عن مجال عطفهم. وكانت معابدها ومبانيها تبدو كأنما تقيم أركان معايير للسلوك وهمية سخيفة.

وكانت خواطر الإنجليز في بلادهم تضطرب وتتبلبل عندما يعود هؤلاء القادة والموظفون إلى بلادهم ويتراشقون بالتهم السوداء ما بين ابتزازات وقساوات. وأصدر البرلمان قرارًا بلوم كلايف. فقضى على نفسه انتحارًا في (١٧٧٤). وفي (١٧٨٨) حوكم وارن هاستنجس وهو مدير عظيم آخر للهند وقضي ببراءته (١٧٩٢). وكان ذلك الموقف موقفاً غريبًا لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم. فإن البرلمان الإنجليزي ألفى نفسه يحكي فوق شركة لندنية للتجارة، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم وأكثر سكانًا من كل ممتلكات التاج البريطاني. وكانت الهند في نظر كتلة الشعب الإنجليزي أرضًا شاسعة خيالية سخيفة لا يكاد يستطاع الوصول إليها. لم يذهب إليها إلا فقراء الشبان من المغامرين ليعودوا إلى وطنهم بعد سنوات كثيرة سادة مسنين أغنياء جدًا حاديِّ الطبع جدًا. وكان من العسير على الإنجليز أن يتصوروا ماذا يمكن أن تكون عليه حياة ملايين السُّمر الذين لا يحصرهم عدد في ضياء شمس الشرق. وكانت أخيلتهم تأبى عليهم حمل هذه الصورة. فظلت الهند شيئاً غير حقيقي يشابه في غرابته الروايات الرومانسية ومن ثم كان من المستحيل على الإنجليز، أن يقيموا أي إشراف ورقابة فعالين، على تصرفات الشركة.

١٢ – تقدم الروسيا إلى المحيط الهادي

وعلى حين كانت شبه الجزيرة العظيمة في الجنوب من آسيا تقع على هذا النحو تحت سلطان التجار البحريين الإنجليز، كان يحدث في الشمال رد فعل آخر لأوروبا على آسيا معادل لذاك عظيم. ولقد سبق أن نبأنا القارئ كيف استردت الدول المسيحية في الروسيا استقلالها من الرهط (الحشد) الذهبي، وكيف أصبح قيصر الروسيا سيدًا على جمهورية نوفجورود؛ وأخبرناك في القسم الخامس من هذا الفصل عن بطرس الأكبر وهو ينضم إلى جماعة الملوك العظام ثم يسوق الروسيا في الواقع إلى أوروبا سوقًا. ونهوض هذه الدولة الكبرى التي تتوسط العالم القديم والتي لا هي بالشرقية تمامًا ولا هي بالغربية تمامًا، نهوض ذو أهمية قصوى لمقدّراتنا الإنسانية.

كذلك نبأناك في الفصل ذاته عن ظهور شعب مسيحي في السهوب، هم القوزاق الذين كانوا حدًا فاصلاً بين زراعة بولندة وهنغاريا الإقطاعية من ناحية الغرب وبين التتار من ناحية الشرق. وكان القوزاق يمثلون شرق أوروبا المتوحش، وكانوا في كثير من الوجوه لا يختلون كثيرًا عن القسم الغربي المتوحش في الولايات المتحدة إبان منتصف القرن التاسع عشر. فكل من أحنق عليه صدر الروسيا حتى لم تعد تطيق أن تئويه، من أمثال المجرمين ثم الأبرياء المضطهدين، وموالي الأرض الثائرين، وأعضاء الشيع الدينية، واللصوص، والأفاقين والقتلة، كانوا يلوذون بملجأ السهوب الجنوبية، ثم يبدءون حياتهم من جديد ويقاتلون من أجل الحياة والحرية ضد كل من البولنديين، والروسيين، والتتار على السواء. ولا مرية في أن لاجئين من التتار في الشرق كانوا ينضمون كذلك ويزيدون في عدد خليط القوزاق. وكان أكبر هذه القبائل المترحلة الجديدة، قوزاق أوكرانيا على نهر الدنيبر وقوزاق الدون على نهر الدون. وضُمَّ هؤلاء القوم على الحدود في بطء إلى الخدمة الإمبراطورية الروسية، على نفس الطريقة التي تم بها تحويل عشائر الأراضي المرتفعة (هايلاند) في اسكتلندة إلى فرق أنشأتها الحكومة البريطانية. فمنحوا أراضي جديدة في آسيا. فأصبحوا سلاحًا ضد قوة المغول المترحلين المضمحلة، في التركستان في مبدأ الأمر، ثم عبر سيبيريا حتى نهر العامور.

وانحلال الطاقة المغولية في القرن السابع عشر والثامن عشر أمر يعسر علينا جدًا أن نفسره. فلم ينقض قرنان أو ثلاثة على أيام جانكيز وتيمورلنك، حتى انحدرت آسيا الوسطى من فترة رفعة عالمية إلى حالة كلال ووهن سياسي مفرط. ولعل تغيرات في المناخ، وأوبئة لم يسجلها التاريخ، وعدوى من طراز يشبه الملاريا، قد قامت بدورها في هذا التأخر الذي ألم بشعوب آسيا الوسطى، والذي ربما لا يكون إلا تأخرًا موقوتًا إذا قيس إلى معيار التاريخ العام. ويظن بعض الثقات أن انتشار التعاليم البوذية من الصين إلى تلك الأصقاع كان له أيضًا أثر مهدئ لنفوسهم. ومهما يكن من شيء، فلم تعد شعوب التتار والترك المغولية عند حلول القرن السادس عشر محافظة على ضغطها نحو الخارج، بل تحولت بهم الحال، فأصبحوا هم الذين يُغزون ويقهرون ويُدفعون إلى الخلف من كل من الروسيا في الغرب والصين في الشرق.

وظل القوزاق ينتشرون نحو الشرق طوال القرن الثالث عشر من الروسيا الأوربية ويستقرون حيثما تهيأت لهم الظروف الزراعية. وكانت نطاقات من التحصينات والمحطات تقوم مقام التخوم المتحركة لهذه

المستقرات في الجنوب، حيث كان التركمان لا يبرحون أقوياء ناشطين؛ ومع ذلك فإن الروسيا من الجهة الشمالية الشرقية لم تكن لها تخوم حتى وصلت إلى المحيط الهادي نفسه. وكانت الصين في نفس الوقت في دور اتساع. إذ إن الغزاة "المانشو" بثوا في الشئون الصينية طاقة جديدة، وأدى اهتمامهم بمناطق الشمال إلى توسع شمالي عظيم لحضارة الصين وسلطانها في كل من منشوريا ومنغوليا. وهكذا حدث عند منتصف القرن الثامن عشر أن تلاحم [1] الروسيون والصينيون في منغوليا. وكانت الصين في تلك الفترة تحكم التركستان الشرقية، والتبت ونيبال، وبورما وأنام.

وكان عصر المانشو في الصين فترة نشاط أدبي جسيم أيضًا، مماثل لعصور نظرائهم في أوربا وإن استقل عنها الاستقلال كله، فإن الرواية الصينية والقصة الصينية القصيرة ارتفعتا إلى مستويات عالية في الأسلوب والإمتاع، وحدثت للدرامة الصينية تطورات هامة. وصورت مناظر أرضية ممتازة كثيرة، واخترعت الطباعة بالألوان، وتعلم الناس الحفر على النحاس من المرسلين اليسوعيين، وارتقى صنع الخزف (البورسلين) الصيني إلى ذرًا لا مثيل لها من الرفعة. ولكن السمة الجمالية لهذا الخزف انحطت مع تقدم الزمن بالقرن الثامن عشر بسبب مسارعة الفخرانية إلى تكييف أنفسهم طبقًا لما كانوا يعدونه الذوق الأوربي. وتواصل التصدير طيلة هذا القرن كله إلى السرايات والقصور والدور الريفية التي للنبلاء والأعيان الأوربيين. وقلدت صناعة الخزف الأوربية المنتجات الصينية ونافستها ولكنها لم تفقها قط. وابتدأت أيضًا تجارة الشاي الأوروبية.

سبق أن ذكرنا غزوًا يابانيًا للصين (أو بالحري لكوريا). ولا تلعب اليابان فيما عدا عدوانها هذا على الصين، أي دور في تاريخنا قبل القرن التاسع عشر فإنها – شأن الصين تحت حكم أسرة منج – قد نصبت نفسها في حزم وعزم ضد تدخل الأجانب في شئونها. فكانت قطرًا يمضي قدمًا في ظل حياته الحضارية الخاصة. وهو مختوم ختمًا سحريًا ضد كل دخيل. وقد حدثناك عنها بالنزر اليسير حتى الآن لأن كل ما لدينا كان ذلك النزر اليسير. فإن تاريخها الجميل الجذاب الرومانسي الشعري يقف بمعزل عن الدرامة العامة للشئون الإنسانية. كان سكانها في معظم أمرهم من المغول، بهم مسكة من شعب أبيض شائق جدًا يوحي بطراز نوردي بدائي، هو الأينو (Ainu) المشعرون في الجزائر الشمالية. ويلوح أن مدنيتها قد استمدت كلها تقريبًا من الصين وكوريا؛ وأن فنها تطور خاص للفن الصيني وكتابتها تكييف للكتابة الصينية.

---

[1] تلاحمت الأشياء: تضامت وتلاءمت بعد أن كانت منفصلة. (المترجم).

١٣- رأي جيبون في العالم في ١٧٨٠

كنا نعالج في هذه الأقسام الاثنا عشر السابقة عصر فرقة وانقسام، وقوميات متفرقة. وسبق أن شبهنا تلك الفترة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بفترة "عطل وخلو" من الدافع الأعلى توقف فيها تقدم البشرية نحو وحدة تعم العالم أجمع. وقد حرمت عقول الناس طوال هذه الفترة من كل "فكرة موحدة جامعة". فإن قوة دفع الإمبراطورية قد بلغ من إخفاقها أن الإمبراطور لم يعد يزيد عن فرد بين جماعة من الأمراء المتنافسين، كذلك ذهب حلم "عالم المسيحية" أدراج الرياح. وكانت الدول المتطورة تتدافع بالمناكب في كل أرجاء العالم قاطبة؛ وانقضى حين من الدهر كان يبدو أثناءه أنها سوف تمضي تتدافع بالمناكب إلى ما شاء الله دون أن تُلم بالإنسانية أية نازلة عظيمة. وقد وسَّعت المكتشفات الجغرافية العظيمة في القرن السادس عشر الموارد الإنسانية إلى درجة أنه بالرغم من انقساماتهم، وبالرغم مما كانت تجره الحروب والسياسات على شعوب أوربا من الخسارة والضياع، فإن تلك الشعوب استمتعت بظلال رخاء جسيم متزايد. وراحت أوربا الوسطى تنتعش انتعاشاً مطردًا مما حل بها من جراء حرب الثلاثين سنة.

وإذا نحن ألقينا إلى الخلف نظرة إلى تلك الفترة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن عشر، كما قد نستطيع أن نفعل ذلك اليوم، ورأينا أحداثها بالعلاقة إلى القرون التي سبقتها، وإلى الحركات العظيمة في الزمن الحاضر، استطعنا أن ندرك كم كانت أشكالها السياسية موقوتة غير دائمة وعرضية طارئة وكم كانت ضماناتها غير ثابتة. كانت لا جرم عرضية طارئة على صورة لم تسبق لأي عصر آخر، وكانت عصر تمثل وإبلال بل هي كانت توقفاً سياسيًا، وتجميعًا لفكرات البشر وموارد العلم توطئة لمجهود إنساني أرحب. على أن العقل المعاصر لها لم يردها على هذه الصورة. فإن إخفاق الفكرات الخلاقة العظيمة بشكلها الذي صيغت فيه في القرون الوسطى، غادر الفكر الإنساني حيناً من الدهر محرومًا من هداية الفكرات الخلاّقة؛ فإن المتعلمين وذوي الخيال الفسيح أنفسهم كانوا يرون العالم بطريقة عارية من كل روعة؛ فلم يعد في نظرهم مكاناً تتفاعل فيه الجهود والمصائر بل مشهدًا تلتمس فيه الفصائل الفاترة حسن الجزاء. ولم يكن أصحاب العقول المحافظة والقانعة هم وحدهم الذين كانوا يتفيَّئون – في عالم حافل بالتغيرات السريعة – أكناف هذا الاطمئنان الذي يجزم ببلوغ الشئون الإنسانية مرحلة الثبات والاستقرار. بل لقد أظهر نفس النزعة أصحاب الفطن القوية الناقدة والثائرة، وذلك لامتناع وجود أي حركات تدعم روح المجتمع وتشد أزره فإنهم أحسوا بأن الحياة السياسية تغيرت ولم تعد على ما كانت عليه من العجلة الفاجعة؛ فإنها أصبحت كوميديا مؤدبة. وكان القرن الثامن عشر قرن كوميديا أصبحت في النهاية عابسة جهمة. ولا يكاد يتصور العقل أن ذلك العالم عالم منتصف القرن الثامن عشر كان في طوقه أن ينتج عظماء من أمثال يسوع الناصري ولاجوتاما ولا فرنسيس الأسيسي، ولا إناطيوس ليولا. فلو استطاع الإنسان أن يتصور وجود جون هَس آخر في القرن الثامن عشر، فإن من المستحيل عليه تصور وجود أي إنسان لديه ما يكفي من الحميّة لإحراقه.

فإلى يوم بدأت حركات تيقظ الضمير في بريطانيا التي تطورت إلى نهضة المنهاجيين (Methodists) [1] لا نكاد نلمح في أوربا أية بارقة شك تشير إلى أنه لا تزال توجد بين يدي جنسنا واجبات عظيمة لا بد له من إتمامها، ولا أن اضطرابات هائلة كانت على الأبواب، ولا أن أخطارًا لا حصر لها كانت تغشّى بالسُدفة والظلام طريق الإنسان في الزمان والفضاء، وأن قطعه لذلك الطريق لا بد له من أن يظل حتى النهاية جهدًا عظيمًا ورهيبًا.

عاودنا في هذا التاريخ مرة بعد أخرى الاقتباس عن كتاب "اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها" لجيبون. ونحن الآن على أن نقتبس منه لآخر مرة ثم نستودعه الله، ذلك أننا وصلنا إلى العصر الذي كتب فيه ذلك الكتاب. ولد جيبون في ١٧٣٧، وصدر آخر جزء من تاريخه في ١٧٨٧. على أن الفقرة التي نقتبسها كتبت فيما يرجح في ١٧٨٠. كان جيبون شابًا رقيق الصحة متوسط الثراء، نال في أوكسفورد تعليمًا جزئيًا متقطعًا، ثم أتم دراساته في جنيف؛ وكان اتجاهه الذهني في جملته فرنسيًا دوليًا أكثر منه بريطانيًا. وكان كبير التأثر بالنفوذ العقلي للفرنسي العظيم الذي يشتهر باسم فولتير (فرانسوا ماري أرويه دي فولتير، ١٦٩٤ – ١٧٧٨). كان فولتير مؤلفًا هائل الجد والتشمير، فإن سبعين سفرًا له تزين رفوف كاتب هذه السطور، وهناك طبعة أخرى لمؤلفات فولتير ترفع العدد إلى أربعة وتسعين سفرًا، وكان أكثر ما يعالجه شئون التاريخ والشئون العامة، وتراسل مع كاترين العظمى قيصرة الروسيا وفردريك الأكبر ملك بروسيا ولويس الخامس عشر ومعظم الرجال البارزين في ذلك الزمان. وكان إحساس جيبون وفولتير بالتاريخ قويًا، وكلاهما قد وضع آراءه في الحياة الإنسانية على أكمل وأوضح وجه؛ وواضح أنهما كانا كليْهما يريان أن النظام الذي كان يعيشان فيه وأعني به نظام الملكية، ونظام الطبقات الراقية الناعمة بالفراغ والامتيازات، ونظام الأقوام المحتقرين تقريبًا أصحاب الصناعة والتجارة، ونظام العامة والفقراء والعمال المدوسين بالأقدام والمنزلين منزلة الإهمال، كان يبدو أثبت طريقة للعيش رآها العالم طَوال الدهر. فاعتنقا مبادئ الجمهوريين إلى حين، وأخذا يسخران من الادعاءات المقدسة للملكية؛ ولكن الروح الجمهورية التي راقت فولتير كانت "الروح الجمهورية المتوجة" في بريطانيا أثناء ذلك الزمان، التي كان فيها الملك مجرد الرأس الرسمي، وأول الجنتلمانية وأعظمهم.

وكان المثل الأعلى الذي يرفعان لواءه وبناءه هو المثل الأعلى القائل بوجود عالم مؤدب مهذب يكون فيه الرجال – وأعني بهم الرجال ذوي السجايا العالية، إذ ليس لغير هؤلاء وزن – في خجل من أن يكونوا قساة أو غلاظًا أو متحمسين، وتكون فيه مرافق الحياة فسيحة الجنبات رشيقة الحواشي، والخشية من هزؤ الناس أقوى معين للقانون على صيانة السلوك اللائق وضروب التوازن والانسجام في الحياة. وكان فولتير يحمل في صدره استعدادًا للكره المتوقد للظلم، وما تدخلاته في نصرة من يضطهدون أو يساء إليهم من الرجال إلا الأنوار الساطعة في قصة حياته المديدة المعقدة. وإذ كان هذا هو الميل الذهني لدى جيبون

---

[1] المنهاجيون: هيئات دينية كثيرة نشأت عن الحركة الإنجيلية التي قام بها شارل وجون ويسلي في القرن الثامن عشر. (المترجم)

وفولتير، ولدى العصر الذي كانا يعيشان فيه، فإن من الطبيعي لديهما أن يجدا في وجود الديانة في العالم وبخاصة وجود الديانة المسيحية ظاهرة مربكة محيرة لا يكاد يوجد لها ما يبررها. وكان ذلك الجانب من الحياة يبدو لهما في مجموعه نوعًا من الخبل في الكيان الإنساني. وما ذلك التاريخ العظيم الذي ألفه جيبون إلا مهاجمة للمسيحية في جوهره، بوصفها السبب الفعال للتدهور والسقوط. فكان يمجد بلوتوقراطية [1] روما الفجة الغليظة ويتخذ منها مثلا عليا حاول أن يبثها في عالم مكون من جنتلمانية ممتازين نشئوا على غرار القرن الثامن عشر، كما بين كيف أن سقوطها أمام هجمات البرابرة القادمين من الخارج جاء نتيجة لفسادها الداخلي من جراء المسيحية. وقد حاولنا في كتابنا التاريخي هذا أن نقيم معالم تلك القصة تحت ضياء أصح وأحسن. وكان فولتير يرى في المسيحية الرسمية "شنعة L'infame"، وشيئًا يحد من حياة الناس، ويتدخل في أفكارهم، ويضطهد المخالفين الذين لا يضرون أحدًا. والواقع أنه لم يكن في "فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى" هذه إلا أثر ضئيل جدًا من النور أو الحياة في أي من مسيحية روما (السلفية) أو كنائس الروسيا الأرثوذكسية الخاضعة وكنائس الأمراء البروتستانت. وكان من العسير على الإنسان في فترة هذا "الخلو من الدافع الأعلى" التي يثقل الجو فيها وجود كثرة من الأساقفة المداهنين والقساوسة المكرة – أن يدرك أي نيران توقدت جمرتها يومًا ما في قلب المسيحية، وأي نيران من الشهوات السياسية والدينية لعلها لا تزال ممكنة التوقد في قلوب الناس.

وأتم جيبون في نهاية سفره الثالث بيانه عن تصدع الإمبراطورية الغربية. ثم تساءل عند ذلك هل تصاب المدنية يومًا ما بانهيار يماثل ذاك؟ وأدى به ذلك إلى استعراض حال الشئون المعاصرة له (١٧٨٠) وإلى مقارنتها بحال الأمور أثناء اضمحلال روما الإمبراطورية. وعندي أن من المناسب جدًا لخطتنا العامة في هذا الكتاب أن نقتبس هنا بعض فقرات من تلك الموازنة، فما من شيء يستطيع أن يوضح خيرًا منها الحال العقلية لدى المفكرين المتحررين في أوروبا إبان بلوغ "فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى" في عصر الدول الكبرى أوجها من الناحية السياسية. وذلك قبل ظهور أول بوادر تلك القوى العميقة السياسية والاجتماعية، قوى التفكك التي أنتجت في النهاية حالة التساؤل المستوقفة للنظر الموجود في عصرنا هذا.

كتب جيبون عن الانهيار الغربي يقول: "ربما طُبقت هذه الثورة الرهيبة تطبيقًا نافعًا يعود بالعظة والعبرة المفيدة على عصرنا الحاضر. فإن من واجب الوطني أن يؤثر ويزكي مصالح ومجد وطنه وحده دون أي شيء عداه. على أنه ربما أبيح للفيلسوف أن يوسع وجهه نظره، وأن يعد أوربا جمهورية واحدة عظيمة، أوشك سكانها المتنوعون أن يصلوا إلى نفس المستوى من التأدب والتهذيب. ولسوف يستمر توازن القوى في التأرجح، وسوف يتعاور على رخاء مملكتنا أو الممالك المجاورة لها غِيَر الدهر ما بين تسام وتدلٍّ؛ على أن هذه الأحداث الجزئية لا تستطيع بالضرورة أن تسدد سهمًا يجرح سعادتنا العامة، وأعني بذلك مجموعة الفنون والقوانين وآداب السلوك، التي تميز الأوربيين ومستعمراتهم عن الجنس البشري تمييزًا له جدواه التامة. فإن شعوب الكره الأرضية المتوحشين هم الأعداء المشتركون للجماعة الإنسانية الممدنة، ولعلنا

---

(1) البلوتوقراطية Plutocracy: حكومة الأغنياء. (المترجم)

نتساءل في تطلع القلق ألا تزال أوربا مهددة بتكرار تلك النوازل التي سبق أن ألمت بقوى روما ونظمها. وربما وضّحت نفس التأملات سقوط تلك الإمبراطورية الجبارة وشرحت الأسباب المحتملة لحالة الطمأنينة الفعلية التي نحن عليها اليوم.

"كان الرومان بمجهلة لمدى الخطر المحيق بهم وعدد أعدائهم. وكانت المناطق وراء الراين والدانوب أي الأقطار الشمالية لأوربا وآسيا غاصة بقبائل لا يحصيها حصر من الصيادين والرعاة وهم فقراء جشعون جياشون بالثورة والعصيان، متصفون بالجرأة عند اشتباك القتال وهم أشوق ما يكونون إلى انتهاب ثمار الكدح والجد الذي يبذله من يجاورهم من شعوب عاملة. كان العالم المتبربر يضطرم بدافع الحرب السريع الجياش، وكان سلام بلاد الغال أو إيطاليا يتزلزل بما يثور في الصين من ثورات. فراح الهون الذين كانوا يفرون أمام عدو مظفر، يجعلون وجهتهم الغرب، وتزايد السيل وطما بمن كان ينضم إليهم من الأسرى والأحلاف. واتخذت القبائل الهاربة التي خضعت للهون، روح الغزو بدورها؛ وكان طابور البرابرة الذي لا نهاية له يضغط على الإمبراطورية الرومانية بقوة متجمعة متكاثفة. ولئن دُمر الأولون منهم، لقد كان المكان الشاغر يملؤه على الفور مهاجمون جدد. وليس في المستطاع بعد ذلك أن تجيء من الشمال مثل هاته الهجرات العاتية. فأما السكون الطويل الذي يعزى إلى نقص عدد السكان، فهو النتيجة السعيدة لتقدم الفنون والزراعة. فبدلاً من ألا تقوم بألمانيا إلا بضع قرى خشنة متناثرة تناثرًا بعيدًا وسط غاباتها ومستنقعاتها، فإن ألمانيا تُصدر اليوم قائمة بألفين وثلاثمائة مدينة مسورة؛ وتأسست على التعاقب ممالك الدانمارك والسويد وبولندة المسيحية. ومد تجار الهانسا ومعهم الفرسان التيوتون مستعمراتهم على امتداد ساحل بحر البلطيق، حتى خليج فنلندة. ومن خليج فنلندة حتى المحيط الشرقي، تتخذ الروسيا الآن شكل إمبراطورية قوية ممدنة. ويستقدم المحراث والمنوال والكور إلى ضفاف الفولجا والأوربي والليناء؛ وعُلِّمت أشد قبائل التتار شراسة كيف ترتعد وتطيع.

"وكانت إمبراطورية روما راسخة البنيان بسبب تضامن أعضائها الفريد الكامل. ولكن هذا الاتحاد اشتُري بضياع الحرية القومية والروح العسكرية؛ وكانت الولايات الذليلة وهي خلو من الحياة والحركة، تتوقع أن تكون سلامتها على يد الجيوش والحكام المرتزقة الذين كانوا يأتمرون بأوامر بلاط بعيد الشقة. وكانت سعادة مائة مليون من الأنفس تتوقف على الجدارة الشخصية لرجل أو رجلين، ربما كانا طفلين ممن أفسد عقولهم طراز تربيتهم وترفهم وسلطتهم الاستبدادية. وأوروبا اليوم مقسمة إلى اثنتي عشرة مملكة قوية وإن تكن غير متعادلة، ثلاث منها إمبراطوريات عظمى، هذا إلا عدد من الدول الصغرى، وإن كانت مستقلة. فالفرص أمام مواهب الملوك والوزراء تضاعفت، وذلك على الأقل بقدر تكاثر عدد حكامها. وربما تولى الأحكام في الشمال جوليان آخر (أي فردريك الأكبر) أو سميراميس أخرى (يعني كاترين الكبيرة قيصرة الروسيا)، على حين يغلب النعاس من جهة أخرى على أركاديوس (لويس السادس عشر)، وهونوريوس (شارل الثالث ملك إسبانيا)، الجالسين على عرش آل بوربون. وقد أوقفت مساوئ الطغيان عند حدها نتيجة لما للخوف والخجل من تأثير متبادل. فاكتسبت الجمهوريات النظام والثبات، وانطوت الملكيات على مبادئ الحرية، أو مبادئ القصد والاعتدال على أقل تقدير؛ ودخل إلى أشد الدساتير نقصًا شيء من معنى الشرف

والعدالة بفضل ما ساد الزمان على الجملة من خلق حسن. وفي زمن السلم كانت سرعة تقدم العرفان والصناعة تزداد بتنافس مثل هذا الحجم من المتبارين الناشطين. وفي زمن الحروب تتمرس القوات الأوروبية بنضال معتدل غير حاسم. فلو خرج من صحراء التتار غاز متبربر، فلا بد له من أن يقمع على التوالي فلاحي الروسيا الأشداء، فجيوش ألمانيا العديدة، فنبلاء فرنسا الشجعان فرجال بريطانيا الأحرار الجريئي الجنان؛ الذين لعلهم يتحالفون من أجل دفاعهم المشترك. ولو أن البرابرة المظفرين حملوا الاسترقاق والتدمير حتى المحيط الأطلسي، لنقلت عشرة آلاف من السفن بقايا الجماعة الممدنة إلى حيث لا تنالها أيديهم؛ وعند ذلك تنتعش أوربا مزدهرة في العالم الأمريكي المليء بمستعمراتها ونظمها.

"والبرد والفقر وحياة الخطر والمتاعب تخلع على قوة البرابرة وشجاعتهم متعة وحصانة. ولقد كانوا في كل عصر كَلاًّ يوقع فادح المتاعب على أهل التأدب والسلام من أمم الصين والهند وفارس، الذين أهملوا وما يزالون يهملون أن يقيموا لأنفسهم عمادًا يوازن تلك القوى الطبيعية بالالتجاء إلى موارد الفن العسكري. وكانت الدول الحربية النزعة في الأزمان القديمة أمثال الإغريق ومقدونيا وروما، تنشئ جنسًا من الجنود، فتمرن أجسامهم، وتنظم شجاعاتهم وتكثر من عددهم بما تحدث في قواتهم من تطورات منظمة، وتحول ما في حوزتها من حديد إلى أسلحة متينة نافعة. ولكن هذا الاستعلاء الحربي ما لبث أن انحط بالتدريج وبشكل غير محسوس بظهور قوانينهم وآداب سلوكهم. وأدت السياسة الضعيفة التي اتجها قسطنطين وخلفاؤه إلى تسليح المرتزقة البرابرة وتدريب شجاعتهم الخشنة على فنون القتال، - فعاد ذلك على الإمبراطورية بالخراب. ولقد غير اختراع البارود كل أصول الفن العسكري؛ والبارود يطوع للإنسان السيادة على أقوى عوامل الطبيعة شكيمة وهما الهواء والنار. ووضعت علوم الرياضيات والكيمياء والميكانيكا والعمارة في خدمة الحرب؛ وأخذ كل خصمين متنازعين يطبقان على بعضهما البعض أحكم طرائق الهجوم والدفاع. وربما لاحظ بعض المؤرخين في شيء من الغضب أن نفقه معدات الحصار قد تكفي لتأسيس مستعمرة مزدهرة والمحافظة عليها. ومع ذلك فليس في مستطاعنا أن نتكدر لأن تخريب مدينة عمل لا بد أن يتكلف ثمناً غاليًا وأن تعترضه صعوبة كبيرة، أو أن شعبًا مجدًا يجب أن تحميه فنونه، التي تبقى بعد فناء وانحلال الفضيلة العسكرية والتي تكون من عوامل ذلك الفناء. فالآن تنهض المدافع والتحصينات حاجزًا منيعًا في وجه خيل التتار؛ كما أن أوربا أمست بمأمن من أية غارة مستقبلة يشنها البرابرة؛ إذ إنه يجب عليهم قبل أن يفتحوا ويقهروا أن يتخلوا أولاً عن همجيتهم.

"فإن ساورك الشك في هذه الآراء، أو تبينت خطأها، فما يزال هناك مصدر متواضع للراحة والأمل. فإن مكتشفات الملاحين القدامى والعصريين والتاريخ الداخلي أو التقاليد لأشد الشعوب اسدتنارة، -تظهر "المتوحش الإنساني" عاريًا في كل من جسده وعقله، ومجردًا من "القوانين والفنون والفكرات، بل من اللغة تقريبًا". وعن هذه الأحوال الوضيعة، ولعلها على وجه العموم حالة الإنسان البدائية، ارتفع الإنسان شيئًا "فشيئًا" إلى السيطرة على الحيوان وإلى تسميد الأرض، وإلى اختراق لجات المحيط، وإلى قياس أطباق السماوات. وكان تقدمه في تحسين وتدريب مواهبه العقلية والجسمية منوعًا غير منتظم، بطيئًا بطئًا لا نهائيًا في البداية، متزايد السرعة بعد ذلك، متضاعفها درجة فدرجة. وكم تلت عصور الرفعة المضنية لحظات

فهرس

انحدار سريع. وأحست أجواء الكرة الأرضية المختلفة تقلبات النور والظلام. على أن خبرة أربعة آلاف سنة، يجب أن توسع آفاق آمالنا، وأن تقلل من مخاوفنا. ولسنا بقادرين أن نبلغ الكمال. على أنه مـ ن الممكـ ن أن يفكر المرء وهو على جانب الأمانة أن شعبًا واحدًا لن ينتكس إلى حالة همجيته الأصلية ما لم يتغير ر وجـ ه الطبيعة.

"فمنذ اكتشاف الفنون لأول مرة بثت الحروب والتجارة والحماسة الدينية بين متوحشي الأزمان القديمة والعالم الجديد، تلك الهبات التي لا تقدر، بأن طفقت تنتشر ها نشرًا متعاقبًا على الأجيـ ال؛ وإذن فلـ يس فـ ي الإمكان أبدًا أن تزول. ولذا فإنا نستطيع أن نوافق على ذلك الاستنتاج السار القائل بأن كل عصر في العالم قد زاد وما يزال يزيد – في الثروة الحقيقية والسعادة والعرفان لدى الجنس البشري وربمـ ا زاد فـ ي فـ ضيلته أيضًا".

١٤- الهدنة الدينية تشارف نهايتها

ومن أمتع مظاهر قصة أوربا هذه في القرن السابع عشر ومستهل الثامن عشر، أثناء دور الملكيات العظمى والبرلمانية، ما نراه من الاستسلام النسبي في العمال والفلاحين. والظاهر أن نيران العصيانات التي شبت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر قد خمدت تمامًا. ذلك بأن بعض التسويات الخشنة الفجة خفضت من حدة الخلافات الاقتصادية في الفترة السابقة، إذ أحدث اكتشاف أمريكا انقلابًا وتغييرًا في معيار الأشغال التجارية والصناعة، وأدخل إلى أوربا قدرًا ضخمًا من المعادن النفيسة فصنعت نقودًا، وزاد في العمل ونوّعه. وامتنعت أسباب الشقاء إلى حين. ومر حين من الزمن لم تعد فيه الحياة والعمل شيئًا لا يطاق عند جماهير الفقراء. ولكن لم يحل هذا بالطبع دون وجود الكثير من الشقاء والتذمر الفردي، أن كان الناس يعيشون وإلى جوارهم على مدى الدهر كله الفقراء، بيد أن هذا الشقاء والتذمر كان موزعًا متناثرًا. فأصبح من ثم همهمة لا تصل إلى الآذان.

وكان لعوام الناس في الفترة السابقة فكرة يتبلورون حولها وهي فكرة الشيوعية المسيحية. وقد وجدوا في أمثال ويكليف من القساوسة والعلماء المنشقين قيادة مثقفة وإذ إن الحركة الداعية إلى نهضة في المسيحية استنفدت قوتها، وإذ إن العقيدة اللوثرية نكصت في زعامتها عن يسوع الناصري إلى الأمراء البروتستانت، فقد نضب معين ذلك التماسّ والتفاعل الذي تهيأ بين الأذهان الجديدة للطبقة المتعلمة وبين الأذهان الأمية. ومهما تبلغ ضخامة عدد الطبقة المهيضة الجانب، ومهما يبلغ التطرف بشقاوتها، فلن يكون في إمكانها القيام باحتجاج فعال حتى تصل إلى التكتل بواسطة تكوين فكرة عامة تجمع شمل أفرادها. فإن أصحاب الأفكار من متعلمي الرجال والنساء ألزم وأشد ضرورة لأية حركة سياسية شعبية منهم إلى أية عملية سياسية أخرى. فإن الملكية تتعلم الحكم عن طريق الحكم، وإن للأوليجركية – من أي طراز كانت – لتعليمًا تتلقاه من إدارتها للشئون؛ ولكن ليس لدى الرجل العامي وأعني به الفلاح أو الكادح أي تجربة في الشئون الكبيرة، فهو لا يستطيع أن يعيش سياسيًا بغير خدمات المتعلمين وإخلاصهم وإرشادهم. فالإصلاح الديني، أي الإصلاح الديني الذي نجح ووفّق، وأعني به الإصلاح الديني للأمراء، قد قضى بتحطيمه للوسائل والفرص التعليمية على العالم الفقير وطبقة القسوس قضاء كبيرًا وهم الذين جعلوا الإصلاح ممكنًا بإقناعهم الجمهور.

هذا ولم يفت أمراء الأقطار البروتستنتية أن يدركوا منذ البداية أي عندما استولوا على الكنائس الوطنية، ضرورة الاستحواذ على الجامعات أيضًا. وكانت فكرتهم عن التعليم هي فكرة الاستيلاء على أذكياء الشبان واستخدامهم في خدمة سادتهم. وكان التعليم يعد عندهم فيما وراء ذلك شيئًا ضارًا. وعلى ذلك لم يبق للفقر إلا وسيلة واحدة للتعلم هي الاستعانة بنصير يأخذ بيده. وبدهي أن جميع الملكيات العظمى كانت تشجع التعليم بطريقة هي بالمهرجانات أشبه، ففيها أقيمت الأكاديميات والجمعيات الملكية، ولكن هذه الأوضاع لم تفد إلا طبقة صغيرة من العلماء الخاضعين، وكانت الكنيسة كذلك تعلمت ألا تثق في المتعلم الفقير. كذلك حدث في الجمهورية العظيمة الأرستقراطية المتوجة في بريطانيا، نفس التناقص في الفرص التعليمية. ويقول هاموند في بيانه عن القرن الثامن عشر: "إن كلا من الجامعتين القديمتين، كانت للأغنياء. وهناك فقرة في

ماكولي تصف حالة أكسفورد وما كانت عليه من بذخ وأبهة عند مختتم القرن السابع عشر، "عندما جلس مديرها الدوق أورموند الوقور في ثيابه الموشاة على عرشه تحت السقف المنقوش في المسرح الشلدوني (١)، يحيط به مئات من المتخرجين كل في ثياب رتبته، على حين كان يقدم إليه أنبل شبان إنجلترة في دعة ووقار بوصفهم طلابًا لدرجات الشرف العلمية. لقد كانت الجامعة قوة، لا بالمعنى الذي يمكن أن تقال به تلك الكلمة عن جامعة مثل جامعة باريس القديمة، التي كان العلم فيها يستطيع أن يجعل البابوات يرتعدون فرقًا، بل بالمعنى القائل بأن الجامعة كانت جزءًا من الجهاز الأرستقراطي المعترف به. وما كان يصدق عن الجامعات، كان يصدق عن المدارس العامة (٢). فلم يكن التعليم في إنجلترة مهد مجتمع، بل مهد هيئة من الناس، وليس مهد دولة، بل مهد جنس من الحكام الملاك". وكانت روح التبشير الديني قد فارقت التعليم في كل أرجاء أوربا. وإلى هذا، بل وأيضًا إلى تحسن الأمور بانتشار الرخاء، ينسب طور الاستسلام هذا الذي ران على الطبقات الدنيا. فإنهم فقدوا عقولهم وألسنتهم، وكان الطعام يقدم إليهم وكفى. وكان المجتمع أشبه شيء بحيوان مسلوب الحيوية في أيدي الطبقة الحاكمة.

وفضلاً عن ذلك فقد دخلت تغييرات جسيمة على ما بين الطبقة والطبقة من تناسب. ومن أشق الأمور التي على المؤرخ أن يقفوها في مجتمع ما، تقدير القيمة النسبية للأملاك الكلية، التي تملكها في أي وقت أية طبقة خاصة في ذلك المجتمع. فإن هذه الأمور تتقلب تقلبًا سريعًا جدًا. وتدل حروب الفلاحين في أوربا على دور تركز نسبي للأملاك في أيدي قلة من الناس بينما تشعر جماهير من الناس أنها قد شردت عن أملاكها وشملت حالة من السوء مشتركة. وبذلك تنتهج خطة العمل الجمعي. كان هذا هو الزمان الذي تسنمت فيه أسرة الفوجر (٣) وأمثالها مراقي الرفعة والرفاهية، وهو زمان مالية دولية. ويبدو أنه قد صاحب الاستيراد الهائل للذهب والفضة والسلع إلى أوربا من أمريكا، عودة لحالة ثراء أوسع انتشارًا بين الأفراد. وكان الفقراء على حالهم التي هم عليها من الشقاء والتعاسة، ولكن لعله لم يكن هناك فقراء بمثل العدد الأول نسبيًا، كما أنهم كانوا مقسمين إلى أضرب عديدة من الطوائف التي لا تجمعها فكرات مشتركة. فأما في بريطانيا العظمى، فإن الحياة الزراعية التي فككها وزلزل أركانها مصادرات الأملاك إبان الإصلاح الديني، قد استقرت من جديد في نظام زراعة المستأجرين يعيشون من دون ملاك للأراضي عظام. وإلى جوار هذه المزارع الكبيرة، كان ما يزال يوجد أراض كثيرة مشاعة لرعي سائمة القرويين الأفقرين، كما كان هناك أراض كثيرة تزرع قطعًا على أساس الملكية المشتركة للمجتمع. فأما الرجل المتوسط الحال، وحتى النوع الأفقر منه من الرجال المرتبطين بالأرض، فكانوا يعيشون عيشًا مطاقًا مقبولاً في (١٧٠٠). فإن مستوى الحياة وأعني به فكرة ما قد يطاق من العيش، كان مع ذلك في ارتفاع أثناء مستهل عهد الملكية العظمى.

---

(١) المسرح الشلدوني: نسبة إلى جلبرت شلدون رئيس أساقفة كانتر بري في ١٦٦٣ بناه على نفقته بأكسفورد وقد صممه المهندس رن. (المترجم).

(٢) المدارس العامة Public Schools: هي المدارس الثانوية. (المترجم).

(٣) أسرة فوجر Fuggers: أسرة سوابية من التجار كانت تعيش في أوجزبرج وبلغ من ثرائها أن كانت تنفق أحيانًا على حملات ملوك ألمانيا العسكرية. (المترجم).

وبعد انقضاء آن من الزمان، تبدو عملية تركز الثروة واتجاهها إلى أعلى وكأنما قد استؤنفت. فإن مُلاك الأراضي العظام أخذوا يضعون أيديهم على الأراضي ويطردون الزراع الأحرار الأفقرين زرافات، وتزايدت من جديد نسبة الفقراء ونسبة القوم الذين كانوا يشعرون بأنهم يعيشون حياة من يحل بهم الفقر. وكان أكابر الرجال هم حكام بريطانيا العظمى الذين لا ينازعهم منازع، فنصبوا أنفسهم لإصدار قوانين – هي قوانين السياجات (The Enclosure Acts) – وهي التي كادت تفضي إلى مصادرة الأراضي غير المسوّجة والأراضي المشاع، لمصلحة كبار ملاك الأراضي قبل كل إنسان. وانحدر صغار الرجال إلى مرتبة الأجراء كاسبي الأجور بعرق الجبين في الأراضي التي كانوا يملكون فيها في أحد الأيام حق الفلاحة والرعي.

ولم يصل الفلاح في فرنسا وأوربا عامة إلى مثل هذه الدرجة من الحرمان من ممتلكاته. فلم يكن عدوه هو صاحب الأرض بل الجابي؛ فكان يُدفع إلى أرضه دفعًا بدل أن يدفع إلى خارج أراضيه.

ومع مضي العهد بالقرن الثامن عشر يتضح لنا من أدب ذلك الزمان، أن معالجة شأن "الفقير" عادت فشغلت أذهان الناس ثانية، فإنا نجد كتابًا من متوقدي الأذهان بين الإنجليز من أمثال ديفو (١٦٥٩ – ١٧٣١) وفيلدنج (١٧٠٧ – ١٧٥٤)، يفكرون أعمق التفكير في هذه المسألة. ولكن لم يحدث حتى ذلك الحين انتعاش للفكرات الداعية إلى الشيوعية والمساواة الموجودة في المسيحية البدائية. شأن ما كان يميز أزمان ويكليف وهس (Huss). فالبروتستانتية عند تمزيقها للكنيسة العامة، مزقت ردحًا من الزمان فكرة التماسك العام، وحتى لو صح أن الكنيسة العامة في القرون الوسطى فشلت فشلاً تامًا في تحقيق تلك الفكرة، فإنها كانت على كل حال رمزها.

وكان ديفو وفيلدنج رجلين أوتيا خيالاً عمليًا أشد نشاطًا من خيال جيبون، فأدركا شيئًا من العمليات الاقتصادية التي كانت قائمة على قدم في زمانهما، وكذلك شأن أوليفر جولد سميث (١٧٢٨ – ٧٤)؛ فإن قصيدته "القرية المهجورة" (١٧٧٠) ليست إلا منشورًا في موضوع السياجات متنكرًا في زي قصيدة. ولكن ظروف جيبون لم تظهر قط الحقائق الاقتصادية أمام ناظريه ظهورًا ناصعًا جدًا. فإنه كان يرى العالم في صورة كفاح بين التبربر والمدنية، على أنه لم يدرك شيئًا من ذلك النزاع الآخر الذي كان (جيبون) يطفو فوقه، وهو ذلك الكفاح الصامت غير المدرَك، كفاح عامة الناس ضد الرجال القادرين الأقوياء الأثرياء الأنانيين. فلم يدرك تجمع عوامل الضغط التي أوشكت للفور أن تعصف بكل التوازن القائم بين "ممالكه الاثنتي عشرة القوية غير المتعادلة" أعني بين "إمبراطورياته المحترمة الثلاث" وما حولها من السفلة والزعانف من أصاغر المستقلين من الأمراء والأدواق الحكام ومن إليهم. وحتى الحروب الأهلية التي ابتدأت في المستعمرات البريطانية بأمريكا، لم توقظه إلى إدراك قرب نشوء ما نسميه اليوم "بالديمقراطية".

وقد يظن القارئ مما ظللنا نقوله حتى الساعة عن دفع الملاك العظام للمزارع الصغير والفلاح إلى خارج الأراضي، وعن اختطاف أرض المشاع وتركيز العقار في أيدي طبقة قوية شرهة ذات امتيازات، أن ذلك كان كل ما يحدث في الأراضي الإنجليزية في القرن الثامن عشر – إذ الواقع أنا اقتصرنا على ذكر أسوأ نواحي التغيير. وفي نفس الوقت الذي كان يحدث فيه هذا التغيير في الملكية، كان يحدث تقدم عظيم في

الزراعة. وليس هناك إلا القليل من الشك في أن طرائق الفلاحة التي يستخدمها الفلاحون وواضعو اليد على الأرض والمزارعون الصغار، كانت طرقًا عتيقة بالية مضيعة للجهد وغير منتجة نسبيًا، وأن الملكيات والمزارع الخاصة الكبرى التي خلقتها قوانين السياجات كانت أكثر إنتاجًا بكثير من الطرق القديمة (يقول حجة من الثقات إنها كانت تنتج عشرين ضعفًا). فلربما كان التغير أمرًا ضروريًا، على أن ما فيه من الشر لم يكن راجعًا إلى حدوثه، بل إلى أنه إنما حدث لكي يزداد الأثرياء ثراء والفقراء عددًا. أما منافعه فإن المالك الخاص الأكبر قطع الطريق دونها مختصًا بها نفسه. فوقعت المضرة على المجتمع وإن استفادت هذه الطبقة الفائدة العظمى.

وهنا نبلغ واحدة من أعظم مشكلات حياتنا في الزمن الحاضر، وهي مسألة انحراف ثمار التقدم ومكاسبه عن طريقها الطبيعي. فقد انقضت مئات من السنين – ظهر فيها بتأثير العلم والبحث بوجه رئيسي، تحسن متواصل في طرائق إنتاج كل شيء تقريبًا تحتاج إليه الإنسانية. فلو أن إحساسنا بالجماعة وعلمنا الاجتماعي كانا معادلين للواجبات المفروضة عليهما، فلن يكون هناك أدنى شك في أن هذه الزيادة الكبيرة في الإنتاج، كانت تعود بالنفع على المجتمع بأكمله، وكانت تتيح لكل فرد قدرًا من التعليم ووقت الفراغ والحرية لم تحلم الإنسانية قط بمثله من قبل. ولكن على الرغم من أن مستوى المعيشة العام قد ارتفع، فإن الارتفاع تم بمعيار صغير غير مناسب إذ إن الأغنياء طوروا لأنفسهم حرية وترفًا لم يعهدهما العالم من قبل، كما تزايدت نسبة الأغنياء والخاملين من الناجحين وغير المنتجين في المجتمع؛ على أن هذا يفشل في تعليل النفع الكامل المستفاد. إذ حدث ثمة كثير من المضيعة التي لا فائدة تجنى من ورائها، فإن تجمعات هائلة من المادة والطاقة قد أنفقت في الحرب والاستعداد لها. وكرس شيء كثير من الجهد في سبيل تلك الجهود غير المجدية، التي تنفق في المنافسة الفاشلة في الأعمال التجارية. وظلت إمكانيات كثيرة بلا تطوير وتنمية بسبب ما أبداه الملاك ومحتكرو السوق والمضاربون من معارضة لاستغلالها الاقتصادي. ولم تتناول الطيبات التي ظل العلم والتنظيم يقربانها إلى متناول يد الإنسانية – تناولاً منهاجيًا [1] ولم تستعمل إلى أقصى حدودها، ولكن تخاطفتها الأيدي وتجاذبتها الأصابع – واستمسك بها المغامرون المقامرون واستخدمت لغايات أنانية تمتّ إلى الغرور بسبب. وكان القرن الثامن عشر في أوربا وبوجه أخص في بريطانيا العظمى وبولندة عصر الملكية الخاصة. وكان القدح المعلى فيه "للمسعى الخاص" [2] الذي معناه في الممارسة العملية أن لكل فرد الحق في الحصول على كل شيء يستطيعه من أشغال المجتمع. ولسنا نعثر في الروايات العادية والمسرحيات وما إليها من الأدب الممثل للزمان على أي إحساس بالتزام الأفراد بأي شيء نحو الدولة في شئون الأعمال. إذ إن كل إنسان منطلق "لتكوين ثروته"، وليس هناك من يدرك أن من الخطأ أن يظل الإنسان طفيليًا على المجتمع غير منتج، وأقل من هذا أن يشعر مالي أو تاجر أو صاحب صناعة، أنه يتناول لقاء خدماته للإنسانية أجرًا أكثر مما ينبغي. كان ذلك هو جو الزمان الخلقي. وهؤلاء اللوردة والجنتلمانية الذين

---

(1) منهاجيًا Methodically: أي متبعًا للترتيب المنطق في البحث العلمي. (المترجم).

(2) المسعى الخاص أو الجهد الفردي Private Enterprise: جهود الأفراد في التجارة والأعمال الحرة. (المترجم).

كانوا يختطفون أرض الشعب المشاع، يفترضون امتلاك المناجم التي تحت أراضيهم، ويحطمون صغار المزارعين الملاك [1] والفلاحين حتى يصلوا إلى مرتبة الأجراء المعدمين ولم تكن تخامرهم بعد هذا كله أية فكرة إلا أنهم إنما يعيشون عيشاً جديرًا تمامًا بكل كرامة واستحقاق.

وكان يساير هذا التغيير في بريطانيا العظمى، أعني هذا الانتقال من فلاحة الرقاع التقليدية والمراعي المشتركة إلى الزراعة الكبيرة الأكثر اعتمادًا على العلم – تغيرات عظيمة جدًا في صناعة السلع. وكانت بريطانيا العظمى في القرن الثامن عشر زعيمة العالم في تلك التغيرات. فحتى ذلك الحين وعلى مسار التاريخ أجمع منذ بداية المدنيات، كانت المصنوعات والمباني والصناعات في أيدي أرباب الحرف على وجه العموم وفي أيدي صغار المعلمين (الأسطوات) الذين كانوا يشتغلون في بيوتهم الخاصة. وكانت تنظمهم نقابات، وهم في معظم الأمر سادة أنفسهم وأصحاب أعمالهم. فكانوا يكونون طبقة وسطى جوهرية مستديمة لها وزنها. وكان بينهم الممولون الذين كانوا يخرجون الأنوال وما إليها، ويزودون غيرهم بالخدمات، ويأخذون السلعة التي تتم، على أنهم لم يكونوا ممولين كبارًا. فلم يكن هناك أصحاب مصانع أغنياء، بل كان أغنياء العالم قبل ذلك الزمان هم أصحاب الأراضي العظام أو مسلفو النقود أو الممارسون لشئون النقود أو التجار. ولكن حدث في القرن الثامن عشر أن بدأت طريقة جديدة هي تجميع صناعات بعينها رغبة في إنتاج أشياء بمقادير أكبر بطريقة توزيع نظامي للعمل، وشرع صاحب العمل مميزًا من المعلم (الأسطى) في أن يكون شخصًا هامًا. زد على ذلك أن الاختراعات الآلية أخذت تنتج الآلات التي تسهل عمل الإنتاج اليدوي وتبسطه، والتي كان في الإمكان دفعها بقوة الماء ثم للفور بقوة البخار. إذ ركبت في (١٧٦٥) آلة وات Watt البخارية، وهو تاريخ عظيم الأهمية في تاريخ الحركة الصناعية. وكانت صناعة القطن من أوائل الصناعات التي تحولت إلى الإنتاج في المصانع (وكان ذلك في الأصل بواسطة آلات تدفعها المياه) وتلا ذلك صناعة الصوف. وفي نفس الوقت لجأت صناعة صهر الحديد إلى فحم الكوك المصنوع من الفحم الحجري وكانت حتى ذلك الحين تقتصر على أساليب صغيرة تعتمد على الفحم النباتي. وابتدأت صناعات الفحم والحديد كذلك في الانتشار. وانتقلت صناعة الحديد من أرض ساسكس (Sussex) وسري (Surrey) المليئة بالغابات إلى مناطق الفحم. ولما وافت (١٨٠٠) كان هذا الانقلاب في الصناعة قد سار شوطاً صالحًا وانتقل بها من الإنتاج الصغير بما يصحبه من أصحاب الأعمال الصغار إلى الإنتاج الكبير في كنف أصحاب أعمال كبار. فنشأت في كل مكان مصانع استعملت الماء بادئ بدء ثم ثنّت بقوة البخار. كان تغيرًا ذا أهمية جوهرية في الاقتصاد البشري. ومنذ فجر التاريخ كان صاحب المصنع وصاحب الحرفة كما قلنا نوعًا من أهل المدن أبناء الطبقة المتوسطة.

فالآن حلت محل مهارته الآلة وصاحب العمل، فأما هو فإنه أصبح إما صاحب عمل يستخدم إخوانه، ويرقى درجات الغنى إلى حد التساوي بالطبقات الفنية الأخرى، أو ظل صانعًا وانحط سريعًا إلى مستوى

---

[1] صغار المزارعين الملاك Yeomen: وكانت ملكيتهم مدى حياتهم فقط أو تتوارث بقيود. (المترجم).

العامل الأجير، ويعرف هذا التغير العظيم في الشئون الإنسانية باسم الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية. وقد بدأ ذلك الانقلاب في بريطانيا العظمى وظل ينتشر طيلة القرن التاسع عشر إلى العالم أجمع.

ومع تقدم الزمن بالثورة الصناعية، انفتحت هوة عظيمة بين صاحب العمل المستخدم لغيره والعامل المستخدم الأجير ففي الماضي كان كل عامل "منتج" يمني النفس بأن يصبح يومًا ما معلما (أسطى) مستقلاً. وبلغ الأمر بأصحاب الحرف الأرقاء في بابل وروما أن كانت تحميهم قوانين كانت تمكنهم من ادخار المال وشراء حريتهم وإقامة عمل مستقل لأنفسهم. أما الآن فقد أصبح المصنع وعدده وآلاته شيئًا ضخمًا باهظ النفقة، بالقياس إلى قدرة الصانع المالية. ولذا صار لزامًا على الأغنياء أن يجتمعوا لينشئوا مشروعًا. وكان الائتمان ومعدات المصنع وأعني بهما "رأس المال" لازمين مطلوبين. ولم تعد إقامة الصانع "عملاً مستقلاً بنفسه" مطمحًا طبيعيًا لمهرة الصناع. ومن ثم أصبح العامل منذ ذلك الحين عاملاً من مهده إلى لحده. ونشأت عند ذاك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجار والماليين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة، نشأت عند ذاك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجار والماليين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة، نشأت عند ذاك هذه الثورة الناتجة من رأس المال الصناعي – وهي ضرب جديد من القوة في الدولة.

وإنا لمحدثوك عما قليل، كيف نهضت تلك البدايات حتى بلغت تمامها. وكان الأثر المباشر للثورة الصناعية فيما حلت به من أقطار، أن أحدثت انتقالاً أليماً وهزة عظيمة بين عوام السكان الصامتين غير المتعملين الذين لا زعيم لهم والذين أصبحوا الآن محرومين من الأملاك حرمانًا يتزايد أكثر فأكثر. فأما صغار المزارعين والفلاحين – وقد قضت عليهم قوانين السياجات وأخرجتهم من أراضيهم – فإنهم انتقلوا إلى المناطق الصناعية الجديدة، وهناك انضموا إلى عائلات أصحاب الحرف الذين عضتهم الفاقة وانحطت مكانتهم في المصانع. وظهرت في الوجود مدن كبيرة مكونة من منازل قذرة. وما نخال أن إنسانًا لاحظ في وضوح، ماذا كان يجري في ذلك الزمان. فالفكرة الأساسية لأرباب مذهب "المسعى الخاص" هي أن يلزم كل امرئ شأنه، وأن يحصل على أقصى ربح في مستطاعه، وأن يغفل كل ما عدا ذلك من عواقب. ونمت مصانع قبيحة الشكل، بنيت بأرخص ما يمكن من نفقة، لتضم أكبر عدد ممكن من الآلات والعمال. وتجمعت حولها شوارع تحوي منازل العمال، وقد بنيت بأرخص الأسعار، دون أي اتساع ودون أي انفصال عن الجيران، ودون أي مظهر من مظاهر اللياقة والاحتشام تقريبًا، مع تأجيرها للعمال بأقصى إيجار يمكن تحتيمه عليهم. وكانت هذه المراكز الصناعية الجديدة، بلا مدارس ولا كنائس بادئ الأمر.

وكان الجنتلمان الإنجليزي الذي عاش في الهزيع الأخير من القرن الثامن عشر يقرأ السفر الثالث من جيبون ثم يقبل على نفسه بالتهنئة لأنه لم يعد يوجد منذ ذلك الحين أي خوف خطير من الهمج المتبربرين، على حين أنه على قيد بضع خطوات من باب منزله كانت هذه الهمجية الجديدة تشب وتنمو، كما كان هذا التحول، الذي كان يحيل أبناء وطنه شيئًا حالكًا معتمًا لا رجاء فيه، يسير بأشد قوة وأقصاها.

الفصل الخامس والثلاثون

الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا

١- متاعب نظام الدولة العظمى.

٢- المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها.

٣- الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضًا.

٤- حرب الاستقلال.

٥- دستور الولايات المتحدة.

٦- المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة.

٧- الفكرات الثورية في فرنسا.

٨- ثورة سنة ١٧٨٩.

٩- الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ – ٩١.

١٠- ثورة اليعاقبة.

١١- جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ – ١٧٩٤.

١٢- حكومة الإدارة.

١٣- توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية.

١ – متاعب نظام الدولة العظمى

عندما كان جيبون يهنئ منذ قرن ونصف من الزمان عالم الأناسي المهذبين المتعلمين بأن عصر الكوارث السياسية والاجتماعية قد ولّى، كان يهمل دلالات كثيرة كنا نستطيع بعد أن مرت بنا أحداث التاريخ وحقائقه الواقعة – أن نخبره بأنها تحمل في طياتها النذر بهزات وتقلقلات أفدح ثقلاً من أي شيء توقعه. ولقد خبرناك كيف أن كفاح أمراء القرنين السادس عشر والسابع عشر من أجل الرفعة والمنافع تطور إلى كفاح أكثر مكرًا ودهاء وأشد تعقدًا بين وزارات الخارجية، وهي في ثياب تنكرية تتشكل فيها شكل "الدول العظمى" وتتخذ منها معبودات ومثلاً عليا مع تقدم العهد بالقرن الثامن عشر. وتطور فن الدبلوماسية المعقد العريض الدعاوى. ولم يعد "الأمير" متآمرًا ميكيافلليًا يعمل في الخفاء، وأصبح مجرد الرمز المتوج لخطة ميكيافللية. فانقضت بروسيا والروسيا والنمسا على بولندة واقتسمتها. وتورطت فرنسا في تدابير عميقة ضد إسبانيا. وخاتلت بريطانيا "خطط فرنسا" في أمريكا واستحوذت على كندا. وتفوقت على فرنسا في الهند. عند ذلك حدث أمر جلل، أمر عدته الدبلوماسية الأوربية مزعجًا جدًا. فإن المستعمرات البريطانية في أمريكا رفضت رفضًا باتًا أن يكون لها بعد ذلك أي دور أو نصيب في لعبة "الدول العظمى" هذه. إذ إنهم دفعوا بأنهم قوم ليس لهم صوت ولا مصلحة كبيرة في هذه الخطط والمنازعات الأوربية، ورفضوا أن يتحملوا أي نصيب من عبء الضرائب التي تجرها تلك السياسات الخارجية، وكانت الفكرة المتسلطة عليهم هي أن "الضرائب بلا تمثيل نيابي استبداد وطغيان".

وغني عن البيان أن هذا العزم على الانفصال لم يتفجر كاملاً سويّ الخلْق من العقل الأمريكي منذ بداية هذه المتاعب. فقد كان الرجال العاديون في أمريكا في القرن الثامن عشر مثلما كانوا في إنجلترة في القرن السابع عشر، في رضاء تام بل رغبة أكيدة في الواقع في ترك الشئون الخارجية في يد الملك ووزرائه. ولكن كانت هناك رغبة تعادل هذه في القوة من جانب الرجال العاديين أنفسهم هي ألا تقرر عليهم الضرائب ولا يتدخل في شئون اتجاهاتهم العادية متدخل. ولكن هاتين الرغبتين متعارضتان. فإن الرجال العاديين لا يستطيعون أن يتنصلوا من السياسة العالمية وأن يستمتعوا في نفس الوقت بالحرية الخاصة، ولكن تعلمهم هذه الحقيقة اقتضاهم أجيالاً لا تقع تحت حصر. وعلى ذلك فإن أول ما ظهر من اعتراض في العصيان الأمريكي على حكومة بريطانيا، كان مجرد تذمر من الضرائب، ومن التدخل الذي تبع بالضرورة "السياسية الخارجية" دون أي تمييز واضح لما كان ينطوي عليه ذلك الاعتراض. ولم يحدث إلا عندما بلغ العصيان ذروته، أن سكان المستعمرات الأمريكية ميزوا حقًا تمييزًا واضحًا أنهم رفضوا وجهة نظر "الدولة العظمى" في الحياة. وكانت العبارة التي عبرت عن ذلك الرفض هي وصية واشنجتون "بتجنب المخالفات المورطة". ومن ثم فإن المستعمرات البريطانية المتحدة بأمريكا الشمالية ظلت قرنًا كاملاً وقد تحررت واستقلت تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية – بمنآة تامة عن المؤامرات والمنازعات الملطخة بالدماء بين وزارات الخارجية الأوربية. وسرعان ما استطاعوا بعد (١٨٠١ إلى ١٨٢٣) أن يمدوا مبدأهم الانفصالي إلى سائر أجزاء القارة، أو يجعلوا العالم الجديد أجمع "محظورًا" على من في العالم القديم من أصحاب مؤامرات

فهرس

التوسع الاستعماري ومدبري خططه. وعندما اضطروا آخر الأمر في ١٩١٧ أن يدخلوا ثانية إلى مجتلد [1] السياسة العالمية، كان هدفهم من ذلك أن يزجوا في معقدات العلاقات الدولية، بالروح الجديدة والأغراض الجديدة اللواتي مكنهم ترفعهم من تطويرها. على أنهم لم يكونوا مع ذلك أول من ترفع. فمنذ معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) حافظت ولايات سويسرا الاتحادية في معاملتها الجبلية على حقها في الانعزال عن خطط الملوك والإمبراطوريات.

ولكن لما كانت شعوب أمريكا الشمالية مقدمة الآن على القيام بدور في تاريخنا تتزايد أهميته، فإن من الخير أن نقسم لهم من عنايتنا قسمًا أوفى قليلاً مما قسمناه لتطورهم حتى الآن. ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى هذه القصة في القسم العاشر من الفصل السابق. ولسوف نزيدك من فورنا إيضاحًا – وإن كان ذلك في حدود أبسط المعالم – عن أحوال تلك المستقرات، التي كان عنادها سببًا في تلك المضايقة لملك بريطانيا العظمى ووزرائها في لعبتهم السياسية ضد سائر بني الإنسان.

[1] المجتلد (Arena): هو حلبة المباراة والمنازلة عند الرومان. (المترجم).

٢- المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها

تبين الخريطة المرافقة امتداد المستعمرات البريطانية في أمريكا في النصف الأول من القرن الثامن عشر. والتظليل الأقتم يمثل المناطق التي سكنت في ١٧٠٠، ويمثل التظليل الأخف نمو المستعمرات (المستقرات) إلى ١٧٦٠. وسيرى القارئ أن المستعمرات كانت مجرد حافة من السكان على طول الساحل، تمتد إلى الداخل شيئاً فشيئاً وتعترض سبيلها جبال ألكيجاني والجبال الزرقاء حتى لتعد حاجزًا خطيرًا جدًا. ومن أقدم هذه المستقرات مستعمرة فرجينيا، التي يخلد اسمها ذكرى الملكة إليزابث، ملكة إنجلترة العذراء. وأول حملة لإنشاء مستعمرة بفرجينيا قام بها السيد والتر رالي في ١٥٨٤، ولكن ذلك الزمان لم يكن يتم فيه استقرار مستديم، ومن ثم ترجع بدايات فرجينيا الحقيقية إلى يوم تأسيس الشركة الفرجينية في ١٦٠٦، إبان حكم جيمس الأول (١٦٠٣ – ١٦٢٥). وإن قصة جون سميث ومؤسسي فرجينيا الأوائل وكيف تزوجت الأميرة الهندية بوكاهونتاس من أحد رجاله الأماثل لتشكل قطعة أدبية كلاسيكية هي "رحلات جون سميث" [١]. ولقي الفرجينيون أول بوادر اليسار في زراعتهم الطباق. وفي نفس الوقت الذي تأسست فيه الشركة الفرجينية، حصلت شركة بليموث على مرسوم يخول لها الاستقرار في الأراضي الواقعة إلى الشمال من "مضيق الجزيرة الطويلة [٢]" لونج أيلند التي ادعى الإنجليز ملكيتها. ولكن الناس لم يشرعوا يستقرون في المناطق الشمالية إلا في (١٦٢٠)، وذلك بموجب مراسيم جديدة. وكان المستعمرون في المنطقة الشمالية (نيوإنجلند) التي أصبحت كونكتي كتّ ونيوهمبشير ورود آيلاند وماساشوستس، رجالاً لهم طابع يخالف طابع الفرجينيين، فإنهم كانوا بروتستانت متذمرين مما أبدت الكنيسة الإنجيلية من موادعة، كما كانوا رجالاً ذوي روح جمهورية لا مأمل لديهم في مقاومة ملكية جيمس الأول أو شارل الأول العظمى. وكانت سفينتهم الأولى هي زهرة مايو May Flower التي أنشأ ركابها مدينة نيوبليموث في ١٦٢٠. وكانت أهم المستعمرات الشمالية هي ماساشوستس. وأدت الفوارق في الطرائق الدينية واختلاف الفكرات عن التسمح الديني إلى تفرقة المستعمرات الثلاث البيوريتانية الأخرى عن ماساشوستس. ومما يوضح المعيار الذي كانت تقوم عليه الأمور في تلك الأيام أن ولاية نيوهمبشير بأجمعها قد ادعى تبعيتها له شخص معين اسمه الكابتن جون ماسون، وأنه عرض أن يبيعها للملك (وهو الملك شارل الثاني في ١٦٧١) مقابل استيراده ثلاثمائة طن من النبيذ الفرنسي – معفاة من المكوس الجمركية – وهو عرض رفضه الملك. واشترت ولاية ماساشوستس ولاية مين Maine الحالية من مدعي ملكيتها بمبلغ ألف ومائتين وخمسين جنيهًا.

وفي إبان الحرب الأهلية التي انتهت بقطع رأس الملك شارل الأول، كانت عواطف نيوإنجلند منحازة إلى جانب البرلمان. وكانت فرجينيا من أنصار فرسان الملك، ولكن كان يفصل بين هاتين المستعمرتين [٣]

---

[1] John Smith's Travels

[2] Long Island Sound

[3] المستقرات والمستعمرات والمستوطنات: تستعمل هنا بمعنى واحد والمؤلف في الإنجليزية يستعمل كلمتي (Settlement. Colony) ولا تنطويان على معنى الاستعمار الحالي. بل على معنى الاستيطان والتعمير. (المترجم).

مائتان وخمسون ميلاً، ولذا لم يحدث بينهما احتكاك خطير. وصحب عودة الملكية في ١٦٦٠ تطور قوى في الاستعمار البريطاني بأمريكا. إذ كان بشارل الثاني ومن حوله من خلطاء شراهة للمال، فضلاً عن أن التاج البريطاني فقد راغمًا كل رغبة في أن يقوم بتجاريب أخرى لفرض الضرائب غير المشروعة في أرض الوطن. غير أن العلاقات غير المحددة بين المستعمرات وبين التاج والحكومة البريطانية لاح فيها بوادر بعض الأمل في القيام بمغامرة مالية وراء المحيط الأطلسي. فحدث تطور سريع في المزارع الواسعة الرقعة وفي مستعمرات الملاك. وكان اللود بالتيمور أقام قبل ١٦٣٢ مستعمرة لتكون للكاثوليك ملجأ يستمتعون فيه بالحرية الدينية تحت الاسم الجذاب ماري لاند، إلى الشمال وإلى الشرق من فرجينيا. وعندئذ اسد تقر "بِن" الكويكري (الذي أدى والده لشارل الثاني خدمات جليلة) إلى الشمال من فيلادلفيا وأنشأ مستعمرة بنسلفانيا. وقد حدد تخومها الرئيسية مع ماري لاند وفرجينيا، رجلان هما ماسون وديكسون، اللذان قدر لخطهما "خط ماسون وديكسون" أن يكون بالفعل خط تقسيم هامًا جدًا فيما تلا ذلك من شئون الولايات المتحدة. ومن قبل ذلك سقطت كارولينا في أيدي الإنجليز فسكنوها في جهات متعددة. وكانت كارولينا هذه في الأصل مؤسسة فرنسية بروتستانتية غير ناجحة، وكانت تدين باسمها لا لشارل الثاني (كارلوس) ملك إنجلترة، بل لشارل التاسع الفرنسي. وكان يمتد بين ماري لاند ونيوإنجلند عدد من المستعمرات الصغيرة الهولندية والسويدية، كانت المدينة الرئيسية فيها هي نيوأمستردام. وقد استولى البريطانيون على هذه المستعمرات من الهولنديين في ١٦٦٤، ثم خسروها مرة ثانية في ١٦٧٣، واستعيدت بالمعاهدة التي أبرم بها الصلح بين هولندة وإنجلترة في ١٦٧٤. وبهذا غدا الساحل كله من مين إلى كارولينا (مملكة بريطانية بطريقة ما أو بأخرى). وكان الإسبان مستقرين إلى الجنوب؛ وكان مقرهم الأكبر في قلعة سانت أوغسطين في فلوريدا، وفي ١٧٣٣ سكن مدينة سافانا رجل محب للإنسانية هو "أوجلي ثورب" الإنجليزي، وقد مست قلبه الرحمة بالفقراء المسجونين وفاء لدينهم في إنجلترة، ومن ثم أنقذ من السجن عددًا منهم فأصبحوا مؤسسي مستعمرة جديدة، هي جورجيا التي أصبحت حصناً منيعًا يقف في وجه الإسبان. ومن ثم نجد عند منتصف القرن الثامن عشر هذه المستقرات ممتدة بإزاء الساحل الأمريكي وهي: مجموعة نيوإنجلند المكونة من البيوريتاذ ة والبروتستانت الأحرار، وهي: – مين (التابعة لماساشوستس)، ونيوهمبشير وكونكتيكت ورود أيلاند وماساشوستس؛ والمجموعة المنتزعة من الهولنديين التي كانت انقسمت آنذاك إلى نيويورك (وهو الاسم الجديد لمدينة نيوأمستردام) ونيوجرسي وديلاوير (وكانت سويدية قبل أن تصبح هولندية، وألحقت في أبكر أدوار تبعيتها البريطانية بينسلفانيا) ثم جاءت ماري لاند الكاثوليكية، وفرجينيا الفرسانية، وكارولينا (التي قسمت للوقت إلى شمالية وجنوبية) ثم جورجيا ومنشأة أوجلي ثورب. ثم التجأ إلى جورجيا بعد ذلك عدد من البروتستانت التيروليين، وهاجرت إلى بنسلفانيا أعداد ضخمة من طبقة صالحة من الزراع الألمان.

تلك هي الأصول المخلطة لمواطني المستعمرات الثلاث عشرة. ولا بد أن قيام أية وحدة وثيقة فيما بينها في يوم من الأيام كان يبدو في عين أي امرئ غير متحيز يراقب الأمور في ١٧٦٠ احتمالاً ضعيفًا جدًا. ومما زاد الأمر سوءًا أن اجتمع إلى الفوارق السابقة فروق أخرى ولّدها المناخ. فإلى الشمال من خط ماسون ديكسون كانت الزراعة تمارس على أساس القواعد المتبعة في بريطانيا وأوربا الوسطى وعلى يد

زراع أحرار من البيض. واكتست المنطقة المسكونة في نيوإنجلند بثوب مشابه للريف الإنجليزي؛ ونشأت في مساحات مترامية من بنسلفانيا حقول ودور ريفية تشبه ما في جنوب ألمانيا. وكانت للظروف المميزة في الشمال آثار هامة من الناحية الاجتماعية. إذ كان لزامًا على السادة ورجالهم أن يعملوا يدًا ليد بوصفهم سكان غابات خلفية [1] فتمت التسوية بينهم أثناء ذلك. أجل إنهم لم يبدءوا العمل متساوين. فإن قائمة السفينة "ماي فلاور" تحوي أسماء كثير من الخدم ولكنهم سرعان ما أصبحوا متساوين جميعًا في ظل ظروف المستعمرات؛ فكان هناك – مثلاً – متسع عظيم من الأرض يمكن امتلاكه بوضع اليد عليه، وكان الخادم ينطلق ويأخذ الأرض مثل سيده وهنا اختفى نظام الطبقات الإنجليزي. ونشأت في أكناف هذه المستعمرات مساواة "في ملكات كل من الجسم والعقل". وظهر استقلال فردي في الحكم على الأشياء تأخذه حمية الأنف لأي تدخل من جانب إنجلترة. ولكن ابتدأت زراعة الطباق إلى الجنوب من خط ماسون وديكسون، وكان المناخ الأدفأ مشجعًا على إنشاء المزارع الضخمة وما بها من مناسر العمال. فحاولوا بادئ الرأي استخدام الأسرى من الهنود الحمر ولكنهم وجدوا بهم ميلا شديدًا إلى سفك الدماء البشرية. وأرسل كرومويل أسرى الحرب الإرلنديين إلى فرجينيا، وهو أمر كان له أثره البالغ في استرضاء أفئدة المزارعين الملكيين على الجمهورية ومبادئها. وكان المحكوم عليهم يرسلون إلى هناك، واتسعت التجارة في الأطفال المخطوفين الذين كانوا "يرسلون خفية" إلى أمريكا لكي يصبحوا صبيانًا في صناعة [2] أو عبيدًا أرقاء. ولكن أثبتت الأيام أن أوفق شكل من أشكال مناسر [3] العمال إنما هو منسر العبيد الزنوج. وقد اجتلبت سفينة هولندية أول فوج من الزنوج إلى (جيمس تاون) من مدن فرجينيا في زمن مبكر يرجع إلى ١٦٢٠. ولما وافت ١٧٠٠ كان الأرقاء الزنوج منتشرين في كل أرجاء الولايات، بيد أن فرجينيا وماري لاند والكارولينتين كانت مناطق استخدامهم الرئيسية، وعلى حين كانت المجتمعات في الشمال مجتمعات من زراع غير كبيري الثراء وغير كبيري الفقر، فإن الجنوب طور طرازًا من المالك الكبير ومجتمعًا أبيض من المشرفين وأرباب الحرف يعيشون على العمال الأرقاء. فكان العمال الأرقاء ضرورة اقتضاها النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي نما في الجنوب، وكان وجود الأرقاء في الشمال أمرًا لا ضرورة له بل كان من بعض الوجوه أمرًا مزعجًا. لذلك وجدت اعتراضات أصحاب الضمائر الحية على الاسترقاق في جو الشمال مجالاً أرحب لتطورها وازدهارها. ولا بد لنا من عودة إلى هذه المسألة، مسألة انبعاث الرق من جديد، عندما نأخذ في التأمل فيما تتعرض له الديمقراطية الأمريكية من دواعي الارتباك. ونحن هنا إنما نلحظها في بساطة بوصفها عاملاً إضافيًا إلى ذلك الخليط المتنافر في المستعمرات البريطانية.

ولكن لئن كان سكان المستعمرات الثلاث عشرة أنواعًا شتى في أصولهم متخالفين في عاداتهم واتجاه عواطفهم، لقد كانت تجمعهم معًا خصومات ثلاث: فكانت لهم مصلحة مشتركة ضد الهنود الحمر. وتقاسموا

---

[1] الغابات الخلفية: أراضي غابات غير مزدرعة تقوم وراء الأرض المزروعة بمنأى من المدن والمستقرات. (المترجم).

[2] وهم الذين يعبر عنهم الآن باسم تلاميذ صناعيين. (المترجم).

[3] مناسر العمال Gang Labour: هي جماعات العمال التي تجمع لأداء عمل ما. (المترجم)

ردحًا من الزمان خوفًا مشتركًا من الفتح والسيادة الفرنسيين. وكانوا في الثالثة – مشتركين بأجمعهم في النضال ومدعيات التاج البريطاني والأنانية التجارية للأوليجركية الجشعة التي كانت تسيطر على البرلمان البريطاني والشئون البريطانية. فأما الخطر الأول وهو الهنود، فكان شرًا مستديمًا ولكنه لم يزد قط عن مجرد تهديد ينذر بالشر. إذ إنهم ظلوا منقسمين على أنفسهم. ومع ذلك فلقد ظهرت عليهم في بعض الأحيان احتمالات تبشر بالامتزاج وتوحيد الجهود على معيار كبير. فإن الشعوب الخمسة في عصبة القبائل الإيروكوازية (Iroquois) (راجع خريطة مستعمرات ١٧٦٠) كانت عصبة قبائل هامة جدًا. بيد أنها لم تنجح في حمل الفرنسيين على العمل ضد الإنجليز لكي تضمن لنفسها الأمان، ولم ينشأ بين مرتحلة العالم الجديد هؤلاء جانكيز خان هندي أحمر. وكان العدوان الفرنسي تهديدًا أخطر، ولم يقم الفرنسيون أبدًا بإنشاء مستعمرات في أمريكا على معيار ينافس المستقرات الإنجليزية. بيد أن حكومتهم اتجهت إلى تطويق المستعمرات وإخضاعها بطريقة منظمة مرعبة. كان الإنجليز في أمريكا مستعمرين مستوطنين، وكان الفرنسيون مرتادين ومغامرين، ووكلاء تجاريين ومبشرين وتجارًا وجنودًا. ولكنهم لم يرسوا لبنائهم أساسًا متينًا إلا في كندا. إذ إن رجال السياسة الفرنسيين كانوا يكبون على الخرائط ويطلقون لأحلامهم العنان. وإنك لواجد أحلامهم ماثلة في خريطتنا، في سلسلة القلاع المتسللة جنوبًا، من البحيرات العظيمة، وشمالاً في أعلى المسيسبي والأوهايو. وكان الكفاح بين فرنسا وبريطانيا كفاحًا شمل العالم أجمع. وقد فصل فيه في الهند وفي ألمانيا وعلى صفحة أعالي البحار [1]. ويصلح باريس (١٧٦٣) أعطى الفرنسيون كندا لإنجلترة، وتركوا لويزيانا لإسبانيا المتقوضة المشلولة اليدين. وكان معنى ذلك تخلى فرنسا تمامًا عن أمريكا. وبزوال هذا الخطر الفرنسي أصبح المستعمرون أحرارًا لا يعوقهم عائق عن مواجهة عدوهم الثالث المشترك: وهو تاج بلادهم الأصلية وحكومتها.

[1] أعالي البحار: High Seas أجزاء البحار الموجودة في عرض البحر والتي تقع خارج المياه الإقليمية لأي قطر من الأقطار التي عرضها كما ينص القانون الدولي ثلاثة أميال. (المترجم)

٣- الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضًا

لاحظنا في الفصل السابق كيف أن الطبقة الحاكمة في بريطانيا العظمى دأبت على وضع يدها على الأراضي والقضاء على حريات العامة طيلة القرن الثامن عشر، وعرفنا كيف تمخض جشعهم وعمايتهم عن الثورة الصناعية[1] الجديدة. كذلك لاحظنا كيف أن البرلمان البريطاني بسبب انحلال أساليب التمثيل النيابي لمجلس العموم، أصبح في كل من مجلسيه الأعلى والأدنى أي اللوردة والعموم، مجرد أداة للحكم عن طريق كبار أصحاب الأراضي. وكان كل من كبار الملاك هؤلاء والتاج ذا مصلحة عميقة في أمريكا – الأولين منهم بوصفهم مغامرين يحدون مصالحهم الخاصة، والأخير بوصفه ممثلاً لاستغلال ملوك أسرة استيوارد ومضاربتهم من ناحية، وبوصفه ممثلاً للحكومة في بحثها عن موارد مالية للقيام بنفقات السياسة الخارجية من ناحية أخرى؛ وطبيعي أن اللوردة والتاج لم يكن أحد منهم ينظر إلى التجار والزراع والعامة بسكان المستعمرات نظرة فيها تقدير أكثر من نظرته إلى صغار المزارعين وصغار الزارعين الملاك في أرض الوطن. والواقع أن مصالح الرجل العامي (العادي) في كل من بريطانيا العظمى وإرلندة وأمريكا كانت في صميمها واحدة لا اختلاف بينها. فإن كلا منهم كانت تعتصره وتستغله نفس الهيئة الحاكمة، ولكن على حين كان العاصر والمعصور في إنجلترة متشابكين تشابكا وثيقًا في نظام اجتماعي وطيد، فإن التاج وطالبي الاستغلال في أمريكا كانا بعيدين، وكان في مكنة الرجال هنا أن يتخذوا وأن يطوروا في أنفسهم شعورًا بالجماعة ضد عدوهم المشترك.

هذا إلى أن المستوطن الأمريكي كانت له الميزة الهامة، ميزة امتلاكه لسانًا وترجمانًا منفصلاً قانونيًا لمقاومة الحكومة البريطانية يتمثل في مجلس مستعمرته أو جمعيتها التشريعية، التي كانت ضرورية لإدارة الشئون المحلية. ولم يكن للرجل العامي في إنجلترة – وهو الذي تحرمه الجنتلمانية بما تستخدمه من ضروب الحيل والخداع من التمثيل الصحيح في مجلس العموم – أي لسان ناطق عنه ولا أي مركز للعمل والتعبير عن تذمره.

ولسوف يتضح للقارئ إذ يتذكر تنوع المستوطنات أن الوضع هنا كان يهيئ الفرص لسلسلة لا نهاية لها من المنازعات، وضروب العدوان وما يقابل ذلك من التدابير المضادة. وقصة تطور الانفعالات بين المستعمرات وبين بريطانيا قصة أشد تعقدًا وأدق وأطول من أن تتسع لها خطة هذه "المعالم". وحسبك أن المظالم كانت تقع تحت عناوين ثلاثة رئيسية هي: المحاولات المبذولة لضمان حصول المغامر البريطاني أو الحكومة البريطانية على أرباح استغلال الأراضي الجديدة؛ والتضييقات المنظمة على التجارة بغية الاحتفاظ بتجارة المستعمرات الخارجية كلها في أيد بريطانية، بمعنى أن جميع صادرات المستعمرة لم تكن لترسل إلا بطريق بريطانيا ولم يكن يستعمل في أمريكا سوى السلع البريطانية. وأخيرًا تجيء محاولة فرض الضرائب بواسطة البرلمان البريطاني بوصفه السلطة العليا الفارضة للضرائب في الإمبراطورية. واضطر

---

[1] تسمى تلك النهضة الصناعية باسم الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعي. (المترجم)

المستوطنون الأمريكيون تحت ضغط هذا النظام الثلاثي من المضايقات، أن يقوموا بقدر جسيم من التفكير السياسي العميق. وشرع رجال من أمثال باتريك هنري وجيمس أوتس (Otis) في مناقشة الفكرات الأساسية التي تقوم عليها الحكومات والترابط السياسي على نحو شديد الشبه بمناقشتها في إنجلترة في الأيام العظام أيام دولة كروموبل الجمهورية. وأخذوا ينكرون كلا من الأصل المقدس للملكية والسياسة العليا للبرلمان البريطاني، وكان أن قال جيمس أوتس في ١٧٦٢ أشياء من أمثال التالي:

- "خلق الله الناس جميعًا متساوين تساويًا طبيعيًا.
- والفكرات القائلة باستعلاء الإنسان على أخيه الإنسان فكرات تلقينية غير فطرية
- وقد خلق الملوك لخير الناس ولم تخلق الناس لهم
- وليس لأية حكومة أن تتخذ من رعاياها عبيدًا
- ومع أن معظم الحكومات تعسفية في واقع الأمر
- وهي بناءً على ذلك لعنة وفضيحة للطبيعة الإنسانية.
- فما من واحدة منها تكون تعسفية قانوناً وشرعًا".
- وبعض هذه الأقوال تضرب في الموضوع بسهم بعيد المرمى.

وقد بدأ هذا التخمر في أفكار الأمريكيين السياسية بفضل خميرة بريطانية. فإن هناك كاتبًا إنجليزيًا عظيم التأثير هو جون لوك (١٦٤٢ – ١٧٠٤)، الذي يمكن أن يعد كتابه "مقالتان عن الحكومة المدنية" نقطة الارتحال الأساسية للفكرات الديمقراطية العصرية. كان أبوه جنديًا من أتباع كروموبل، كلية وقد تعلم في "كرايست تشرتش Christ Church" بأكسفورد إبان عظمة الجمهورية، وقضى بضع سنين مبعدًا في هولندة، وتكوّن كتاباته جسرًا يصل بين التفكير السياسي الجريء في تلك الأيام الجمهورية القديمة وبين الحركة الثورية في كل من أمريكا وفرنسا.

على أن الرجال لا يشرعون في العمل والتصرف على أساس النظريات. وإنما يحدو الناس إلى "العمل" على الدوام شعورهم بوجود خطر ما حقيقي أو ضرورة ما عملية. ولن تستقيم للنظريات الأمور وتستقر في نصابها إلا بعد أن يكون العمل والتصرف قد هدّ صرح العلاقات القديمة كلها وأنتج أمورًا جديدة محيرة. وعند ذلك توضع هذه النظرية في بوتقة الاختبار. فالخلاف على المصالح والفكرات، المشتجر بين المستوطنين تحول إلى قتال لما أبداه البرلمان البريطاني بعد صلح ١٧٦٣ من عنيد التصميم على فرض الضرائب على المستعمرات الأمريكية. وكانت بريطانيا ترفل في بحبوحة السلم وتنهال عليها الرفاهية من كل جانب، فأحست أن أمامها فرصة بديعة لتصفية الحساب مع هؤلاء المستوطنين العصاة. ولكن كبار أصحاب الأملاك البريطانيين وجدوا إلى جوار قوتهم قوة تشاطرهم آراءهم نفسها، وإن اختلفت عنهم قليلاً في غاياتها – وهي قوة التاج المنتعش. ذلك بأن جورج الثالث الذي بدأ حكمه في ١٧٦٠، أصر على أن يكون في سلطانه ملكًا أكثر من سلفيه الألمانيين. وكان يستطيع التكلم بالإنجليزية، وكان يدعي أنه "مباهٍ بأن يلقب

بريطونيا [1]، وعندي أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجري في عروقه قطرة واحدة معروفة من الدم الإنجليزي ولا الويلزي ولا الاسكتلندي!!؟ وكان يخيل إليه أن المستعمرات الأمريكية والممتلكات وراء البحار عامة بما لها من مراسيم غير محددة – (بل عساها بلا مراسيم مطلقًا) – أماكن قد يستطيع التاج فيها أن يدعي السلطان وأن يحصل على الموارد المالية والسلطات التي تنكرها عليه إنكارًا باتًا الأرستقراطية القوية الغيور على سلطانها في بريطانيا. فدفع هذا كثيرًا من نبلاء الهويج (Whigs) [2] أن يعطفوا على المستوطنين عطفًا لم يكونوا ليظهروه لولا هذا الظرف. ذلك أنه لم يكن لديهم أي اعتراض على استغلال المستعمرات لصالح صاحب "المسعى الخاص " [3] البريطاني ولكن كانت لديهم اعتراضات قوية جدًا على تقوّي التاج بذلك الاستغلال تقويًا يجعله على الفور مستقلا مستغنيًا عنهم.

من أجل ذلك لم تكن الحرب التي نشبت حربًا بين بريطانيا والمستوطنين بل بين الحكومة البريطانية والمستوطنين، انحاز فيها قسم من نبلاء حزب الأحرار (الهويج) وقدر جسيم من الشعور العام في إنجلترة إلى صف هؤلاء المستوطنين. وهناك حركة مبكرة بعد (١٧٦٣) كانت ترمي إلى محاولة جمع الإيرادات لبريطانيا في المستعمرات بتحتيم دمغ الصحف وأنواع مختلفة من الوثائق. ولقيت هذه المحاولة مقاومة عنيدة، وداخلت الرهبة قلب التاج البريطاني، فألغيت قوانين الدمغة (١٧٦٦). وقوبل إلغاؤها بمظاهر فرح صحبها شيء من الشغب في لندن؛ وتجلى فيها من السرور القلبي ما لم يتجل في المستعمرات نفسها.

ولكن موضوع قانون الدمغة لم يكن إلا دوامة واحدة في سيل مضطرب يتدافع هاويًا نحو حرب أهلية. فكان ممثلو الحكومة البريطانية مستترين وراء عشرات من الحجج في أعلى الساحل وأسفله دائبين على تحقيق سلطاتهم وإبرازهم وجعل الحكومة البريطانية كلاً فادحًا لا يطاق. وكان إنزال الجنود في ضيافة المستوطنين كرهًا، من أفدح الأمور وطأة عليهم. وكانت رود أيلاند ناشطة بوجه خاص في تحديها لقيود التجارة. فإن سكان رود أيلاند كانوا متجرين أحرارًا – أي مهربين، وقد حدث أن سفينة حكومية تسمى جاسبي (Gaspee) شحطت على أرض بروفيدانس؛ فباغتها واعتلى ظهرها واستولى عليها رجال مسلحون في زوارق، ثم ما لبثوا أن أحرقوها. وفي (١٧٧٣) منح البرلمان البريطاني شركة الهند الشرقية ميزات خاصة في استيراد الشاي إلى أمريكا في استهانة تامة بنظام تجارة الشاي في المستعمرات. وصمم المستوطنون بعزم على رفض هذا الشاي ومقاطعته. ولما أن أظهر مستوردو الشاي في بوسطن إصرارًا على إنزال بضائعهم إلى الشاطئ، صعد إلى سفن الشاي الثلاث عصبة من الرجال متنكرين في زي الهنود الحمر، وألقوا بالشاي في البحر على ملأ من جمهور عظيم من الناس (١٦ ديسمبر ١٧٧٣).

---

[1] بريطوني Briton: أي من سكان بريطانيا القدامى. (المترجم)

[2] الهويج Whigs: حزب ظهر في القرن التاسع عشر ممثلاً لتجار الطبقة الوسطى مناهضًا لأصحاب الأملاك من حزب التوري (المحافظين أخيرًا) تسمى فيما بعد باسم حزب الأحرار. (المترجم).

[3] المسعى الخاص Private enterprise: الجهود أو المشروعات الخاصة التي يقوم بها فرد أو أفراد أو شركات. (المترجم).

وشغل الطرفان طيلة ١٧٧٤ بجمع الموارد والأموال استعدادًا للمعركة المقبلة. وقرر البرلمان البريطاني في ربيع (١٧٧٤) معاقبة بوسطن بإغلاق مينائها، واتجهت النية إلى القضاء على تجارتها ما لم تقبل ذلك الشاي. وكان ذلك مثالاً نموذجيًا كاملاً لذلك "الحزم" الأحمق الذي يمزق الإمبراطوريات بددًا. ولكي يتم تنفيذ هذا التدبير بالقوة، احتشدت الجيوش البريطانية في بوسطن تحت قيادة الجنرال جاج (Gage) واتخذ المستوطنون تدابير مضادة لتلك. وانعقد أول (كونجرس) للمستوطنين بمدينة فيلادلفيا في سبتمبر، مثلت فيه اثنتا عشرة مستعمرة هي: ماساشوستس، وكونكتي كت، ونيوهمبشير، وورود آيلاند، ونيويورك، ونيوجرسي وبنسلفانيا، وماري لاند، وديلاوير، وفرجينيا، وكارولينا الشمالية والجنوبية، ولم تكن جورجيا حاضرة. وأصدر الكونجرس تمشيًا مع خير التقاليد الإنجليزية وثيقة أبان فيها موقفه بأن أشهر "إعلان حقوق". والواقع أن هذا الكونجرس كان حكومة تمرد وعصيان، ولكن لم تضرب ضربة واحدة حتى ربيع (١٧٧٥). يوم جاء أول سفك للدماء.

فإن اثنين من الزعماء الأمريكان هما هانكوك وصمويل آدامز، قد اتجهت نية الحكومة البريطانية إلى اعتقالهما، ومحاكمتهما بتهمة الخيانة، وكان معروفًا أنهما في لكسينجتن، على مبعدة أحد عشر ميلاً تقريبًا من بوسطن، وفي ليل ٨ إبريل ١٧٧٥ أصدر جاج أوامره بزحف قواته لاعتقالهما.

وكانت تلك الليلة من ليالي التاريخ العظيمة. فإن المستوطنين تنبهوا إلى حركة جيوش جاج، فرفعت مصابيح الإشارة فوق برج كنيسة في بوسطن وانسل رجلان هما داوز وبول ريفير في قارب عبر الخليج الخلفي حتى يستطيعا أن يحصلا على جوادين لكي يُحذّرا المنطقة الريفية. كذلك نُقل البريطانيون بالمعدية عبر الخليج؛ وفيما هم يزحفون تحت جنح الليل إلى لكسينجتن عند الفجر، شاهدوا مجموعة صغيرة من الرجال مصطفين في تشكيلة عسكرية. والظاهر أن البريطانيين كانوا البادئين بإطلاق النار. فانطلقت طلقة واحدة ثم سيل من الطلقات، وتراجعت الثلة الصغيرة دون أن تجيب – فيما يظهر – على الطلقات تاركة في ظاهر القرية ثمانية من القتلى وتسعة من الجرحى.

وعند ذلك سار البريطانيون إلى قرية كونكورد، وهي وراء ذلك بعشرة أميال، فاحتلوا القرية وأوقفوا ثلة من الجنود على الكوبري القائم في ذلك الموضع. وفشلت الحملة في هدفها وهو اعتقال هانكوك وآدامز، ويلوح أن القائد البريطاني تحير ماذا يفعل بعد ذلك. وفي نفس الوقت كان جند المستوطنين يتقاطرون من كل حدب وصوب وسرعان ما وجد الحرس المرابطون على الكوبري أنفسهم غرضًا لنيران متزايدة انتهت بهجوم. وتقرر التقهقر إلى بوسطن. ولكنه كان تقهقرًا مدمرًا. فقد هبت المنطقة كلها من خلفهم، وأخذ المستوطنون في التجمع طول الصباح. وعندئذ أصبح جانبا الطريق مزدحمين برماة حذاق يطلقون النار من وراء الصخور والسياجات والمباني، وكثيرًا ما حدث أنهم هجموا حتى غدوا على مسافة دانية بلغت مرمى السونكي. وكان الجنود في ثياب قرمزية وضاحة، ذات واجهات صفراء وتزالك وأربطة رقبة بيضاء، ولا بد أن هذه الألوان كانت تبدو وضاحة ساطعة بالقياس إلى الألوان الحادة في أخريات ربيع نيوإنجلند، كان ذلك اليوم مشرق الضياء حارًا متربًا، وكان الرجال قد غلبهم الإعياء من جراء سُراهم طول الليل. وفي كل بضع

ياردات يقع منهم رجل إما جريحًا أو قتيلاً. على حين يسير الباقون ثقالاً أو يقفون ليطلقوا وابلاً من نار على غير جدوى. وكانت هناك في لكسينجتن أمدادا بريطانية ومدفعان، وبعد استراحة وجيزة تواصل التقهقر في نظام أحسن. ولكن التعقب استمر حتى النهر، وبعد أن عبره البريطانيون قافلين إلى بوسطن، اتخذ جنود المستوطنين مراكزهم في كامبريدج وأعدوا أهبتهم لحصار المدينة.

٤- حرب الاستقلال

بذا ابتدأت الحرب، ولم تكن حربًا تبشر بنهاية حاسمة. فلم تكن للمستوطنين عاصمة واحدة يخشون عليها عطبًا؛ بل كانوا منتشرين فوق ريف عظيم من خلفه برية لا آخر لها، ولذا كانت لهم قوة مقاومة عظيمة. وكانوا في غالب أمرهم تعلموا فن الحرب عند الهنود. فكانوا يستطيعون أن يجيدوا القتال في نظام مكشوف وأن يشتتوا الجنود ويمزقوهم بحركاتهم. ولكن لم يكن لديهم جيش منظم يستطيع أن يلقى البريطانيين في معركة عظيمة، ولم يكن لديهم إلا القليل من العتاد الحربي؛ هذا إلى أن مجنديهم كاد يُلم بهم نفادُ الصبر إذا طال بالحملة الأمد، وينزعون إلى العودة إلى مزارعهم. وكان لدى الإنجليز من الناحية الأخرى جيش حسن التدريب، كما أعارتهم سيادتهم على البحر قدرة على نقل هجومهم شمالاً وجنوبًا في ذلك الساحل الأطلسي الطويل. وكانوا في سلام مع العالم أجمع. ولكن الملك كان غبيًا شرهًا في تدخله في إدارة الأمور، وكان القواد الذين يؤثرهم بعطفه إما رجالا أغبياء "أقويا الشكيمة" أو طائشين من أبناء البيوتات "والطبقة العالية". ولم يكن فؤاد إنجلترة محبذًا لهذا الأمر. لذلك تركز جل اعتماد التاج على قدرته على توقيع الحصار البحري على المستوطنين والإغارة عليهم ومضايقتهم حتى يخضعوا، أكثر منه على الفتح والاحتلال النهائي للبلاد. ولكن الوسائل التي استعملت وبوجه خاص استخدام الجنود الألمانية المأجورة التي كانت لا تزال تحتفظ بتقاليد القادة المأثورة عن حرب الثلاثين، والجنود المساعدة الهندية الذين شتتوا سكان المستوطنات المنعزلة – لم تضجر الأمريكيين من الحرب قدر ما أضجرتهم من البريطانيين. فأما الكونجرس فإنه اجتمع لثاني مرة في ١٧٧٥، وأقرَّ التصرفات التي أتاها مستوطنو نيوإنجلند، وعين جورج واشنجتون قائدًا عامًا للجيش الأمريكي. وفي ١٧٧٧ بينما الجنرال برجوين يحاول أن ينحدر من كندا زاحفًا على نيويورك، إذ انهزم عند "مزرعة فريمان" عند أعلى نهر الهدسون الأعلى، وأحيط به واضطر إلى التسليم في ساراتوجا ومعه جيشه كله. وشجعت هذه الكارثة الفرنسيين والإسبان على الدخول إلى الحلبة في صف المستوطنين. وقام الأسطول الفرنسي بالشيء الكثير في سبيل تقليل ميزة البريطانيين في البحار. وحصر الجنرال كونواليس في شبه جزيرة يوركتون بفرجينيا في ١٧٨١، فسلم بجيشه. وكانت موارد الحكومة البريطانية عند ذاك قد استنزفت، إذ كانت ترزح تحت عبء ثقيل من الكفاح مع فرنسا وإسبانيا في أوربا.

ويلوح أن المستوطنين عامة كانوا في البداية من قلة الميل إلى نبذ الملكية والمطالبة بالاستقلال التام بحيث ماثلوا حالة الهولنديين أثناء الدور الأول من اضطهادات فيليب الثاني وحماقاته. وأطلق اسم الراديكاليين على دعاة الانفصال [1]؛ وكانوا قومًا يغلب عليهم التطرف في الديمقراطية، كما قد نقول في إنجلترة في أيامنا هذه، وأدخلت آراؤهم التقدمية شيئًا من الخوف إلى قلوب كثير من المستوطنين الأكثر رزانة وثراء، الذين كان لامتيازات الطبقات ومكانتها سحر عظيم في أعينهم. ولكن إنجليزيًا مقتدرًا قوي

---

(1) الراديكاليون: كانت كلمة الراديكاليين تطلق في إنجلترة في ذلك الزمان على أنصار الديمقراطية والإصلاح البرلماني (المترجم)

الحجة هوتوماس بين Paine نشر في زمن مبكر من (١٧٧٦) بحثًا بفيلادلفيا تحت عنوان "حسن التصرف"، كان لها أثر هائل في الرأي العام. كان أسلوبها أسلوبًا بيانيًا بليغًا إذا قيس بالمعايير العصرية. "إن دماء القتلى وصوت الطبيعة الباكي تصيح، أن قد حان وقت الافتراق" وهلم جرا... ولكن آثارها كانت بالغة القوة. فإنها حولت الآلاف إلى فكرة ضرورة الانفصال. وما كاد انقلاب الرأي يبدي حتى أخذ يهدر مسرعًا.

ولم يتخذ الكونجرس إلا في صيف (١٧٧٦) الخطوة التي لا مرد لها: بإعلان طلب الانفصال "وإعلان الاستقلال"، وهو مثال آخر من تلك الوثائق النموذجية التي يعود الفضل في إنتاجها للبشرية للإنجليز بخاصة. وقد سطره توماس جفرسون. وما لبث بعد أن أدخلت عليه تصميمات وتعديلات متنوعة، أن جُعل الوثيقة الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية. وأدخل تعديلان جديران بالذكر على مسوّدة جفرسون. فإنه شن حملة عنيفة على تجارة الرقيق، وأنحى باللائمة على حكومة أرض الوطن بإنجلترة لحيلولتها دون المحاولات التي بذلتها المستقرات (المستوطنات) لإيقاف تلك التجارة. فحذفت هذه الفقرة وكذلك حذفت جملة أخرى عن البريطانيين تقول: "يجب أن نحاول أن ننسى حبنا السابق لهم.. فقد كنا نستطيع أن نكون مجتمعين شعبًا حرًا عظيمًا".

وفي قريب من نهاية (١٧٨٢) وقعت في باريس البنود الأولية في المعاهدة التي اعترفت فيها بريطانيا بالاستقلال التام للولايات المتحدة. وأعلن انتهاء الحرب في ١٩ أبريل (١٧٨٣) أي بعد ثماني سنين بالضبط من انطلاق بول ريفير بجواده وارتداد رجال جاج (Gage) من كونكورد إلى بوسطن. ووقعت معاهدة الصلح نهائيًا بباريس في سبتمبر.

٥- دستور الولايات المتحدة

إن الطريقة التي أصبحت بها الولايات الثلاث عشرة مستقلة، كانت من وجهة نظر التاريخ الإنساني، أقل شأناً بكثير من استقلالها الفعلي نفسه. وظهر في العالم بتوطيد استقلالها ذاك، نوع من المجتمع جديد. وكأني به شيئاً فقست عنه بيضة. كان حضارة أوربية غريبة انفصلت وتحررت من آخر آثارها الإمبراطورية والمسيحية؛ ولم يكن بها أي أثر للملكية ولا دين رسمي للدولة. وما كان بها دوقات ولا أمراء ولا كونتات، ولا أي ضرب من حملة الألقاب المدعين سمو القدر والرفعة بوصفها حقوقاً. بل إن وحدتها نفسها لم تكن آنذاك إلا اتحاداً بقصد الدفاع والحرية. فكانت من هذه الوجوه بداية نظيفة في التنظيم السياسي لم ير العالم من قبل لها نظيراً. وإن غيبة أية رابطة دينية تربطهم بعضهم إلى بعض لجديرة بالتنويه وبوجه خاص. فقد كان بها أكثر من واحد من أشكال المسيحية، ولا مجال للشك في أن روحها كانت مسيحية. ولكن الأمر كان كما صرحت بذلك وثيقة رسمية في (١٧٩٦) تصريحاً لا لبس فيه "إن حكومة الولايات المتحدة ليست بأي حال مؤسسة على الديانة المسيحية" [1]. فإن المجتمع الجديد قد توغل بالفعل والواقع حتى بلغ أصول الجماعة الإنسانية العادية المجردة. وكان يبني نوعاً جديداً من الجماعة الإنسانية ونوعاً جديداً من الدولة على تلك الأصول.

هنا كان يعيش ما يقرب من أربعة ملايين من الناس متناثرين فوق منطقة مترامية الأطراف ليس بينها من وسائل الاتصال إلا كل صعب شديد الصعوبة بطيء عظيم البطء، وهم قوم لمّا يبرحوا فقراء، وإن كان أمامهم إمكانيات تبشر بثروة لا نهاية لها. وقد نشطوا يعملون في واقع الحقيقة على معيار ضخم أعمالاً إنشائية جليلة مثل تلك التي قام بها بالخيال والنظر الفلاسفة الأثينيون قبل ذلك باثنين وعشرين قرناً.

وهذا الموقف يشير إلى مرحلة محددة في فكاك الإنسان من السابقة والعرف، وخطوة محددة إلى الأمام تتجه نحو إعادته بناء ظروفه إعادة واعية متعمدة حتى تتلاءم وحاجاته وغاياته. كانت طريقة جديدة أخذت تصبح شيئاً عملياً في الشئون الإنسانية. فإن دول أوربا العصرية تطورت عما سبقها من أشياء، نظاماً في إثر نظام، وعلى مهل وبطء، بلا خطة مرسومة. فأما الولايات المتحدة فإنها خُططت تخطيطاً واصطنعت اصطناعاً.

ومع ذلك فإن حرية الشعب الجديد الخلاقة، كانت محددة تحديداً خطيراً جداً من ناحية واحدة. فلم يكن هذا النوع الجديد من الدولة مبنياً على موقع ممهد موطأ. بل إن تكوينه الاصطناعي لم يبلغ في صراحته مبلغ بعض المستعمرات الأثينية المتأخرة التي انطلقت عن المدينة الأم لتخطط وتبني دول مدن جديدة تماماً ذات دساتير جديدة تماماً أيضاً. فكان لكل من المستعمرات الثلاث عشرة في نهاية الحرب دستورها الخاص، وهو إما مثل دساتير كونكتيكت ورود أيلاند، التي يرجع تاريخها إلى أوان مراسيمها الأصلية (١٦٦٢) وإما أعيد تكوينه أثناء النضال، شأن دساتير سائر الولايات، حيث كان حاكم بريطاني يلعب دوراً عظيماً في

[1] نقلاً عن معاهدة تريبولي، انظر تشاننج السفر الثالث، الفصل الثامن عشر.

الإدارة. على أنا نستطيع أن نعد هذه التجديدات محاولات لها فضل الإسهام وتجارب في المجهود الإنشائي العام.

وهناك فكرات معينة كانت تبرز بروزًا واضحًا جدًا من فوق هذا المجهود. فمن هذه الفكرات فكرة المساواة السياسية والاجتماعية. فهذه الفكرة التي رأيناها وهي تولد في العالم بوصفها فكرة متطرفة لا يكاد يصدقها عقل في العصر المحصور بين بوذا ويسوع الناصري، قد توكدت الآن في أخريات القرن الثامن عشر بوصفها معيارًا عمليًا للعلاقات الإنسانية. يقول البيان الأساسي في فرجينيا: "وإن كل الناس خلقوا بالفطرة أحرارًا مستقلين"، ثم هو يمضي في سرد "حقوقهم" والتوكيد بأن كل المأمورين والمحافظين ليسوا إلا "مؤتمنين على المصلحة العامة وخدامًا لها". ولكل الناس الحق المتساوي في ممارسة الديانة بملء حريتهم. فأما الملك بحكم الحق، والأرستقراطي، "والعبد الطبيعي"، والملك الرب، والله، فقد اختفت كلها من هذه الخطة السياسية الأمريكية – بقدر ما تذهب إليه هذه التصريحات. وقدمت معظم الولايات لنظام الحكم فيها بمقدمات شبيهة بهذه. وقال إعلان الاستقلال إن "كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية". وإنك لترى في كل مكان توكيدات مصوغة في عبارات القرن الثامن عشر تقول بأن المجتمع الجديد سوف يكون – إذا استخدمنا التعبيرات التي أوردناها في فصل سابق [1] – "مجتمع إرادة وليس مجتمع طاعة". غير أن مفكري ذلك الزمان، كانت لهم في صوغ عبارة ذلك الموضوع طريقة كادت أن تبلغ حد السماجة والغلط، فإنهم تصوروا أن المواطنية تنطوي على ضرب من الاختيار الفردي والقبول، لم يحدث قط في واقع الأمر، وهو الشيء المتسمى باسم العقد الاجتماعي. ألا ترى إلى الديباجة التمهيدية في دستور ماساشوستس مثلاً، كيف تذكر أن الدولة ترابط اختياري، "به تعاهد الشعب بأجمعه مع كل مواطن، وكل مواطن مع الشعب بأجمعه بأن يحكم الجميع بقوانين معينة ترمي إلى الخير المشترك".

ولسوف يتضح الآن أن معظم هذه البيانات الأساسية تقبل المناقشة. فالرجال لا يولدون سواسية، ولا هم يولدون أحرارًا، بل هم يولدون حشدًا أشد ما يكون تنوعًا، وينشئون خليطًا متورطًا في شبكة اجتماعية عتيقة معقدة. ثم أين ذلك الرجل الذي يدعى للتوقيع على أي عقد؟ فإن فاته ذلك وجب عليه أن يهجر العالم وحيدًا. فلو فسرت هذه البيانات تفسيرًا حرفيًا، لبلغت من الزيف والخطأ الظاهر، حدًا يجعل من المستحيل الاعتقاد بأن الناس الذين وضعوها، كانوا يقصدون منها أن تفسر حرفيًا. وإنما هم أنشئوها للتعبير عن فكرات معينة خداعة ولكنها مهمة أعمق الأهمية – وهي فكرات أصبح العالم بعد انقضاء قرن ونصف من التفكير فيها، في وضع يستطيع فيه أن يعبر عنها تعبيرًا أحسن. والمدينة كما أوضحت هذه "المعالم" نشأت بوصفها مجتمع طاعة، وكانت بالضرورة مجتمع طاعة. وكان الكهنة والحكام قد أساءوا إلى الروح جيلاً بعد جيل. ثم

---

[1] انظر ص ص ٩٥٧ – ٩٦٣ م المعالم ج٣ ط٢. ومجتمع الإرادة والطاعة من أهم النقاط التي يعنى المؤلف أيما عناية بإبرازها في كل أجزاء "المعالم". (المترجم).

حدث انثيال متواصل من الإرادة القوية جاء منحدرًا من الغابات والغياض والسهوب [١]. ذلك أن الروح الإنسانية ثارت في نهاية الأمر ثورة تامة على الطاعات العمياء في الحياة المشتركة. كانت تبغي – وكان ذلك بطريقة سمجة جدًا في بداية الأمر – الحصول على طراز جديد من الحضارة أحدث جدة وأحسن صنعًا، يكون في نفس الوقت "مجتمع إرادة". وكان من الضروري للوصول إلى تلك الغاية أن يُعامل كل إنسان بوصفه سلطانًا على نفسه؛ وكان لا بد أن يكون مركزه مركز الزمالة لا العبودية. وكانت فائدته الحقيقية وأهميته الحقيقية تعتمد على صفته الفردية. والطريقة التي حاول بها هؤلاء الخالقون لأمريكا السياسية أن يحصلوا على "مجتمع الإرادة" ذاك، كانت طريقة مفرطة في بساطتها وفجاجتها. فقد منحوا الناس شيئًا كان بالنسبة إلى الزمان وبالنظر إلى الأحوال الأمريكية، حتى اقتراع واسع المجال جدًا. ولكن الأحوال كانت تختلف بين ولاية وأخرى، وكان أوسع حق للاقتراع في بنسلفانيا، حيث كان كل دافع ضرائب بالغ ذكر له الحق في التصويت، ولكن إذا قورن الحال ببريطانيا، لتبين أن الولايات المتحدة بأجمعها كانت أقرب ما تكون من منح حق التصويت لكل من بلغ مبلغ الرجال عند نهاية القرن الثامن عشر. وبذل مؤسسو أمريكا الجهود – وكانت جسيمة بالقياس إلى زمانهم طفيفة بالقياس إلى زماننا – للوصول إلى "تعليم" بسيط واسع الانتشار. فأما "إعلام" المواطنين بخبر ما يجري داخل بلادهم وخارجها، فأمر تركوه للاجتماعات العامة والمطبعة الخاصة التي يملكها أي فرد، دون أن تخالجهم – فيما يظهر – وخزة ارتياب في هذين العاملين.

وقصة دساتير الولايات المختلفة ودستور الولايات المتحدة على وجه العموم، قصة معقدة جدًا، لسنا بمستطيعين أن نعالجها هنا إلا كأشد ما تكون المعالجة إجمالاً واقتضابًا. وأجدر الأمور بالذكر من وجهة النظر العصرية هي إغفال النساء بوصفهن ممادنات (مواطنات). وكان المجتمع الأمريكي مجتمعًا بسيطًا زراعيًا في كبير أمره. وكانت معظم النساء متزوجات؛ فلا غرو إذن أن يمثلهن بعولتهن. على أن نيوجرسي سمحت لعدد قليل من النساء أن يعطين أصواتهن على أساس من المؤهلات العقارية. وهناك أيضاً نقطة أخرى ذات أهمية عظيمة، هي القرار الذي كاد أن يكون إجماعيًا بأن يتولى الحكم في البلاد مجلسان يقر كل منهما الآخر أو يكبحه على غرار مجلسي اللوردة والعموم في بريطانيا. وكان لبنسلفانيا دون غيرها مجلس نيابي واحد، الأمر الذي كان الناس يشعرون من أجله بأن تلك حالة شديدة الخطر مغالية في ديمقراطيتها. وعندي أنه فيما عدا الدفع الجدلي بأن التشريع يجب أن يكون بطيئًا كما يجب أن يتسم بالتمكن والتثبت، فإن من العسير أن يجد المرء ضرورة لهذه الثنائية في المجالس. ويلوح أن المسألة كانت تقليدًا جديدًا أو (موضة) انتشرت لدى مؤسسي الدساتير في القرن الثامن عشر أكثر منها حاجة ملحة معقولة. فإن الازدواج البريطاني كان تقسيمًا قديمًا. فمجلس اللوردة وهو البرلمان أصلاً، كان جميعه من "الكبراء": وأعظم زعماء المملكة؛ ثم جاء مجلس العموم بوصفه عاملاً جديدًا، وبوصف أعضائه الفئة المنتجة المتحدثة بلسان سكان المدن وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة. وكان مفروضًا في شيء من التعجل في القرن الثامن عشر أن العامة

---

[١] الغياض (Parklands): مصطلح جغرافي معناه الغابات الحقيقة المتباعدة الأشجار. والسهوب (Steppes): هي السهول الفسيحة. الجافة الخالية من الأشجار وإن نبتت بها الأعشاب ومعظمها في جنوب شرقي أوربا وجنوب غربي آسيا. (المترجم)

ميالة إلى الاندفاع وراء الدوافع الضاربة وأنها محتاجة ولا ريب إلى من يشكمها؛ وكان الرأي متجهًا إلى الأخذ بالديمقراطية على أن تكون ديمقراطية عليها دائمًا شكائم [1] قوية سواء أكانت منطلقة إلى أعلى الجبل أو منحدرة إلى أسفل. وكانت فكرة النخبة المنتقاة هالة تحيط بتلك المجالس العليا؛ فإنهم كانوا ينتخبون على أساس من الاقتراع أضيق حدودًا. وهذه الفكرة الداعية إلى إنشاء مجلس أعلى يكون معقلاً يعتصم به ذوو القيمة من الرجال لا تروق المفكرين العصريين بنفس القوة التي كانت تروق بها أمثالهم في القرن الثامن عشر. ولكن فكرة المجلس الثنائي مكونًا على صورة ما أخرى، لا تزال ولها أنصارها. فإنهم يرون بأن المجتمع يجوز له – مع رجوع ذلك بالخير عليه – أن ينظر في شئونه من زاويتي نظر – فينظر بواسطة أعين هيئة منتخبة لتمثل الحرف والصناعات والمهن والخدمات العامة وما إلى ذلك، وهي هيئة تمثل الوظيفة، كما ينظر من خلال أعين هيئة ثانية تنتخبها الجهات المحلية لتمثل تلك المجتمعات. فلانتخاب أعضاء الهيئة الأولى يعطي الرجل صوته على أساس مهنته. وللثانية على أساس الحي الذي يسكنه. وهم يشيرون إلى أن مجلس اللوردة البريطاني إنما هو في الواقع ممثل للوظيفة، تمثل فيه الأرض والقانون والكنيسة تمثيلاً غير متناسب مطلقًا، على أن أصحاب الصناعات فيه وأرباب الأموال وكبار رجال الخدمات العامة وأهل الفن والعلوم والطب يجدون مكانهم كذلك؛ وأن مجلس العموم البريطاني جغرافي بحت في أصوله. بل لقد اقترح بعضهم في بريطانيا أنه يجب أن يكون هناك "نبلاء من العمال" ينتخبون من بين زعماء نقابات العمال العظيمة. على أن هذه تأملات تخرج عن نطاقنا الحالي.

وكانت الحكومة المركزية للولايات المتحدة هيئة واهنة القوة جدًا بادئ الأمر، مكونة من كونجرس ينتظم ممثلي الولايات الثلاث عشرة، التي تضمها بعضها إلى بعض عناصر اتحاد احتلافي [2] (كونفدرالي) بعينها. ولم يكن هذا الكونجرس إلا مجرد مؤتمر من مندوبين لولايات مستقلة ذات سيادة؛ إذ لم يكن في يده مثلاً أي هيمنة على التجارة الخارجية في كل ولاية على حدتها، ولا كان بالمستطيع أن يسك النقود ويجمع الضرائب بناء على سلطانه هو. وقد حدث عندما ذهب جون آدامز أول وزير للولايات المتحدة في إنجلترة لمناقشة معاهدة تجارية مع وزير الخارجية البريطاني أن قوبل بطلب ثلاثة عشر مندوبًا، يمثل كل واحد منهم ولايته المختصة. ثم اضطر أن يعترف بعدم قدرته على اتخاذ إجراءات ترتبط بها بلاده كلها. وعند ذلك شرع البريطانيون يتعاملون مع كل ولاية على حدة متخطين الكونجرس، واحتفظوا بملكية عدد من المواقع على الأراضي الأمريكية حول البحيرات العظيمة بسبب عدم مقدرة الكونجرس على الاحتفاظ بتلك الأقاليم احتفاظًا فعالاً. وأثبت الكونجرس على نفسه الضعف أيضًا في مسألة أخرى مستعجلة خطيرة. إذ إنه تمتد إلى الغرب من الولايات الثلاث عشرة أراض لا نهاية لها كان المستوطنون يتخذون سبيلهم إليها في أعداد

---

[1] شكائم: فرامل. (المترجم)

[2] الاتحاد الاحتلافي أو الكونفدرالي: أطلقنا هذه الكلمة للدلالة على معنى Confederanon وهو الاتحاد بين الولايات اتحادًا مفككًا تحتفظ فيه كل منها بسماتها والشيء الكثير من استقلالها وذلك تمييز لها من كلمة الاتحاد الوحدوي أو الفدرالي التي تدل على الاتحاد التام بين الولايات. (المترجم)

متكاثرة أبدًا. وكانت لكل من الولايات مدعيات غير محصورة للتوسُّع غربًا. فكان من الواضح لكل رجل بعيد النظر، أن احتكاك هذه المدعيات مؤد على طول الزمان إلى الحرب، ما لم تستطع الحكومة المركزية أن تتولى توزيع الأنصبة. وبلغ الضعف بالحكومة المركزية وحاجاتها إلى التركز، حدا أصبحا معه أمرًا مزعجًا وخطرًا باديًا، حتى لقد جرت بعض مباحثات سرية ترمي إلى إنشاء نظام ملكي في البلاد، وكل ف ناثانيل ال جورهام نائب ماساشوستس ورئيس الكونجرس من يفاتح الأمير هنري البروسي شقيق فردريك الأكبر في هذا الصدد. وأخيرًا دعي مؤتمر دستوري للاجتماع في (١٧٩٧) بفيلادلفيا، وهنالك وضعت الأسس الإجمالية للدستور الحالي للولايات المتحدة. ذلك أنه حدث أثناء السنوات الأخيرة تغير عظيم في الروح، إذ فشا في الناس جميعًا شعور بضرورة الوحدة.

وعندما وضعت مواد دستور الاتحاد الاحتلافي (الكونفدرالي)، كان الناس يفكرون في فرجينيا وشعب ماساشوستس وشعب رود أيلاند وما إلى ذلك؛ فأما الآن فتظهر إلى الوجود فكرة جديدة، هي "شعب الولايات المتحدة". وصدر بيان أعلن أن الحكومة الجديدة بما لها من رئيس تنفيذي وأعضاء بمجلس شيوخ ورجال كونجرس ومحكمة عليا (التي أنشئت عند ذاك)، إنما هي حكومة "شعب الولايات المتحدة". كانت هيئة مندمجة ولم تكن مجرد جمعية متجمعة. وكانت تقول "نحن الشعب" وليس "نحن الولايات"، كما اشتكى ذلك بمرارة "لي" الفرجيني. إذ تقرر أن تكون حكومة اتحاد فدرالي Federal لا حكومة اتحاد احتلافي Confederate.

وأقرت الدستور الجديد ولاية بعد ولاية، وفي ربيع ١٧٨٨ اجتمع بنيويورك أول كونجرس قام على الأسس الجديدة، تحت رياسة جورج واشنجتون، الذي كان القائد الأعلى الوطني طوال حرب الاستقلال. وعند ذلك مر الدستور في طور من المراجعة جسيم، وبنيت مدينة واشنجتون على نهر البوتوماك لتكون عاصمة الاتحاد.

٦- المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة

أسلفنا إليك في فصل سابق وصفنا للجمهورية الرومانية، وخليطها الجامع بين المظاهر العصرية المشوبة بالخرافات القاتمة والسمة الوحشية البدائية – بأنها الصورة النياندرتالية التي تؤذن بالدولة العصرية. وربما جاء وقت يعد فيه الناس مستحدثات الدستور الأمريكي وأجهزته العديل السياسي للأدوات والمستحدثات التي كانت لإنسان العصر الحجري الحديث. على أنها أدت الغرض المطلوب منها أداءً حسنًا، ونما شعب الولايات في ظل حمايتها حتى أصبح من أعظم المجتمعات التي ظهرت في العالم إلى الآن ومن أشدها قوة وحضارة؛ على أنه ليس في ذلك ما يدعو إلى اعتبار الدستور الأمريكي شيئًا أقرب إلى الغاية النهائية وأبعد من قبول التغيير من طراز سكك حديد الشوارع التي تعلو كثيرًا من طرقات نيويورك العامة، أو ذلك الطراز الممتاز البسيط من عمارة المنازل الذي ما يزال يعم فيلادلفيا. فإن هذه الأشياء أيضًا أدت الغرض منها أداءً حسنًا، وفيها عيوبها على أن في الإمكان إصلاحها وتحسينها. فإن مستحدثاتنا السياسية شأن مستحدثاتنا المنزلية والآلية بالضبط، في حاجة إلى أن تمتد إليها يد التعديل المتواصل كلما نما العرفان والتفهم.

ومنذ أن رسمت خطة الدستور، تعرضت فكرتنا عن التاريخ ومعرفتنا بسيكولوجيا الجماعة لتطور جسيم جدًا. فإنا أخذنا نرى في معضلة الحكم والحكومة أشياء كثيرة كان رجال القرن الثامن عشر عنها عمين؛ وإذ إنهم كانوا شجعانًا شجاعة تتجلى في نزعتهم الإنشائية تلقاء أي تكوين سياسي سابق لهم، فإن تلك النزعة الإنشائية قصرت كثيرًا عن حد تلك الجرأة التي تدرك الحاجة إليها في هذه الأيام للوصول إلى حل لهذه المسألة الإنسانية العظيمة، مسألة إنشاء "مجتمع إرادة" ممدن. فإنهم سلموا بأشياء كثيرة نعرف اليوم أنها بحاجة أن تكون موضع أشد الدراسات العلمية تدقيقًا وأن تلقى أشد ألوان الإحكام والتعديل. ذلك أنهم كانوا يظنون أن كل ما عليهم هو أن يقيموا المدارس والكليات، مع منحها منحة من الأرض للقيام بنفقاتها، وأنه من الجائز عند ذاك أن نترك وشأنها. ولكن التعليم ليس عشبًا ينبت بقوة في أية تربة، وإنما هو محصول ضروري رقيق قد يذبل في سهولة ويضوي. وإنا لنعلم في هذا العصر أن النقص في تطور الأجهزة الجامعية والتعليمية، يشبه شيئًا من نقص التطور للمخ والأعصاب، الذي يعوق نمو الكيان الاجتماعي كله. وإذا قيس مستوى التعليم العادي في أمريكا بالمعايير الأوروبية وبمعيار أية دولة ظهرت حتى الآن، تجلى أنه مستوى عال؛ ولكن إذا قيس إلى ما يمكن أن يكون عليه حاله، فإن أمريكا تعد دولة غير متعلمة. كذلك أيضًا زعم آباء أمريكا هؤلاء أنه ليس عليهم إلا أن يتركوا "الصحافة" حرة، وعند ذلك يعيش كل إنسان في أسطع نور. فلم يدركوا أن في إمكان الصحافة الحرة أن تطور نوعًا من الارتشاء والفساد الدستوري بسبب علاقتها بأصحاب الإعلانات، وأن في مستطاع أصحاب الصحف الكبيرة أن يكونوا قراصنة يتقبلون كل رأي ومحطمين فاقدي الشعور للبدايات الحسنة. ويجيء في آخر الأمر أنه لم يكن لمؤسسي أمريكا أي معرفة بتعقيدات التلاعب بالأصوات. فإن "علم الانتخابات" بأجمعه كان أبعد أن يتناوله وهمهم، ولم يكونوا يعرفون شيئًا عن الحاجة إلى الصوت القابل للنقل لمنع طبخ الانتخابات بواسطة المنظمات المتخصصة، وكانت نتيجة الطرائق الصلبة التي كانوا يستعملونها – أن أصبح نظامهم السياسي فريسة محققة لأجهزة الحزب الكبير التي

سلبت الديمقراطية الأمريكية نصف حريتها ومعظم روحها السياسية. وأصبحت السياسة حرفة، وحرفة وضيعة جدًا. وانسحب كرام الرجال ومقتدروهم، بعد الفترة العظيمة الأولى تاركين ميدان السياسة إلى الأعمال، وانحطت روح الشعور بالدولة. وتحكم "المسعى الخاص" في كثير من الشئون العامة، لأن الفساد السياسي جعل "المسعى الجماعي" أمرًا مستحيلاً.

على أن نقائص النظام السياسي العظيم الذي خلفه أمريكيو فترة الثورة، لم تظهر على الفور. فإن تاريخ الولايات المتحدة لبث أجيالاً عدة، تاريخ اتساع سريع وقدر من الحرية، وسعادة ساذجة وعمل ناشط، على حال لا نظير لها جميعًا في تاريخ العالم. وبالرغم من حدوث انحرافات كثيرة نحو عدم المساواة وبالرغم من الكثير من قلة الخبرة والكثير من الأخطاء، فإن تاريخ أمريكا مع ذلك في المائة والخمسين السنة الأخيرة قصة تعادل في نصاعتها وشرفها قصة أي شعب معاصر آخر.

ولم يتهيأ لنا في هذا البيان الموجز الذي كتبناه عن إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية أن نتجاوز إلا قليلاً مجرد الإشارة إلى أسماء جماعة العظماء الذين بدءوا هذه البداية الجديدة في التاريخ الإنساني. وقد ذكرنا أسماءهم عرضًا، أو قل إننا حتى لم نذكر رجالاً من أمثال توماس بين وبنيامين فرانكلين وباتريك هنري وتوماس جفرسون وأبناء العم من أسرة آدامز ومايسون الكسندر هاملتون وجورج واشنجتون. ومن العسير على المرء أن يقيس رجال فترة ما من التاريخ برجال فترة أخرى. وقد يتأثر بعض الكتاب حتى الأمريكيين منهم بالأبهة المصطنعة التي تجلت في البلاطات الملكية الأوروبية وبالأعمال المدمرة المليئة بالبهرج والزيف التي قام بها أشخاص مثل فردريك الأكبر أو كاترين العظيمة، فيبدون إزاء مؤسسي أمريكا هؤلاء ضربًا مما قد يبديه محدثو النعمة من خجل إزاء شيء مصنوع بالمنزل. فإنهم يشعرون أن بنيامين فرانكلين إنما يبدو في بلاط لويس السادس عشر في شعره الطويل وثيابه البسيطة وخلقه الماكر شخصًا ينقصه الامتياز الأرستقراطي نقصًا محزنًا. ولكنهم إن جردوا حتى بدت شخصياتهم، لم يكد لويس السادس عشر يبلغ من المواهب ولا من نبل العقل الحد الكافي لجعله وصيفاً لفرانكلين. فإذا كانت العظمة الإنسانية تقاس بالمستوى والمعيار والبريق، فلا شك إذن أن الإسكندر الأكبر يتبوأ من العظمة الإنسانية ذروتها. ولكن هل العظمة هي ذلك الأمر؟ ألا يكاد الرجل العظيم أن يكون من إذا تولى منصبًا عظيمًا أو تهيأت له فرص عظيمة – وما المواهب العظيمة إلا فرص عظيمة – خدم الله وخدم إخوانه بقلب ملؤه التواضع؟ ولا ريب أنه يبدو أن عددًا جمًا من أمريكيي الزمن الثوري أولئك، قد أظهروا الشيء الكثير من الإخلاص والتجرد من الأغراض. كانوا لا جرم رجالاً محدودين، رجالاً غير معصومين من الزلل، ولكنهم يبدون في جملتهم وكأنما كانوا يعنون بالحكم الشعبي المتحرر الذي يخلقون، يعنون به في حد ذاته أكثر من عنايتهم به كغاية شخصية أو غرور شخصي. ومن المستحيل علينا ألا نخولهم عظمة ذهنية ممتازة.

ولا ننكر أنهم كانوا محدودي المعارف ضيقي أفق النظر إلى الأمور؛ إذ كاد يحدوهم محدد زمانهم وقيوده. كانوا – شأننا جميعًا – رجالاً تتنازعهم دوافع مختلفة؛ قد نشأت في أذهانهم حوافز طيبة وسرت في أجسادهم فكرات عظيمة. ومن الجائز كذلك أن تداخلهم نزعات الغيرة أو الكسل أو العناد أو الشر. فلو قدر

للمرء أن يكتب تاريخاً حقيقيًا كاملاً مدققاً لتكوين الولايات المتحدة، لوجب أن يكتب في روح من السماحة والجذل كما تُكتب ملهاة فاخرة ترتفع إلى أنبل الغايات. ولسنا نعثر على الروح الإنسانية الجزلة الملتوية المتجلية في القصة الأمريكية، قدر ما نعثر عليها ممتازة رائعة إزاء تجارة الرقيق. وإذا نحن راعينا مسألة العمال بصفة عامة – وجدنا الرق خير محك لهذه الروح الجديدة في التاريخ العالمي وأعني بها الروح الأمريكية.

ابتدأت تجارة الرقيق في وقت مبكر جدًا من تاريخ أمريكا الأوربي. وما من شعب أوربي ذهب إلى أمريكا بمبرأ براءة تامة من وزر ذلك الأمر. ومن الإنصاف أن نلحظ في وقت لما يزل فيه الألماني في أوربا من الناحية الخلقية كالمعاقب بجريرة غيره – إن سجل الألمان هنا خير السجلات وأنظفها من هذه الوجهة. وتكاد أول الأقوال الصريحة ضد استرقاق الزنوج تكون صادرة من مستوطنين ألمانيين في بنسلفانيا. ولكن المستوطن الألماني كان يشتغل بواسطة عمال أحرار فوق أرض معتدلة المناخ متوغلة كثيرًا في الشمال عن منطقة المزارع الكبرى؛ فلم يكن واقعًا إذن تحت تأثير مغريات خطيرة في هذا الشأن. ابتدأت تجارة الرقيق الأمريكية باسترقاق الهنود لتشغيلهم في مناسر العمال بالمناجم وفي المزارع الكبرى. ومن عجب أن يلحظ الإنسان أن لاس كاساس وهو الرجل الذي حض على استيراد الزنوج إلى أمريكا للحلول في العمل محل من تحت حمايته من الهنود المعذبين، كان بالفعل رجلاً طيبًا جدًا عطوفاً على الإنسانية. ذلك أن الحاجة إلى العمال الذين يشتغلون في المزارع الكبرى بجزر الهند الغربية وفي مناطق الجنوب كانت حاجة حتمية ملحة. وعندما ثبت أن الوارد من الأسرى الهنود غير كاف، شخص المزارعون لا إلى الزنوج فحسب بل إلى السجون وملاجئ الفقراء في أوربا لتزودهم بالعمال الكادحين. ولسوف يعلم قارئ كتاب مول فلاندرز من تأليف دانيال ديفو، الرأي الذي كان يراه إنجليزي ذكي الفؤاد عند بواكير القرن الثامن عشر في عملية الرقيق الأبيض الفرجينية. على أن الزنجي جاء في وقت مبكر جدًا فإن سنة ١٦٢٠ التي شهدت الآباء الحجاج ينزلون إلى البر في لميموث بنيوإنجلند، شهدت غليوناً هولنديًا يُنزل إلى البر أول شحنة من الزنوج في جيمس تاون بفرجينيا. فكأن عمر تجارة الرقيق الزنوج يناهز عمر نيوإنجلند وكانت تلك التجارة نظامًا أمريكيًا مضى عليه قبل حرب الاستقلال ما يربو على قرن ونصف من الزمان. وقدر لها أن تواصل حياتها في كفاح استمر الجزء الأكبر من قرن آخر.

على أن ضمائر المفكرين من رجال المستعمرات لم ترتح قط تمام الارتياح إلى هذه النقيصة، وكانت إحدى التهم التي وجهها توماس جفرسون لتاج بريطانيا العظمى ولوردتها، أن كل محاولة تبذل لتحسين الحال أو الوقوف في سبيل تجارة الرقيق من جانب المستعمرين كانت تحول دونها مصالح أصحاب الملكيات الكبرى في أرض الوطن الأم (أي إنجلترة). وفي سنة ١٧٧٦ كتب اللورد دارتموث إن المستوطنين لا يمكن أن يباح لهم "أن يحولوا دون تجارة لها مثل ذلك النفع العميم على الشعب أو يثبطوها". وقفزت مسألة استرقاق الزنوج إلى منزلة الصدارة من الضمير العام بفضل نشوء التخمر الأخلاقي الذي حدث إبان الثورة. وظهر التباين والتحادّ واضحًا وهَّاجًا لعين العقل. فإن قانون الحقوق الفرجيني يقول " كل الرجال بطبيعتهم

أحرار متساوون"، ومع ذلك فإذا خرج الإنسان إلى العراء وجد العبد الزنجي يكدح في ضياء الشمس تحت سوط "ريّس" العمال!!!.

ومما يشهد بالتغيير العظيم في الفكرات الإنسانية منذ أن انحل النظام الإمبراطوري الروماني أمام هجمات البرابرة أن أصبح في الإمكان أن يقوم الناس بمثل هذا البحث في زوايا قلوبهم وخبايا ضمائرهم. فإن ظروف الصناعة والإنتاج وحتى ملكية الأراضي قد حالت زمانًا طويلاً دون حدوث انتفاضة جديدة لنظام مناسر الأرقاء. ولكن الدورة ما لبثت أن دارت كرة أخرى، وكانت هناك مزايا مباشرة هائلة تحصدها الطبقات المالكة والحاكمة من وراء انتعاش ذلك النظام القديم، في المناجم والضياع الكبرى والأشغال العامة الكبيرة. فبعث النظام ولكن قامت في وجهه معارضة عظيمة. وتعالت الأصوات منذ بداية ذلك الابتعاث باحتجاجات لم تبرح تتزايد وتشتد. إذ كان استحياء تلك العادة مضادًا لضمير البشرية الجديد. وكان النظام الجديد لاسترقاق المناسر أسوأ في بعض مناحيه من أي شيء في العالم القديم. ومما كان فظيعًا مرعبًا بوجه خاص ما كانت تؤججه تلك التجارة من حروب لاصطياد الرقيق، وما كان يجري من طراد الإنسان في إفريقيا الغربية، ومن قساوات الرحلة الطويلة عبر المحيط الأطلسي. فإن هؤلاء المساكين كانوا يعبئون في السفن وليس معهم في غالب الأمر ما يكفيهم من الماء والطعام ودون الرعاية الصحية الواجبة ودون أدوية على الإطلاق. حتى لقد كان الكثيرون ممن يستطيعون أن يتسامحوا مع الاسترقاق على أرض الضياع الكبرى يرون تجارة الرقيق شيئًا لا تستطيع أن تسيغه أخلاقهم. وكانت شعوب أوربية ثلاثة مشتغلة بوجه رئيسي بهذا العمل البشع، وهي بريطانيا وإسبانيا والبرتغال لأنها كانت أكبر ملاك الأراضي الجديدة في أمريكا فأما البراءة النسبية للشعوب الأوروبية الأخرى فترجع في الغالب إلى أن نصيبهم من المغريات كان أصغر. كانوا مجتمعات مماثلة لتلك، فلو أتيحت لها ظروف مماثلة لتصرفت تصرفًا مماثلاً.

وقد ألم بالنفوس هياج ناشط طوال الجزء الأوسط من القرن الثامن عشر ضد استرقاق الزنوج في بريطانيا العظمى وفي الولايات على السواء. وقدر عدد الأرقاء في إنجلترة في سنة ١٧٧٠ بخمسة عشر ألف عبد استجلب أصحابهم معظمهم من جزر الهند الغربية وفرجينيا. وفي سنة ١٧٧١ وصل النزاع إلى امتحان نهائي في بريطانيا أمام اللورد مانسفيلد. فإن زنجيًا اسمه جيمس سومرست أحضره سيده من فرجينيا إلى إنجلترة. ففر ثم قبض عليه وأخذ أخذًا عنيفًا إلى إحدى السفن لكي يعاد إلى فرجينيا. فاستخلص من السفينة بحكم نص في "قانون المثول Habeas Corpus". وأعلن اللورد مانسفيلد أن الرق حالة لا يعرفها القانون الإنجليزي، وأنه حالة "بغيضة"؛ وعند ذلك خرج سومرست من المحكمة رجلاً حرًا.

وكان دستور ١٧٨٠ لماساشوستس قد أعلن أن "الناس جميعًا يولدون أحرارًا ومتساويين". وقام زنجي بعينه اسمه كواكو بوضع هذا النص تحت الاختبار في ١٧٨٣، وفي تلك السنة أصبحت أرض ماساشوستس مثل أرض بريطانيا لا تتسامح مع الرق؛ فكان مجرد الدخول إليها معناه الانتقال إلى الحرية. ولم تنح هذا النحو في ذلك الزمان ولاية أخرى من ولايات الاتحاد. وفي تعداد ١٧٩٠ كانت ماساشوستس هي الولاية الوحدة التي لم تسجل وجود "عبد واحد بها".

وآراء الناس في فرجينيا جديرة بالملاحظة، لأنها تكشف القناع عن الصعوبات الخاصة التي كانت تواجه الولايات الجنوبية. فإن كبار رجال السياسة الفرجينيين من أمثال واشنجتون وجيفرسون كانوا يطعنون في ذلك النظام، ومع هذا فإن واشنجتون كان يمتلك العبيد إذ لم يكن هناك أي شكل آخر للخدمة المنزلية. ونشأ بفرجينيا حزب قوي يناصر إعتاق الرقيق؛ على أنهم كانوا يطالبون بأن يغادر العبيد المعتقون الولاية في مدى سنة من الزمان وإلا اعتبروا خارجين على القانون. وكان من الطبيعي أن ينزعجوا من احتمال وجود مجتمع همجي حرّ من السود، الكثير من أفراده مولودون بإفريقيا ومتشبعون بتقاليد أكلة لحم البشر وشعائر دينية سرية مرعبة – يقوم إلى جوارهم على الأراضي الفرجينية. فلو أنا تأملنا وجهة النظر هذه استطعنا أن نفهم لماذا حدث أن عددًا كبيرًا من الفرجينيين مال إلى الاحتفاظ بكتلة السود في البلاد تحت الرقابة بوصفهم عبيدًا، على حين كانوا في نفس الوقت يعارضون تجارة الرقيق واستيراد أي دم جديد من أفريقيا معارضة مريرة. ومن اليسير على الإنسان أن يدرك أن السود الأحرار قد يصبحون بسهولة شوكة مضايقة؛ والواقع أن ولاية ماساشوستس الحرة أغلقت للوقت حدودها في وجههم.

ومن هنا يتضح أن مسألة الرق التي لم تكن في العالم القديم سوى مسألة "حالة" أو وضع لأفراد بينهم مماثلة عنصرية [1]، قد انغمرت في أمريكا مع مسألة مخالفة لها وأشد منها عمقًا هي مسألة العلاقات بين عنصرين من السلالة الإنسانية على طرفي نقيض، كما أنهما على أشد التباين في التقاليد والثقافة. فلو أن الرجل الأسود كان أبيض، فلا مجال للشك في أن استرقاق الزنوج كان يمتنع من الولايات المتحدة في مدى جيل واحد من ساعة إعلان الاستقلال بوصفه نتيجة طبيعية للبيانات الواردة في ذلك الإعلان.

---

[1] عنصرية (Racial): تقوم على العنصر الإنساني وفوارقه أو تماثلاته. (المترجم)

٧- الفكرة الثورية في فرنسا

تكلمنا عن حرب استقلال أمريكا ووصفناها بأنها أول انفصال عظيم عن نظام الملوك الأوربيين ووزارات الخارجية الأوربية، وبأنها رفض مجتمع جديد لصناعة السياسة الميكيافلليّة بوصفها الصورة المدبِّرة للشئون الإنسانية. وما انقضت عشر سنوات حتى وافت ثورة ثانية أشد من الأولى إيذاناً بالشر، ثورة قامت ضد هذه اللعبة العجيبة:

لعبة الدول العظمى، وأعني بذلك التفاعل المعقد بين البلاطات والسياسات الذي أشربت به عقلية أوربا. على أنه لم يكن في هذه المرة حركة انفصال بعيدة الشقة. حدثت هذه الفتنة الثانية في فرنسا مهد الملكية العظمى وموطنها وقلب أوربا ومركزها. وعلى النقيض من المستوطنين الأمريكيين الذين اكتفوا بمجرد نبذ الملك، قام الفرنسيون بقطع رأس ملكهم مترسمين خطى الثورة الإنجليزية. والثورة الفرنسية شأن الثورة البريطانية وشأن الثورة في الولايات المتحدة، يمكن تعقبها حتى مصادرها الأولى متمثلة في سخافات الملكية ومطامعها. فإن خطط التوسع وأغراض الملك الأعظم وتدبيراته، استلزمت من الإنفاق على عتاد الحرب في كل أرجاء أوربا ما يتجاوز كل تناسب مع طاقة العصر في الضرائب. ناهيك بأن ترف الملكية ومظاهر بذخها كانت تتكلف نفقات باهظة بالقياس إلى الإنتاج في ذلك الوقت. وقد حدث في فرنسا كما حدث بالضبط في بريطانيا وأمريكا أنه لم تكن المقاومة الأولى موجهة ضد الملك بوصفه ملكاً ولا ضد سياسته الخارجية بوصفها سياسة خارجية بل إلى ما يتسبب عنها من مضايقات وتكاليف تلم بحياة الأفراد، كذلك لم يميز الناس تمييزًا واضحًا أن أصل الشر ينحصر في تلك الأمور. وطاقة فرنسا الفعلية على دفع الضرائب كانت لا محالة أقل كثيرًا نسبيًا من طاقة إنجلترة بسبب الإعفاءات المتنوعة التي كان يستمتع بها النبلاء ورجال الكنيسة. ولذا كان العبء الملقى إلقاءً مباشرًا على عاتق عامة الشعب أثقل وأفدح. وهذا الإعفاء جعل الطبقات العليا أعواناً للبلاط، بدل أن يناصبوا البلاط العداء شأنهم في إنجلترة؛ وبذا ساعد على إطالة أمد الخراب؛ حتى إذا تناهى الأمر فعلاً إلى درجة الانفجار، كان الانفجار أشد عنفاً وتمزيقاً وتدميرًا.

ولم تكن هناك أثناء سنوات حرب الاستقلال الأمريكية إلا أمارات قليلة تؤذن بأن انفجارًا يوشك أن يحدث في فرنسا. أجل كانت التعاسة متفشية بين الطبقات الدنيا، وكان النقد ناشطاً والتهكم ذائعاً. والتفكير المتحرر الصريح وفيرًا، ولكن لم يبد هناك إلا أقل النذر بأن الوضع في مجمله وبكل ما فيه من عرف وعادات واختلافات مألوفة، قد لا يستمر في طريقه زماناً لا آخر له. كانت فرنسا تتجاوز في استهلاكها كل طاقة لها على الإنتاج. ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يحس آلام الوخزة إلا الطبقات التي ليس لها لسان تئن به. وكان المؤرخ جيبون يعرف فرنسا خير المعرفة، فقد كان بصيرًا بباريس بصره بلندن؛ ولكن أحدًا لا يستطيع أن يحس منه في الفقرة التي اقتبسناها خلجة ارتياب تنبئ بأن أيامًا من الانحلال السياسي والاجتماعي وشيكة دانية. ولا ريب في أن العالم كان يزخر بالسخافات والمظالم، ومع هذا فإنه من وجهة نظر المفكر العالم والجنتلمان كان على درجة لا بأس بها من الرفاهية كما كان يلوح في حال لا بأس بها من الطمأنينة.

نعم ظهر في فرنسا في ذلك الزمان قدر كبير من التفكير الحر والخطابة الحرة والعاطفة الحرة. وقام في فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر، مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥) ضريبًا لجون لوك في إنجلترة وإن تأخر عنه بعض الزمان. فوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت نفس الفحص والتحليل الجوهري وبخاصة في كتابه "روح القوانين".

وقد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية، وهو يقاسم لوك فضل إزالة كثير من الفكرات الخاطئة التي كانت حتى حينذاك تحول دون المحاولات الواعية المقصودة لإعادة بناء الجماعة الإنسانية. ولئن حدث في بداية الأمر أن أقيمت في الأرض البراح المتخلفة عن ذلك الهدم أكواخ هزيلة مفرطة في الضعف بالغة الغاية في عدم الاستقرار، فإن ذلك لم يكن راجعًا إلى خطئه هو. فإن الجيل الذي عقبه في أواسط القرن الثامن عشر وأخرياته، كان يفكر تفكيرًا جريئًا فيما قام به ذهنيًا وخلقيًا من هدم وإزالة. وتألفت جماعة من أذكياء الكتّاب هم "الموسوعيون" – ومعظمهم ذوو أرواح ثائرة ممن تخرجوا في مدارس اليسوعيين الممتازة – ونهضت تحت قيادة ديدروه (Diderot) لوضع الخطط لعالم جديد (١٧٦٦) بوساطة مجموعة من المؤلفات. ويقول ماليه (Mallet)، "إن مجد الموسوعيين ينحصر في كراهيتهم لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق، وعدم التسوية بين الناس في الضرائب، وفساد العدالة، والدمار الذي تجره الحروب... وفيما كانوا يحلمون به من التقدم الاجتماعي، وما كان يخالجهم من عطف على "دولة" الصناعة الناهضة التي شرعت تحول العالم تحويلاً". ويلوح أن غلطتهم الرئيسية تنحصر في مناصبتهم الأديان عداوة عمياء. فإنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان عادل بطبعه كفء من الناحية السياسية، على أن اندفاعه نحو الخدمة الاجتماعية ونكران الذات لا يتطور في العادة إلا بطريق تعليم يكون بالضرورة تعليمًا دينيًا، ولا يدعمه إلا جو من التعاون الشريف. فأما المبتكرات الإنسانية غير المنسّقة فإنها لا تؤدي إلى شيء سوى الفوضى الاجتماعية.

وقامت إلى جانب الموسوعيين جماعة الاقتصاديين أو الفيزيوقراطيين، الذين كانوا يقومون بأبحاث جريئة فجة في شئون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها. وقد شهّر مؤلف "قانون الطبيعة [١]" بنظام الملكية الخاصة من الناحية الأخلاقية واقترح إنشاء تنظيم شيوعي للمجتمع. كان هو البشير المؤذن بظهور تلك المدرسة الكبيرة المنوعة، مدرسة المفكرين الجماعيين [٢] أو الحشديين في القرن التاسع عشر وهم الذين يجمعهم الناس تحت اسم الاشتراكيين.

وكان كل من الموسوعيين ومختلف فرق الاقتصاديين أي الفيزيوقراطيين يطلبون من تلاميذهم قدرًا جسيمًا من التفكير الشديد العميق. وثمة زعيم ألين معطفًا وأقرب إلى قلوب الناس هو روسُّو (١٧١٢ – ١٧٧٨). أظهر مزيجًا عجيبًا من الصلابة المنطقية والحماسة العاطفية. وكان يبشر بالمبدأ الجذاب القائل بأن

---

[1] قانون الطبيعة: Code de la Nature

[2] الجماعيون: Collectivists. هم أنصار المذهب الجماعي المطابق للاشتراكية، لولا أنهم لا يدخلون الثورة في خططهم. ومذهبهم يقوم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والتبادل تحت هيمنة الحكومة. (المترجم)

حالة الإنسان البدائية كانت حالة فضيلة وسعادة، انحدر عنها نتيجة لنشاط القساوسة والملوك والمحامين ومن إليهم نشاطًا لا يكاد يبدو له سبب يفسره. وكان تأثير روسو الذهني تأثيرًا مفسدًا للأخلاق على وجه العم وم. إذ إنه لم يصب فقط بضرباته البناء الاجتماعي القائم بل مس كل تنظيمة اجتماعية! والظاهر أنه حين كت ب عن "العقد الاجتماعي" كان يلتمس المعاذير لنقص ذلك العقد – الذي كتب عنه – أكثر مما يؤكد ضرورته.

والإنسان بعيد كل البعد عن الكمال حتى إنه يعلي قدر كاتب يناصر مناصرة ظاهرة رأيًا قائلاً بأن ه لا إثم ولا جناح على من ينكر ديونه ومن ينحرف في سلوكه الجنسي، ويهرب من أعباء تعليم نف سه وغي ره ويتحاشى ما يكلفه ذلك التعليم من نفقات، ويقول إن ذلك السلوك ما هو إلا مظه ر م ن مظ اهر الف ضيلة الطبيعية مع أن هذا هو الاتجاه الذي يكاد يكون عامًا للأهواء، والذي ينبغي علين ا أن نحم ي أنف سنا من ه ونقاومه، والإنسان كذلك بعيد عن الكمال حتى إن كاتبًا كهذا يقدر له أن يكون صاحب مذهب يتبعه جمه ور كبير من الناس من كل الطبقات التي تستطيع قراءة ما يكتبه. وقد ساعدت بدعة روسو الخطي رة م ساعدة كبرى على إشاعة طريقة عاطفية وشديدة الجرأة والخروج في معالجة المسائل السياسية والاجتماعية.

وقد لاحظنا من قبل أنه لم يحدث حتى اليوم أن مجتمعًا إنسانيًا واحدًا بدأ يومًا عمله على أساس نظري. فلابد من أن يحدث أولاً انهيار ما وحاجة إلى التوجيه تسمح للنظريات بأن تتبوأ مكانها. ولا ب د أن كتاب ات وأحاديث المفكرين الفرنسيين الجمهورية والفوضوية، كانت حتى ١٧٨٨ تلوح أمورًا لا تأثير لها ولا قيمة من الناحية السياسية شأن اشتراكية وليم موريس [1] الجمالية (الإسطيقية) في إنجلترة في نهاي ة الق رن التاس ع عشر. فهناك في فرنسا، كان النظام الاجتماعي والسياسي يسير في طريقه ثابتًا قويًا كأنما سيعيش أبدًا، فكان الملك الفرنسي يخرج للقنص أو يصلح ساعاته، وكان البلاط وعالم الطبقة الراقية يواصلان ملذاتهما، وك ان الماليون لا ينون عن تدبير وسائل التوسع لمشروعاتهم في الائتمان؛ وكانت الأعمال التجارية تت ردى ف ي الخطأ وهي تسير في سماجة على نفس امتداد طريقها القديم البالي، تبهظها ال ضرائب والمك وس، وك ان الفلاحون يحملون الهموم ويكدحون ويقاسون الويلات، وتمتلئ نفوسهم بكراهية يائسة لقصر النبي ل. وك ان الرجال يتكلمون ويحسون أنهم يتكلمون دون جدوى. وكان في الإمكان أن يقال أي شيء إذ كان يبدو أن ل ن يحدث أي شيء.

---

[1] وليم موريس (١٨٣٤ – ١٨٩٦): شاعر واشتراكي وفنان. تعلم في أكسفورد وتأثر براسكن. أنشأ م صنعًا للأث اث وورق الجدران وزخارف الكنائس وأصدر كتبًا شعرية عديدة. (المترجم).

٨- ثورة سنة ١٧٨٩

وجاءت في ١٧٨٧ أول درجة أصابت هذا الاستمرار المطمئن للحياة في فرنسا. فإن لويس السادس عشر (١٧٧٤ – ١٧٩٣) كان ملكًا غبيًا سيئ التعليم. وكان من سوء طالعه أنه تزوج من امرأة حمقاء مبذرة، هي ماري أنطوانيت شقيقة إمبراطور النمسا. ومسألة اتصافها بالفضيلة والعفة من المسائل التي تثير اهتمام طراز معين من كتاب التاريخ، على أنا في غير حاجة إلى مناقشتها في هذا المكان. فكانت كما يقول بول ويرياث [1] " تعيش جنبًا إلى جنب مع زوجها لا إلى جانبه". وهي تكاد تكون غليظة القسمات، ولكن وجهها لم يكن عاديًا إلى حد يمنع أن تتخذ وضع الملكة الجميلة الرومانسية المختالة. فلما أن استنفدت موارد وزارة المالية في الحرب في أمريكا، وعندما كانت البلاد بأسرها تتقلب على جمر التذمر والقلق، ذ صبت كل سلطانها لغل أيدي وزراء الملك عن أية محاولة للاقتصاد، ولتشجيع كل نوع من أنواع الإسراف الأرستقراطي، ولإعادة الكنيسة والنبلاء إلى المركز الذي كانوا يتبوءونه في الأيام العظيمة أيام لويس الرابع عشر. وكانوا يريدون أن يخلعوا من الجيش الضباط غير الأرستقراطيين؛ وأن يبسطوا من سلطة الكنيسة على الحياة الخاصة. ووجدت في موظف من الطبقة العليا هو كالوني المثل الأعلى لوزير ماليتها. فمنذ ١٧٨٣ إلى ١٧٨٧ ظل هذا الرجل العجيب ينتج النقود بطريقة تشبه السحر، ثم تختفي هذه النقود ثانية بطريقة تشبه السحر أيضًا، ثم انهار في ١٧٨٧. وكان قد طبق القرض فوق القرض، وعند ذلك أعلن أن الملكية، أي الملكية العظيمة التي حكمت فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر – قد أفلست. ولم يعد في الطوق جمع أي نقود جديدة. ولا بد من عقد جمعية من ذوي الرأي والمكانة في المملكة للنظر في الموقف.

وقدّم كالوني إلى اجتماع ذوي المكانة ذاك، وهو جمعية من القادة والزعماء وجهت إليهم الدعوة للانعقاد، مشروعًا بأخذ ضريبة مالية على كل عقار من الأرض. فأثار ذلك الأرستقراطيين إلى درجة من الغضب عظيمة. فطالبوا بدعوة هيئة تعادل على وجه التقريب البرلمان الإنجليزي – وهي "مجلس الطبقات States General" الذي لم يجتمع منذ ١٦١٤. وأصر ذوو المكانة الفرنسيون على طلبهم ذاك دون أن يتنبهوا إلى أنهم سينشئون بذلك لسانًا يعبر عما يخالج من دونهم من الطبقات من تذمر، لا يحفزهم على ذلك إلا محاربة الاقتراح القائل بأنهم يجب أن يتحملوا نصيبًا من أثقال البلاد المالية. ومن ثم اجتمع مجلس الطبقات في مايو ١٧٨٩.

وكان ذلك المجلس جمعية تضم ممثلي هيئات ثلاث: النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة أي العامة. وكان حق التصويت للطبقة الثالثة متسعًا جدًا، إذ كاد أن يكون لكل دافع ضرائب بلغ الخامسة والعشرين صوت. (وكان قساوسة الأبروشيات يعطون أصواتهم بوصفهم من رجال الدين، والنبلاء الصغار بوصفهم نبلاء). وكان مجلس الطبقات هيئة ليس لإجراءاتها أي تقاليد ولا سوابق. وأرسلت الاستفسارات في هذا الصدد إلى الخبراء بالشئون القديمة "بأكاديمية المخطوطات". ودارت مناقشاته الأولى حول مسألة هل له أن

---

[1] الموسوعة البريطانية مادة (France).

يجتمع كهيئة واحدة أو كهيئات ثلاث، يكون لكل طبقة فيها صوت معادل. ولما كان عدد رجال الدين ٣٠٨ والنبلاء ٨٥ والنواب ٦٢٢، فإن الترتيب الأول يضع الأغلبية المطلقة بين أيدي العامة، ويعطيهم الترتيب الثاني صوتاً واحدًا من ثلاثة. كذلك لم يكن لمجلس الطبقات مكان ينعقد فيه. فهل يجب أن يجتمع في باريس أو في إحدى مدن المقاطعات؟ واختيرت فرساي "بسبب الصيد". وواضح أن الملك والملكة كانا يقصدان أن يعالجا هذه الضجة المثارة حول المالية القومية معالجتهم لأي شيء ثقيل مزعج، وأن يسمحا للمجلس بالتدخل في نظامهما الاجتماعي بأقل قدر مستطاع. وإنا لنرى الاجتماعات تتواصل في قاعات مهملة ليس بأحد إليهما حاجة أو في صوبات البرتقال وملاعب التنس وما إليها.

وكان أخذ الصوت، وهل هو بالطبقة أو بالشخص أمرًا واضح الأهمية الحيوية. وتجادل القوم فيه مدة ستة أسابيع. حتى إذا اقتبست الطبقة الثالثة بضع صفحات من كتاب [1] مجلس العموم الإنجليزي، راحت تعلن أنها وحدها هي الممثلة للشعب، وأنه ينبغي ألا تجبى أية ضرائب من ذلك الحين إلا بعد إقرارها إياها. وعند ذلك أغلق الملك القاعة التي كان يجتمع فيها، وأعلن أنه يحسن بالنواب أن ينصرفوا إلى منازلهم. وبدلاً من ذلك اجتمع النواب في ملعب للتنس مناسب، وهناك أقسموا يميناً هو يمين ملعب التنس: – ألا يتفرقوا حتى ينشئوا لفرنسا دستورًا. واتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثالثة عنوة. ولكن الجنود رفضوا أن يطيعوا. وعند ذلك خضع الملك بشكل فجائي خطر وقبل المبدأ القائل بأن الطبقات الثلاث يجب أن تتناقش كلها وتعطي صوتها بصفتها جمعية وطنية واحدة. وفي نفس الوقت نقلت إلى فرساي بتحريض ظاهر من الملكة، فرق أجنبية تعمل في خدمة الجيش الفرنسي ويمكن أن يعتمد عليها في العمل ضد الشعب، إذ استقدمت تلك الفرق من الأقاليم تحت قيادة المارشال دي بروجلي، وأعد الملك العدة للتراجع في منحته. وعندئذ تمردت باريس وفرنسا. وتردد بروجلي في إطلاق النار على الجماهير. وأقيمت حكومة مدنية مؤقتة في باريس وفي معظم المدن الكبيرة الأخيرة، وأنشأت تلك الحكومات البلدية قوة مسلحة جديدة هي الحرس الأهلي، وهي قوة معدة أولاً وبشكل ظاهر لمقاومة قوات العرش.

وكان عصيان شهر يوليه ١٧٨٩ هو في الحقيقة الثورة الفرنسية الفعالة. وأخذ شعب باريس عنوة سجن الباستيل الجهم لقاء مقاومة ضعيفةً جدًا. وانتشر التمرد سريعًا إلى كل أرجاء فرنسا. وأحرق الفلاحون في المقاطعات الشرقية والشمالية الغربية كثيرًا من قصور النبلاء ودمروا صكوك ألقابهم، وقتلوا أصحاب القصور أو طردوهم منها. وانتشر العصيان في كل أرجاء فرنسا. ولم يمض شهر حتى كان نظام هيئة الأرستقراطية البالي القديم قد انهار. وفر إلى الخارج كثير من كبار الأمراء ورجال البلاط من حزب الملكة. ووجدت الجمعية الوطنية نفسها تدعى لإنشاء نظام جديد سياسي واجتماعي لعصر جديد.

---

[1] أعني أن الجمعية قلدته وحذت حذوه. (المترجم).

٩- الجمهورية الفرنسية المتوجة

٨٩ – ٩١

كانت الجمعية الوطنية الفرنسية أقل توفيقًا بكثير في ظروف عملها من الكونجرس الأمريكي. فقد كان ذلك الكونجرس يجد بين يديه نصف قارة يتصرف فيه بملء حريته، وليس أمامه من خصم يعارضه إلا الحكومة البريطانية. وكانت منظماته الدينية والتعليمية متنوعة، وهي في مجموعها غير ذات قوة كبيرة ولكنها تنطوي في الجملة على الود والصداقة نحوه. وكانت الشقة نائية بينه وبين الملك جورج في إنجلترة، وقد أخذ ينحدر في بطء نحو حالة من البلاهة. ولكن معالجة أحكام الدستور وجعله فعالا اقتضت من الولايات المتحدة سنوات كثيرة. وكان الفرنسيون من الناحية الأخرى محوطين بجيران ميالين إلى العدوان لهم فكرات ميكيافللية، ويجثم على صدورهم ملك وبلاط يصران على عمل الشر، وكانت الكنيسة هيئة موحدة عظيمة ترتبط بالنظام القديم ارتباطًا لا انفصام له. وكانت الملكة على تراسل متواتر مع الكونت دارتوا والدوق دي بربون والأمراء المبعدين الآخرين الذين كانوا يحاولون أن يحملوا النمسا وبروسيا على مهاجمة الشعب الفرنسي الجديد. هذا إلى أن فرنسا كانت من قبل ذلك قطرًا مفلسًا على حين كانت للولايات المتحدة موارد لا نهاية لها لم تمتد إليها يد التنمية بعد، وكانت الثورة بإقدامها على تغيير نظام ملكية الأراضي والعمل بالأسواق قد أنتجت اضطرابًا اقتصاديًا ليس له مثيل في حالة أمريكا.

تلك هي صعوبات الموقف التي لم يكن إلى تجنبها سبيل. ولكن الجمعية خلفت لنفسها بالإضافة إلى ذلك صعوبات أخرى. فلم تكن هناك إجراءات منظمة. على حين كان لمجلس العموم الإنجليزي ما يربو على خمسة قرون من خبرته في عمله وعبثًا ما حاول ميرابو أحد كبار عظماء الثورة الأولى، أن يحمل إخوانه على اقتباس القواعد الإنجليزية المتبعة بمجلس العموم. ولكن شعور الزمان كان ميالاً بكليته إلى الصياح والمقاطعات الدرامية، وما شاكل ذلك من إظهار "الفضيلة الطبيعية". وليت الفوضى اقتصرت على أعضاء الجمعية وحدهم. فقد كانت هناك شرفة كبيرة للزوار – شرفة فاقت في كبرها كل حد مناسب، فمن ذا الذي يمنع المواطنين الأحرار من أن يكون لهم صوت في الرقابة القومية؟ ومن ثم كانت هذه الشرفة تغص بجمهور من الناس تواق إلى الاستمتاع "بمشاهدة التهاتر والخصومات"، مستعد للتصفيق أو الصياح لإسكات الخطباء المتكلمين من تحته. اضطر الخطباء الأوسع مقدرة أن يلعبوا لأصحاب الشرفة، وأن يسلكوا سبلاً عاطفية مثيرة للحواس. وكان من السهل إبان الأزمات أن يدخل كل من شاء جماعة من الغوغاء يقضون على المناقشة.

على هذه الشاكلة شرعت الجمعية وهي مغلولة الأيدي في القيام بواجبها الإنشائي. وفي اليوم الرابع من أغسطس أحرزت نجاحًا أخاذًا عظيمًا فأصدرت – يقودها كثيرٌ من أحرار النبلاء – سلسلة من القرارات، تلغي نظم موالي الأرض (Serfs) والامتيازات والإعفاء من الضرائب، والعشور ومحاكم الإقطاع. (ومع هذا فإن هذه القرارات لم تدخل حيز التنفيذ في أجزاء كثيرة من البلاد إلا بعد ذلك بثلاث سنوات أو أربع).

وذهبت الألقاب فيما ذهب. وقبل أن تصبح فرنسا جمهورية بزمن مديد كان من الجرائر أن يوقع النبيل باسمه مقروناً بلقبه. وحبست الجمعية نفسها طوال أسابيع ستة (استمتع فيها علم البيان بفرص ذهبية لا نهاية لها؟!)، على صوغ "إعلان لحقوق الإنسان" على غرار قوانين الحقوق التي كانت هي التوطئة الإنجليزية الممهدة للتغير المنظم. وشرع البلاط في نفس الوقت يدبر المؤامرات لإحداث انقلاب رجعي وشعر الناس أن البلاط يأتمر بهم. وتتعقد القصة ها هنا في خطط فيليب دورليان ابن عم الملك وتدبيراته النذلة الخسيسة، وكان يأمل أن يستخدم الخلافات للحلول محل لويس على العرش الفرنسي. وفتحت حدائقه في الباليه رويال – Palais Royal للجمهور، وأصبحت مركزًا عظيمًا للمناقشات المتطرفة. وفعل وكلاؤه الشيء الكثير لإذكاء حدة شبهات الشعب نحو الملك. وبلغت الأمور حدًا لا يطاق بسبب نقص في المواد الغذائية اعتبرت حكومة الملك مسئولة عنه.

وسرعان ما ظهرت بفرساي الفرقة الفلاندرية [1] الموالية للملك. وكانت العائلة الملكية تدبر التدابير لتزداد بعدا عن باريس – لكي تتحلل من كل شيء أبرم وتستعيد الاستبداد والتبذير. فانزعج الملكيون الدستوريون أمثال الجنرال لافاييت أيما انزعاج. وحدث في ذلك الوقت أن اندلع غضب الناس عامة لقلة الطعام، وتحول في دور انتقال هين إلى غضبة قوية ضد ما يتهدد القوم من الحركة الرجعية الملكية. إذ كان الاعتقاد السائد أن قصر فرساي يضم قدرًا وفيرًا من المواد الغذائية؛ وأن الأطعمة كانت تختزن هناك بعيدةً عن أيدي الجمهور. وكان الاضطراب قد غلب على عقول الجمهور بسبب شائعات لعلها كانت مبالغًا فيها، عن إقامة مأدبة حديثًا في فرساي، تجلى فيها العداء للشعب. وإليكم بعض المقتطفات من وصف كارليل لهذه المأدبة التاعسة:

"سمح بقاعة الأوبرا. وسوف تصبح قاعة هرقل حجرة استقبال. ولم يقف الأمر عند حد ضباط فلاندر. بل تعداه إلى الضباط السويسريين، السويسريين المائة. كلا بل ضباط الحرس الوطني بفرساي، فمن كان منهم يحمل في قلبه مسكة من الولاء يحضر المأدبة. ولسوف تكون وليمة قل نظيرها.

"والآن هب أن هذه الوليمة أعني أن القسم الوقور منها قد تم؛ وأن الزجاجة الأولى قد احتسيت. وهبْ أن نخب الولاء المألوف قد شرب؛ فجاء نخب صحة الملك؛ ثم نخب الملكة في هتافات تصم الآذان؛ وأسقط نخب الشعب أو قُل نُبْذ... وافرض أن الشمبانيا تفيض أنهارًا، ويصحب ذلك خطب كلها شجاعة وإقدام، ولكنه إقدام السكارى المخمورين، هذا إلى عزف آلات موسيقية؛ ويأخذ خفاف الأحلام في رفع عقيرتهم أكثر فأكثر، كل يطاول أخاه خفة ويطاوله ضجة وعججًا. فأما صاحبة الجلالة وهي تبدو الليلة محزونة الفؤاد بشكل غير عادي (وصاحب الجلالة جالس قد ملأه القنص في طول يومه بالتبلد)، فهم يخبرونها أن منظر الوليمة سيدخل إلى فؤادها السرور. انظروا إليها إنها تدخل هناك خارجة من حجراتها الفاخرة خروج القمر من بين أطباق الغمام، هذه الملكة الناعسة أبدع مليكة على عرش الأفئدة؛ يسير إلى جوارها الزوج الملكي،

[1] فلاندر Flanders هو الاسم الذي كان يطلق قديمًا على المنطقة الشمالية الشرقية من فرنسا وعلى بعض أجزاء من بلجيكا وهولندة. (المترجم)

وولى العهد الصغير بين ذراعيها. وها هي ذي تنزل من المقاصير، بين مظاهر الروعة والفخامة والتهليل، وتسير حول المناضد سير الملكات؛ وهي تحني رأسها برشاقة؛ وتنظر نظرات تنم عن الحزن والأسى، يخالطه مع ذلك معنى الشكران والإقدام، وعلى صدرها الأموي الحنون معقد رجاء فرنسا المنتظر. ثم تعزف الجوقة الموسيقية: يا ريكارد – يا – يا – مليكي، إن العالم يتخلى – عنك. فهل يستطيع الإنسان أن يفعل أكثر من أن تتعالى به العواطف إلى أقصى حد شفقةً وولاء وشجاعة؟ وهل يستطيع الضباط الشبان خفاف الأحلام إلا أن يظهروا بواسطة قبعاتهم البوربونية البيضاء، التي سلمتها إليهم الأنامل الجميلة؛ وبتلويح السيوف التي استلت للقسم على صحة الملكة؛ والدوس على القبعات القومية بالأقدام؛ وبتسلق المقاصير التي قد يصدر منها أصوات تدخّل أو احتجاج، وبالصياح بأنكر الأصوات وأشد الحنق وفقدان الرشد في الداخل والخارج – مبلغ الحالة الجوفاء العاصفة التي هم عليها أثناء تناولهم النخب؟.

"وليمة طبيعية؛ هي في الأوقات العادية أكلة لا ضير فيها ولكنها الآن قتالة.. فإن ماري أنطوانيت المسكينة قد تجمّع حولها فصحاء السوء، وحفلت بما في المرأة من حدة الطباع، وحرمت بُعد نظر الملوك! فالأمر إذن طبيعي جدًا وهو مع ذلك من الحماقة بمكان. ففي اليوم التالي تصرح جلالتها في خطبة رسمية عامة أنها مبتهجة بيوم الخميس". ولنضع مقابل هذا تصوير كارليل لحالة الشعب.

"تستيقظ" الأمومة" في صبيحة الاثنين في طوابق السطوح القذرة، فتسمع أطفالها يبكون طالبين الخبز. ولا بد للأمومة من الانطلاق إلى الشوارع وإلى صفوف (طوابير) باعة الخضر والخبازين. حيث تلتقي بأمومة قد أضرت بها المخمصة، وهي مليئة بالعطف عليها والإثارة لها. يا لنا من نساء تعسات! ولكن بدلاً من الوقوف في صفوف الخبازين لماذا لا نذهب إلى قصور الأرستقراطية التي هي الشر كله؟ هيا بنا Allons. ولنجتمع. هيا إلى دار البلدية.. وإلى فرساي..".

وحدث في باريس الشيء الكثير من الصياح والمجيء والذهاب، قبل أن تتحقق هذه الفكرة الأخيرة. وظهر فرد اسمه مايّار له قدرة على التنظيم، واتخذ لنفسه نوعًا من الزعامة. وليس هناك أقل ريب في أن زعماء الثورة، والجنرال لافاييت بوجه خاص، قد استخدموا ونظموا هذا الانفجار للحصول على الملك، قبل أن يفلت من أيديهم – كما أفلت شارل الأول إلى أكسفورد – ليبدأ حربًا أهلية. وشرعت المظاهرة وقد تقدم الأصيل، تسير رحلتها المكونة من أحد عشر ميلاً وها نحن نعود إلى الاقتباس من كارليل:

"كان مايار Maillard قد أوقف من يقودهم من المشردين المشعثين على قمة آخر تل؛ وعند ذلك تبدو لعين الرائي المتعجب فرساي وقصر فرساي وميراث الملكية المترامي الأطراف. ومن على بعد في الناحية اليمنى فوق مارلي (وسان جرمين إن لاي) حتى الناحية الأخرى نحو رامبوييّه، إلى اليسار، مناظر كلها جمال؛ وهي ترقد في رفق؛ كأنما يخيم عليها الحزن في أحضان ذاك الجو المعتم الرطب! وأمامنا تبدو عن كثب فرساي قديمها وجديدها. وبينهما ذلك الشارع العريض الظليل شارع فرساي، وهو شارع شجره فخم الإيراق رحيب يبلغ عرضه فيما يقدرون ثلاثمائة قدم، وقد امتدت به صفوفه الأربع من شجر الدرداء؛ ثم يبدو بعد ذلك قصر فرساي، منتهيًا بجنات ملكية ومروج غناء وبرك صغيرة متلألئة، وعرائش عظيمة عدا

بيوت التيه (لابيرانت) ومجموعة وحوش ضارية والترايانون الكبير والصغير؛ ومـ ساكن عاليـ ة الأبـ راج، وأماكن مورقة ممتعة؛ يسكنها آلهة هذا العالم السفلي. ومع ذلك لا يمكن أن نستبعد منهـ ا الهمـ وم القاتمـ ة الشوهاء؛ وإليها كان الجوع المشرد يتقدم آنذاك، مسلحًا بالقضبان ذات الرعوس". وسقط المطر عنـ دما خـ يم المساء.

فانظر تر الميدان كله وقد تغطت جميع جنباته الفسيحة، بجماعات من نساء قذرات يقطر مـ نهن مـ اء المطر؛ ومن رجال من الدهماء الأسافل ناحلي الشعور وهم مسلحون بالبلط، والخوازيق الصدئة والقرابينات القديمة، والهراوات ذات الحدائد (Batons ferres) والعصي التي تنتهي بسكاكين أو نصال سيوف، ونـ وع من الخطاطيف التي اصطنعوها بأيديهم ارتجالاً، وليس يبدو عليهم إلا أنهم عصاة جيـ اع. وينهمـ ر المطـ ر والحرس الخاص يتنقل مختالا بخيله وسط الجماهير التي تفح عليه كالأفعى؛ وتسخر منه وهو يهيج ويستثير من أمامه من الجماعات ما يتفرق ها هنا لكي يتجمهر هناك.

"ويحيط عدد لا حصر له من النساء القذرات بالرئيس والوفد؛ ويصرون على الذهاب معه: ألم يرسـ ل جلالته بنفسه بعد أن نظر من النافذة، من خرج ليسأل عما نريد؟ نريد الخبز. والكلام مع الملك، ذلـ ك هـ و الجواب. ويضاف إلى الوفد بين الصخب الشديد والجلبة اثنتا عشرة امرأة؛ ثم يسرن معـ ه مظفـ رات عبـ ر الميدان. وبين جماعات متفرقة من الحشد، ورجال من الحرس الخاص، يتحركون بجيـ ادهم تحـ ت المطـ ر المنهمر."

"الخبز...، مع عدم الإكثار من الكلام!..." طلبات طبيعية.

ويتردد على الأسماع أيضًا أن العربات الملكية أخذت تشد إليها الخيول، كأنما هي ذاهبة إلـ ى مدينـ ة متز. وقد ظهرت بالفعل عند البوابة الخلفية عربات سواء أكانت ملكية أم لم تكـ ن. بـ ل إنهـ م أبـ رزوا أو استشهدوا بأمر كتابي من بلدية فرساي – وهي بلدية ملكية وليست ديمقراطية. ومع هذا فإن دوريات فرساي أدخلتها ثانية، بأمر مشدد إليهم من ليكوانتر اليقظ.. "وهكذا احلولكت أشباح الليل، بـ ين العجـ يج والمطـ ر؛ أصبحت كل الممرات معتمة مظلمة. وهي أعجب ليلة شوهدت في تلك الأماكن. وربما كان ذلك منـ ذ ليلـ ة بارثولوميو [١] عند ما كانت فرساي – كما كتب ذلك باسومبيير – قصرًا هزيلاً، "فأنى لنا بقيثارة أورفيـ وس [٢] ليضطر بلمسة من أوتاره الشجية هاته الجماهير المجنونة إلى التزام النظام! إذ كان يبدو أن كل شيء هـ ا هنا قد تشتت وتبدد وخرج عن موضعه خروجًا بعيدًا. وأخذ أعلى الناس قدرًا في الدنيا – كأنما يجذبهم تيـ ار إلى أسفل – يتصلون بأدنى الناس. أخذت دهماء فرنسا وزعانفها وأنذالها تطيف بملكيـ ة فرنـ سا وأقيالهـ ا.

---

[1] بارثولوميو: يشير الكاتب هنا إلى مذبحة الهوجنوت التي حدثت بباريس في عيد القديس بارثولوميو في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ بأمر الملكة كاترين دي مدسيس. (المترجم)

[2] أورفيوس: تمثله الأساطير في صورة أبرز شاعر قبل هومر، وهو يحمل قيثارة كان يسبي بساحر أنغامها لا الكائنات الحية وحدها بل إن الأنهار والصخور كانت تطرب بشجي أنغامه وتخضع لأوامره. (المترجم)

ورفعت الهراوات ذوات الرءوس الحديدية حول التاج لغاية أخرى غير حراسته! وانطلقت مع السباب الموجه للحرس الخاص ترميه بالتعطش للدماء والمضادة للوطنية، دمدمات قاتمة تزمجر اسمًا لملكة.

"ويجتمع البلاط مرتعدًا لا يقدر على شيء: ويتقلب رأيًا مع تقلب أهواء الميدان، ومع تنوع ألوان الشائعات الآتية من باريس. شائعات تأتي متكاثفة تنبئ آونة عن السلم وآنًا عن الحرب. ويتشاور نيكر والوزراء كافة، فلا يخرجون بنتيجة. والقاعات تجتاحها عاصفة هوجاء من همسات: لسوف نفر إلى متز! بل لن نفر! وتحاول المركبات الملكية الخروج مرة ثانية.. وإن كان ذلك لمجرد المحاولة. على أنها تدفع إلى الداخل مرة ثانية، تدفعها دوريات ليكوانتر".

ولزام علينا أن نحيل القارئ إلى كارليل ليعلمه بقدوم الحرس الوطني ليلاً تحت قيادة الجنرال لافاييت نفسه، وبالمساومة بين الجمعية والملك، واندلاع نار القتال في الصباح بين الحرس الخاص والمحاصرين الجياع، وكيف دخل الآخرون القصر عنوة وأوشكوا أن يعملوا في الأسرة المالكة ذبحًا. وجاء لافاييت وجنوده في الوقت المناسب فحالوا دون ذلك. ووصلت للجمهور الجائع من باريس في الوقت الملائم عربات محملة بالخبز. وأخيرًا استقر الرأي على وجوب ذهاب الملك إلى باريس.

"إن مسير المواكب الاحتفالية أمر لم يشهد عالمنا منه القليل؛ فهناك مواكب النصر والترحيب بالأبطال لدى الرومان، وهناك دق الصنوج الكابريّة Cabiric [1] والمواكب الملكية والجنازات الأرلندية؛ ولكن هذا الركب المنطلق بالملكية الفرنسية وهي تسير إلى مهدها أمر ينتظرنا لنشهده. فعلى امتداد أميال عديدة بعرض يتلاشى في زوايا الغموض والإبهام – ذلك أن كل المنطقة المجاورة تتجمهر لتطلّع. يسير الجمع في بطء ويركد في مضيّه حتى ليكاد يأسن، كأنه بحيرة بلا شواطئ، ولها مع ذلك لجَبُ ضجة تشبه ضجة شلالات نياجارا، أو تشبه بابل وبدلام [٢]. ويحدث ضرب بالأرجل في الماء ودوس بها على الأرض. ثم ارتفاع أصوات بالهتاف والعجيج وإطلاق وابل من طلقات القرابينات؛ إنها أصدق قطعة من الفوضى شوهدت في تلك العصور الأخيرة! حتى تصب نفسها رويدًا رويدًا ساعة عتمة الغسق المكاثفة، في باريس المنتظرة، بين صف مزدوج من الوجوه يمتد من بأسي إلى دار البلدية.

"تأمل هذا: مقدمة من جند الحرس الوطني، من خلفها أرتال من المدفعية؛ ورجال يحملون الرماح ونساء بالحراب؛ يركبون المدافع والعربات والمركبات، أو يسيرون على الأقدام.. أرغفة قد رشقت على سن السونكيات، وغصون خضراء قد رفعت في أنابيب البنادق. ثم يأتي بعد ذلك الموكب الرئيسي، خمسون عربة محملة بالقمح، أقرضت لهم من مخازن فرساي التماسًا للسلام. يسير من خلفها جماعة لا وجهة لهم من رجال الحرس الخاص؛ وقد غلبت عليهم الذلة وهم في قبعات الحرس المشاة (الجريناديز). ومن خلف هؤلاء مباشرة تأتي المركبة الملكية. ثم تأتي مركبات ملكية. إن هناك مائة من النواب الوطنيين كذلك، يجلس من

---

[1] الكابري :Cabirl مجموعة من الآلهة كانت تعبد في الأزمنة القديمة بآسيا الصغرى وأجزاء من بلاد اليونان. وكانت قوى شيطانية في العالم السفلي كما كان يعتقد أنها المتحكمة في الخصوبة. (المترجم).

[2] بدلام: أقدم مستشفى للمجانين بأوربا. (المترجم).

بينهم ميرابو وهو لا يبدي أية ملحوظة. ثم يأتي خليط من الحابل والنابل يسيرون كأنهم حرس المؤخرة، من الفلاندريين، والسويسريين والمائة سويسري وآخرون من الحرس الخاص وقطاع طرق وكل من لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام.

وفيما بين أطواء هذه الجموع تفيض بغير حدود أهالي حي سانت أنطوان وكتيبة التشرد النسائية. ويسير النساء بوجه خاص حول المركبة الملكية.. متشحات بالألوان الثلاثة وهن يغنين أغاني كلها الهمز واللمز، ويشرن بإحدى أيديهن إلى المركبة الملكية التي يقصدن بها ذلك اللمز، ويشرن باليد الأخرى إلى عربات الأطعمة، وتعلن هذه الألفاظ: تشجعوا أيها الإخوان! فلن نحتاج بعد الآن إلى الخبز، إنا محضرون لكم الخباز والخبازة وابن الخباز..

"ويلوث المطر الألوان المثلثة، ولكن لهيب السرور متقد لا يستطيع إطفاءه أي شيء. ألم يصبح كل شيء الآن على ما يرام؟ قال بعض هؤلاء النساء القويات بعد ذلك ببضع أيام – آه يا مدام يا ملكتنا الطيبة، لا تعودي إلى الخيانة مرة أخرى حتى نحبك كلنا!".

كان ذلك هو يوم ٦ أكتوبر ١٧٨٩. وأقامت الأسرة المالكة في التويلري قرابة سنتين لم يكدر صفوها أثناءهما مكدر. فلو أن البلاط حافظ على عهده العادي مع الشعب، فلعل الملك كان يموت هناك وهو بعد ملك. حافظت الثورة الأولى على كيانها من ١٧٨٩ إلى ١٧٩١، وأصبحت فرنسا ملكية مقيدة، واحتفظ الملك بسلطان منقوص في قصر التويلري، وطفقت الجمعية الوطنية تحكم قطرًا شمله السلام. فلو أن القارئ رجع إلى خرائط بولندة التي قدمناها في الفصل السالف، لعرف ما كان يشغل الروسيا وبروسيا والنمسا في ذلك الأوان. فعلى حين كانت فرنسا تنشئ التجارب في جمهورية متوجة في الغرب، كان يجري آخر تقسيم للجمهورية المتوجة [1] في الشرق. وماذا لو أمهلت فرنسا قليلاً.

وإذا نحن تذكرنا عدم خبرة الجمعية، والظروف التي كانت تعمل في كنفها، والتغييرات المحيطة بكل شئونها، وجب علينا أن نسلم بأنها قامت بقدر جسيم جدًا من العمل الإنشائي. وكان الشيء الكثير من ذلك العمل سليمًا قويًا وما يزال باقيًا إلى اليوم، وكان كثير منه تجريبيًا. فهدم ونقض. وكان في بعضه الكوارث. فتمت تنقية قانون العقوبات؛ وألغي التعذيب، والحبس التعسفي، والاضطهادات الدينية. وأخلت مقاطعات فرنسا القديمة: نورمانديا وبورغانديا وأشباههما مكانها لثمانين محافظة أو قسمًا إداريًا وجعل باب الترقي إلى أقصى رتب الجيش مفتوحًا للرجال من كل الطبقات. وأقيم نظام بديع بسيط من المحاكم، ولكن أفسده كثيرًا أن القضاة كانوا يعينون بانتخاب شعبي ولأجل قصير. فكان هذا الأمر يجعل من الجمهور نوعًا ما من محكمة استئناف نهائية، واضطر القضاة – شأن أعضاء الجمعية أن يمثلوا لأهل الشرفة [2]. واستولت الدولة على جميع ما كان للكنيسة من أملاك هائلة وأخذت تديرها بنفسها. وقوضت كل المؤسسات الدينية التي لا تشغل بالتعليم أو الإحسان، وجعلت مرتبات رجال الدين فرضًا على الأمة. ولم يكن هذا في حد ذاته شيئًا تكرهه

---

[1] يريد بها المؤلف دولة بولندة التي اقتسمتها تلك الدول الثلاث. انظر المعالم ص ١١١٦ وما بعدها ج .٤ ط ٢. (المترجم).

[2] وهو تعبير مجازي: معناه محاولة الحصول على الشعبية باسترضاء وممالأة أذواق الدهماء وتحيزاتها وأهوائها. (المترجم).

الطبقة الدنيا من رجال الدين بفرنسا، الذين كانوا في غالب الأحيان يتناولون أجورًا بخ سة ب شكل فاض ح بالموازنة إلى رؤسائهم الأكثر ثروة. ولكن أضيف إلى ذلك أن وظائف القسيسيين والأساقفة جعلت بالانتخاب، وهو أمر أصاب الفكرة الأساسية للكنيسة الكاثوليكية في الصميم، وهي التي كانت تمركز كل شـ يء حـ ول البابا، والتي تأتي فيها السلطة من أعلى إلى أسفل. والواقع العملي أن الجمعيـ ة الوطنيـ ة أرادت أن تجعـ ل الكنيسة الفرنسية بروتستانتية بضربة واحدة، بروتستانتية في التنظيم إن لم يكن في المبادئ. وحدثت في كـ ل مكان مناقشات ومنازعات بين قسوس الدولة الذين أنشأتهم الجمعية العمومية وبين القسيسين المعاندين (الذين لا يحلفون اليمين)، الذين أخلصوا الولاء لروما.

وهناك شيء عجيب فعلته الجمعية الوطنية فكان من أثره أن أضعف من قبضتها على زمام الأمور؛ إذ إنها أصدرت مرسومًا يقضي بأن لا يكون أي عضو من أعضائها وزيرًا تنفيذيًا. وكان ذلك محاكـ اة مـ نهم للدستور الأمريكي، حيث الوزراء هناك أيضًا منفصلون عن الهيئة التشريعية. وكانت الطريقـ ة الإنجليزيـ ة تقضي بأن يكون كل الوزراء أعضاء في الهيئة التشريعية، وأن يكونوا على استعداد للإجابة علـ ى الأسـ ئلة وتقديم الحساب عن تفسيرهم للقوانين وإدارتهم لشئون الشعب. فإذا كانت الهيئة التشريعية تمثـ ل الـ شعب ذا السيادة، وجب إذن ولا شك أن يكون الوزراء على أوثق اتصال بسيدهم. وتسبب عن فصل الهيئة التـ شريعية عن التنفيذية بفرنسا حدوث كثير من سوء التفاهم وعدم الثقة. إذ كانت السلطة التشريعية تعوزهـ ا الـ سيطرة والسلطة التنفيذية فقيرة في القوة المعنوية. فأفضى هذا إلى أن أصبحت الحكومة المركزية غير فعّالة إلى حد أنه كانت تكتشف في كثير من النواحي في ذلك الزمان كومبونات (أحياء) ومدن يتبين أنها مجتمعات تحكـ م نفسها بنفسها أو تكاد؛ فكانوا يقبلون أوامر باريس أو يرفضونها حسبما يمليه عليهم هـ واهم، ويـ أبون دفـ ع الضرائب، ويقتسمون ارض الكنيسة طبقًا لمشتهياتهم المحلية.

١٠- ثورة اليعاقبة

من المحتمل جدًا أنه لو أن الجمعية الوطنية حصلت على عون من التاج يتجلى فيه الإخلاص ووطنية يتبدى فيها التعقل من جانب النبلاء، فعسى أن كانت تلك الجمعية تتعثر في طريقها حتى تصل إلى شكل ثابت لحكومة برلمانية لفرنسا – بالرغم من شرفاتها العالية العجيج وبالرغم من غلبة روح روسو عليها ومن ضئولة خبرتها – وكان لها في ميرابو رجل دولة له بصيرة نافذة باحتياجات العصر. وكان يعرف مواطن القوة والضعف في النظام البريطاني، وكان جليًا أنه قد نصب نفسه ليؤسس في فرنسا نظامًا سياسيًا مماثلاً للإنجليزي على أساس اقتراع أفسح مجالاً وأشد أمانة وشرفًا. حقًا إنه قد استمرأ نوعًا من الغزل الروريتاني [١] مع الملكة وكان يلقاها خفية، ويصرح عنها جادًا غير مازح أنها هي "الرجل الوحيد" حول الملك، ويكاد في هذا الأمر أن يصم نفسه بالغباء والحماقة. على أن خططه كانت تقوم على نطاق أوسع كثيرًا من نطاق سلالم التويلري الخلفية. ولا شك أن فرنسا فقدت بموته ١٧٩١ واحدًا من أشد سياسييها قدرة بناءة، وكذلك فقدت الجمعية الوطنية آخر فرصة للتعاون مع الملك. وحيثما وجد بلاط ملكي كان هناك في العادة التآمر، وكانت تدبيرات الملكيين وبث الملكيين للشر آخر قشة يضعونها في كفة الميزان ضد الجمعية الوطنية. ولم يكن الملكيون يهتمون بميرابو ولا كانوا يهتمون بفرنسا؛ وكل ما كانوا يريدونه هو الرجوع وكفى إلى فردوس امتيازاتهم المفقود، وإلى صلفهم، وسرفهم الذي لا حد له. وخيّل إليهم أنهم لو استطاعوا فقط أن يعقدوا الأمور على حكومة الجمعية الوطنية ليجعلوا إدارتها للشئون أمرًا مستحيلاً، فإن العظام الرميم النخرة عظام الدولة القديمة لا بد أن تبعث من جديد حية بمعجزة من المعجزات. ولم يخالجهم أي إدراك للاحتمال الآخر وهو هوة الجمهوريين المتطرفين التي كانت فاغرة فاها تحت أقدامهم.

وفي إحدى ليالي شهر يونيه من ١٧٩١، حدث بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل، أن الملك والملكة وطفليهما انسلوا متنكرين من قصر التويلري ثم اخترقوا باريس وجلين، وداروا من شمال المدينة إلى الشرق، حتى وصلوا آخر الأمر إلى عربة سفر كانت معدة لنقلهم إلى شالون. كانوا يفرون للانضمام إلى جيش الشرق إذ كان جيش الشرق "مواليًا" أي إن قائده وضباطه على الأقل كانوا على استعداد للتخلي عن فرنسا وللانضمام إلى الملك وبلاطه. وهكذا وصلنا آخر الأمر إلى المغامرات التي تروق فؤاد الملكة، ويستطيع الإنسان أن يتخيل ويفهم النشوة والسرور يعم الفئة الصغيرة والأميال تباعد بينها وبين باريس. وكان ينتظرهم فوق التلال البعيدة، التوقير والانحناء العميق ولثم الأيدي ثم تأتي العودة إلى فرساي. وإطلاق يسير للنار على دهماء باريس وبعض طلقات من المدافع إذا استلزم الأمر وإعدام بعض الناس وإن لم يكونوا من ذوي المكانة. وعهد إرهاب أبيض [٢] يستمر أشهرًا قلائل. ثم يعود كل شيء فيصبح على خير ما يرام. وربما عاد كالوني أيضًا ومعه تدبيرات مالية جديدة. وكان في ذلك الوقت مشغولاً بجمع المدد من بين

---

[1] في ذلك إشارة إلى رواية سجين زندا التي عشق الملكة فيها نبيل إنجليزي عشقًا عذريًا. (المترجم).

[2] كان اللون الأبيض شعار آل بوربون. (المترجم)

ظهراني الأمراء الألمان. وهناك عدد جم من القصور لا بد من إعادة بنائها، ولن يكاد يكون في مستطاع القوم الذين أحرقوها أن يتشكّوا إن وقع عبء إعادة بنائها ثقيلاً فادحًا نوعًا ما على أعناقهم القذرة.

على أن كل هذه الأماني الزاهية المرجوة ما لبثت حتى تحطمت في تلك الليلة تحطمًا قاسيًا عند فارنّ. فإن صاحب دار خيل البريد عرف الملك في سانت مين هولد، وبينما الليل يرخى سدوله كان ينطلق في جو الطرق المؤدية شرقًا وقع سنابك خيول الرسل وهم يوقظون البلاد ويحاولون أن يقطعوا الطريق على الهاربين. وكانت هناك خيل أخرى على أهبة الانتظار في القرية العليا من فارنّ وكان الضابط الشاب المنوط بالنوبة قد انصرف عن الملك فترة الليل وآوى إلى فراشه – على حين ظل الملك المسكين مدة نصف ساعة في القرية السفلى وهو يتنازع مرتديًا ثياب الخدم – مع الحوذي والسواس الذين كانوا يتوقعون أن يجدوا أبدالهم في القرية السفلى ويرفضون أن يتقدموا بالعربة خطوة واحدة. وأخيرًا رضوا أن يواصلوا المسير. ولكن رضاءهم جاء بعد فوات الأوان. فإن الفئة القليلة وجدت هناك ناظر البريد بسانت مين هولد – بعد أن سبقها والسواس في لجاجهم يجادلون – ومعه ثلة قد جمعها من الجمهوريين المحترمين في فارنّ؛ وانتظر بها عند الجسر الموصل بين جزئي المدينة. وأقيمت على الجسر المتاريس. وصوبت القرابينات إلى المركبة، وقيل لمن فيها: "جواز سفركم!" عندئذ سلم الملك بدون مقاومة. وأخذت الفئة الصغيرة إلى منزل أحد موظفي القرية. قال الملك "حسنًا! ها أنا ذا بين أيديكم!" ثم ذكر كذلك أنه جوعان. وأثنى أثناء تناوله الطعام على النبيذ وقال "نبيذ ممتاز جدًا" ولم يسجل أحد لنا ما قالته الملكة. وكانت هناك جنود ملكية على مقربة من المكان ولكنهم لم يحاولوا أن ينقذوا الملك. وأخذ جرس الخطر يدق وأضاءت القرية نفسها تحرزًا من المباغتة.

ومن ثم عاد إلى باريس حمل العربة الملكية مهيضًا ذليلاً، وقابلته جماهير غفيرة في صمت وسكون. إذ سرى بين الجماهير النذير بأن من اجترأ على إهانة الملك جلد، ومن هتف له يقتل..

لم يحدث إلا بعد هذه المغامرة الحمقاء أن استولت فكرة الجمهورية على أذهان الفرنسيين. أجل كانت تخالج الناس لا ريب قبل هذا الفرار إلى فارن عاطفة مبهمة نحو الجمهورية، ولكن لم يكد أن يكون في فرنسا أحد من الناس يجهر برغبته في إلغاء الملكية. وقد حدث حتى في شهر يوليه يوم لم ينقض على الفرار إلا شهر واحد، حين عقد اجتماع عظيم في شأن دي مارس (Champ de Mars)، لتعضيد القيام بملتمس بعزل الملك – أن فرقت السلطات شمله، وقتل فيه خلق كثير، ولكن مظاهر الحزم هذه لم تحل بين الدرس المستفاد من ذلك الفرار وبين التغلل إلى أذهان الرجال. وكما حدث في إنجلترة في أيام شارل الأول فكذلك حدث الآن في فرنسا، أن أدرك الناس أن الملك لم يكن ليؤتمن – وأنه مصدر خطر. وقويت شوكة اليعاقبة بسرعة. وشرع زعماؤهم روبسبير ودانتون ومارا الذين كانوا يلوحون حتى آنذاك غلاة مستحيلين، أن يتسلطوا على الشئون الفرنسية.

وكان هؤلاء اليعاقبة نظير الراديكاليين الأمريكيين، وهم رجال ذوو فكرات تقدمية ضارية غير مروضة. وتقوم قوتهم على خلوهم مما يعوق الناس من مال أو سلطان وأن لهم مضاء واستقامة. كانوا رجالاً فقراء ليس لديهم ما يخشون فقدانه. وكان حزب: "الاعتدال" والتفاهم مع بقايا النظام القديم يقوده رجال من

ذوي المكانة الوطيدة أمثال الجنرال لافاييت، الذي ميز نفسه في شبابه بقتاله متطوعًا في صفوف المستوطنين الأمريكيين، وميرابو وهو أرستقراطي كان على استعداد أن يصوغ نفسه على غرار أرستقراطية الإنجليز الأغنياء الواسعي النفوذ. بيد أن روبسبيير كان محاميًا شابًا فقيرًا ذكيًا من أراس، كان أثمن ما يملكه هو إيمانه بروسو؛ وكان دانتون محاميًا هو الآخر بباريس، ولكنه لا يكاد يفوقه ثراء، وكان شخصًا ضخمًا كثير الإشارة بليغ العبارة ميالاً إلى الأسلوب الخطابي، فأما مارا فكان رجلاً أسنّ منهما وكان سويسريًا على شيء من الامتياز العلمي وإن عادلهما في انطلاق سراحه من كل ما يكبل الناس من الأموال والممتلكات. قضى سنوات عديدة في إنجلترة وكان يحمل شهادة الدكتوراة الفخرية في الطب من جامعة سانت أندروز، وله في علم الطب بعض مقالات قيمة نشرها بالإنجليزية. وكان كتابه في علم الفوزيقي موضع إعجاب كل من بنيامين فرانكلين وجيته. فهذا هو الذي يسميه كارليل "الكلب الكلب" و "الفظيع" و "القذر" و "مطبب الطلاب". ولعل هذه الكنية الأخيرة جاءت من قبيل الاعتراف بفضل علمه!!

دعت الثورة مارا أن يخوض غمار السياسة، وكانت أقدم ثمار قريحته التي أدلى بها في معمعان جدلها العظيم تمتاز بالسداد وسلامة التفكير. وكانت تنتشر في فرنسا فكرة خاطئة تقول بأن إنجلترة أرض حرية. ولكن مقالته التي جعل عنوانها "عيوب الدستور الإنجليزي" تبين حقيقة الأوضاع الإنجليزية. وقد جن جنونه في سنيه الأخيرة لإصابته بمرض جلدي لا يكاد يطاق انتقل إليه عندما كان مختبئًا إبان الثورة في مجاري باريس فرارًا من عواقب اتهامه الملك ووصفه إياه بالخيانة بعد فراره إلى فارنّ. ولم يكن ليستطيع أن يجمع شوارد ذهنه للكتابة إلا وهو جالس في حمام حار. لقد لقي معاملة شديدة وقاسى الآلام، فأصبح شديدًا قاسي الفؤاد، ومع هذا فإنه يبرز في التاريخ بوصفه رجلاً ذا نزاهة ممتازة. ويلوح أن فقره بوجه خاص كان يستثير سخرية كارليل منه.

"يا لطول الطريق الذي يقطعه!! وها هو الآن يجلس عند قرابة الساعة السابعة والنصف، وهو يسلق نفسه في حمامه، متقرح الجسد؛ مصابًا بالسقام، مريضٌ بحمى الثورة.. رجلاً عليلاً مضنى مفرطًا في العلة والضنى، فقيرًا مملقًا معه من النقود ما يعادل بالضبط أربعة قروش وستة مليمات من العملة الورقية؛ مع حمام على صورة حذاء، ونضد للكتابة متين بثلاثة أرجل، ومتاعب، ومعه غسالة قذرة تقوم بمرافق بيته... ذلك هو مسكنه ومثواه في شارع مدرسة الطب. وإلى هذا المكان دون أي مكان آخر اقتاده سبيله... أنصت! فإن هناك طرقًا ثانيًا، وإن هناك لصوتًا موسيقيًا لامرأة، وهي تأبى أن تحرم الدخول: إنها هي المواطنة التي تريد أن تؤدي لفرنسا خدمة. وإذ يسمع مارا الحوار من الداخل، يصيح أن أدخليها. ويؤذن لشارلوت كورداي بالدخول".

وقد عرضت البطلة الشابة أن تقدم إليه بعض المعلومات الضرورية حول الثورة التي قامت ضدهم في كاين، وبينما هو مشغول في تدوين ما أدلت به من حقائق، طعنته بسكين كبيرة ذات غمد (١٧٩٢).

تلك صفة معظم زعماء حزب اليعاقبة. فإنهم كانوا رجالاً لا أملاك لهم، رجالاً لا قيد من ثم يغل أيديهم. وكانوا أقل ترابطًا بعضهم ببعض وأقرب إلى الطبيعة الآلية من أي حزب آخر. وكانوا على استعداد

أن يدفعوا بفكرات الحرية والمساواة إلى غاية متطرفة منطقية. وكانت معايير الفضيلة الوطنية عندهم عالية وخشنة وكان هناك شيء غير إنساني حتى في حميتهم لحب الخير. وكانوا ممتعضين مما يرون من ميل المعتدلين إلى تلطيف الأمور وتسكينها، وإلى إبقاء العامة في حالة احتياج هونا ما وإلزامهم احترام للغير شيئاً ما، وأن يجعلوا الملكية (وذوي الاعتبار من الرجال) موقرين قليلاً ما، وقد أعمتهم عبارات مذهب روسو عن الحقيقة التاريخية القائلة بأن الإنسان يكون بطبعه إما ظالمًا أو مظلومًا، وأن الناس لن يجعلوا سعداء أحرارًا إلا ببطء بواسطة القانون والتعليم وروح المحبة في العالم.

وبينما حدث في أمريكا أن صِيَغ ديمقراطية القرن الثامن عشر كانت في جملتها مستنهضة للناس معينة لهم، لأنها كانت بالفعل أرض المساواة العملية في الهواء الطلق ما اختص الأمر بالبيض من الرجال، فقد أنتجت هذه المبادئ في فرنسا خليطًا جنونيًا خطرًا على سكان المدن لأن أجزاء جسيمة من مدن فرنسا كانت أحياء فقيرة مليئة بأقوام ممن جردوا من أملاكهم وانحلت أخلاقهم وانحطت مرتبتهم وتمررت أرواحهم. وكانت جماهير باريس بوجه خاص في حالة يأس مخطرة، لأن صناعات باريس كانت في معظمها صناعات ترف. وكان الشيء الكثير من أعمالها من النوع الطفيلي الذي يعيش على نقائص الطبقة الراقية ورذائلها. والآن وقد ولى عالم أهل النعيم وذهب إلى ما وراء الحدود، وصار الحال إلى التضييق على المسافرين، وداخل الاضطراب الأعمال، أصبحت المدينة مليئة بأقوام عاطلين غاضبين. ولكن الملكيين بدل أن يدركوا حقيقة هؤلاء اليعاقبة وما هم عليه من أمانة خطرة وما لهم من سلطان خطر على خيال الدهماء، قد بلغ من اغترارهم بأنفسهم أنهم ظنوا أن في إمكانهم أن يتخذوا منهم أداة يعملون بها. وكان موعد إحلال الجمعية التشريعية محل الجمعية الوطنية تطبيقًا للدستور الجديد قد قرب أوانه، وعندما اقترح اليعاقبة بقصد تمزيق شمل المعتدلين ألا يكون لأحد من أعضاء الجمعية الوطنية الحق في عضوية الجمعية التشريعية، انضم إليهم الملكيون في جذل عظيم وأنفذوا الاقتراح. ذلك أنهم أدركوا أن الجمعية التشريعية وقد اجتثت منها على تلك الشاكلة كل خبرة وتجربة، سوف تكون ولا مرية هيئة ذات كفاية من الناحية السياسية. وعند ذلك يعود عليهم "الإفراط في الشر بالخير العميم"، وعند ذلك تعود فرنسا فتهوى صريعة لا معين لها في أيدي سادتها الشرعيين. هكذا دبروا وقدروا. بل لقد فعل الملكيون أكثر من هذا. فإنهم ناصروا انتخاب أحد اليعاقبة عمدة لباريس. وكأني بهذا التصرف في ذكاء من يجتلب إلى منزله نمرًا جائعًا ليقنع زوجته بحاجتها إليه. وهي هيئة أخرى تقف مستعدة عن كثب وإن لم يحسب هؤلاء الملكيون حسابها، وكانت أحسن عدة من البلاط وأقدر على التقدم أمامًا والحلول محل جمعية تشريعية غير فعالة، تلك هي كوميون باريس (أي هيئتها البلدية) القوى وهي هيئة قوية النزعات اليعقوبية مقرها دار البلدية.

وكانت فرنسا لا تزال حتى ذلك الحين تستظل السلام. فلم يهاجمها أحد من جيرانها، لما بدا لهم من إضعافها نفسها بانقساماتها الداخلية. فأما الضحية التي قاست الآلام من جراء ارتباك الحالة في فرنسا فهي بولندة. ولكن لم يكن لدى جيرانها مانع يحول دون إهانتها وتهديدها وتمهيد السبيل لاقتسام تام عند ما يحلو لهم ذلك. واجتمع ملك بروسيا وإمبراطور النمسا في بلنيتز Pilintz ١٧٩١، وأصدرا تصريحًا يقول إن

إعادة النظام والملكية في فرنسا أمر له أهميته لدى كل الملوك. وسمح الجيش من المهاجرين ونبلاء الفرنسيين وسراتهم وهو جيش يتكون في معظمه من الضباط – بالتجمع على مسافة دانية من الحدود.

وكانت فرنسا هي البادئة بإعلان الحرب على النمسا. وكانت الدوافع التي خالجت نفوس من ناصروا هذه الحركة دوافع متنازعة. فإن كثيرًا من الجمهوريين كانوا يرغبون في ذلك لأنهم كانوا يشتهون أن يروا ذوي قرباهم سكان بلجيكا وقد تحرروا من النير النمسوي. وكان كثير من الملكيين يرغبون فيها لأنهم كانوا يرون في الحرب احتمالاً لإعادة هيبة الملكية وسلطانها. وعارضها مارا معارضة مريرة في صحيفته صديق الشعب (L'Ami du Peuple) لأنه لم يكن يرغب أن تتحول الحماسة للجمهورية إلى حمى حرب. وقد حذرته غريزته من نابليون. وفي ٢٠ إبريل ١٧٩٢ جاء الملك إلى الجمعية واقترح بين مظاهر الاستحسان العظيم إعلان الحرب.

وابتدأت الحرب بكارثة. فإن جيوشاً فرنسية ثلاثة دخلت بلاد البلجيك؛ فهزم اثنان منها هزيمة منكرة، وتراجع الثالث وكان بقيادة لافاييت. وعند ذلك أعلنت بروسيا الحرب مؤازرة منها للنمسا، واستعدت الجيوش المتحالفة لغزو فرنسا تحت قيادة الدوق برنزويك. وأصدر الدوق إعلانًا من أشد إعلانات التاريخ نزقًا؛ فإنه قال إنه يغزو فرنسا ليعيد سلطان الملكية إلى نصابه. وإن أية إهانة أخرى تلحق بالعرش الفرنسي سينتقم لها من الجمعية التشريعية وباريس "بالإعدام العسكري رميا بالرصاص". وكان هذا كافيًا لتحويل أشد الفرنسيين ملكية إلى المذهب الجمهوري – لمدة الحرب على الأقل.

وكان الدور الجديد من أدوار الثورة، وهو الثورة اليعقوبية، هو الثمرة المباشرة لهذا الإعلان. ذلك أنه جعل من المحال استمرار جهود الجمعية التشريعية، التي كان يتسلط عليها الجمهوريون النظاميون (الجيرونديون) والملكيون، كما جعل من المحال بقاء الحكومة التي أخمدت ذلك الاجتماع الجمهوري في الشأن دي مارس وتعقبت مارا حتى اختبأ بالمجاري. واجتمع العصاة في دار البلدية، وفي ١٠ أغسطس قامت بلدية (كوميون) باريس بهجوم على قصر التويلري.

وتصرف الملك بغباء سمج، وبذلك الاستخفاف بالغير الذي هو من امتيازات الملوك. وكان معه حرس سويسري مكون من ألف رجل كما كان معه حرس أهلي ولاؤه غير مضمون. فصمد صمودًا مبهمًا حتى ابتدأ إطلاق النار، ثم انتقل إلى دار الجمعية وهي المجاورة له ليضع نفسه وعائلته تحت حمايتها، تاركًا حرسه السويسري يقاتل. ولا شك أنه كان يطمع في إلقاء الشقاق بين الجمعية وكوميون باريس، ولكن لم يكن لدى الجمعية ذرة من روح المقاتلة التي كانت تستمع بها دار البلدية. ووضع اللاجئون الملكيون في مقصورة (لوج) معدة للصحفيين (وكانت تتصل بها حجرة صغيرة)، وهناك ظلوا ستة عشر ساعة بينما كانت الجمعية تتناقش في مصيرهم. وكانت تعلو في الخارج أصوات معركة ضخمة؛ وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن تتكسر إحدى النوافذ. وكان السويسريون التعساء يقاتلون وظهورهم إلى الجدران، إذ لم يكن أمامهم من سبيل إلى غير ذلك.

ولم تجرؤ الجمعية على مناصرة الحكومة في تكرار ما عملته في شأن دي مارس في شهر يوليه. إذ كانت قوة الكوميون الشرسة تتسلط عليها. ولم يجد الملك في الجمعية أية راحة لفؤاده فإنها عنفته وتناقشت في "إيقافه عن العمل". وقاتل السويسريون حتى تلقوا من الملك أمرًا بالكف عن القتال. وعندئذ أعمل الجمهور فيهم قتلاً حتى قضى على معظمهم، أن كان الغضب قد بلغ به حتى التوحش من إجراء سفك الدماء الذي لا ضرورة له، وأن كان جنونه قد جن إلى حد لم يعد معه إلى ضبطه سبيل.

وكانت المحاولة الطويلة المملة لصوغ لويس في الغالب "الميروفنجي" [1] ولاستخراج جمهوري شريف متوّج من ملك مطلق غبي غير قابل للتكيف، – قد قاربت آنذاك خاتمتها المحزنة. فإن كوميون باريس كان قد تسلم بالفعل مقاليد السلطان في فرنسا. وأصدرت الجمعية التشريعية التي لحقها تغير ظاهر في شجاعتها، مرسومًا يقضي بإيقاف الملك عن القيام بمهام عمله؛ وأودعته المعبد، واستبدلت به لجنة تنفيذية ودعت مؤتمرًا وطنيًا لإنشاء دستور جديد.

وعندئذ أخذ توتر فرنسا الوطنية والجمهورية يصبح شيئًا لا يطاق. وكان كل ما تمتلك من جيوش يتدحرج منهزمًا على الطريق المؤدية إلى باريس في حالة بأس واستسلام (الخريطة ١٨٥). وسقطت لونجري (Longwy)، وعقبتها قلعة فردان العظيمة، ولم يكن يبدو هناك أي احتمال لإيقاف تقدم الحلفاء على العاصمة. وارتفع الإحساس بالخيانة الملكية إلى حد ملأ الناس بقساوة الرعب. وكان لا بد على كل حال من إسكات الملكيين وغل أيديهم وإرهابهم حتى يختفوا عن الأنظار. ونصب كوميون باريس نفسه لمطاردة كل ملكي يمكن العثور عليه، حتى اكتظت بهم سجون باريس. ورأى مارا شبح المذبحة مقبلاً. فحاول أن يفوز بإنشاء محاكم الطوارئ قبل أن يفوت الأوان بقصد تمييز البريء من المذنب في هذا الخليط العظيم من المتآمرين، والمشتبه فيهم والسراة غير المذنبين. ولكنهم تجاهلوه، وحدثت في أوائل سبتمبر المذبحة التي لا بد منها.

ابتدأ الأمر على حين فجأة بأن عصابة من الرجال كانت تستولي على أحد السجون ثم على الآخر وهكذا. ثم تشكل ضرب من المحاكم المرتجلة الفجة. على حين يتجمع في الخارج صنف من الدهماء الضارية مسلحًا بالسيوف والخوازيق والبلط. وكان السجناء يقتادون من زنزاناتهم واحدًا بعد الآخر لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة، ثم يستجوبون استجوابًا وجيزًا، ويعفى عنهم بصيحة "لتحيا الأمة" "Vive La Nation" أو يقذف بهم إلى الدهماء على الأبواب. وهناك كان الجمهور يتدافع ويتقاتل ليحدث في الضحية جرحًا أو يصيبها بطعنة. وكان المحكوم عليهم يطعنون، ويمزقون إربًا ويضربون حتى يقضوا نحبهم، وكانت رءوسهم تحتز وترفع على الخوازيق وتحمل في أرجاء المدينة وتلقى أجسادهم الممزقة جانبًا. وهلك فيمن قتل الأميرة دي لا مبال التي تركها الملك والملكة في قصر التويلري. وحملت رأسها على رمح إلى المعبد لتراها الملكة.

---

[1] أي ملكا بلا سلطان كملوك الميروفنجيين الذين كان يتولى السلطة الفعلية دونهم ناظر القصر. (انظر المعـ الم ص ج . . ٣ ط٢). (المترجم)

وكان في زنزانة الملكة اثنان من الحرس الوطني، رغب أحدهما في أن يجعلها تنظر من النافذة لتبصر هذا المشهد الفظيع، ولم يرغب زميله رحمة بها أن يسمح لها بفعل ذلك.

وفي نفس هذا الوقت الذي كانت هذه المأساة الدموية تجري فيه في باريس، كان الجنرال الفرنسي دوموربيه يهرع بأحد الجيوش مسرعًا من فلاندر إلى غابة الأرجون، ويرد جيوش الحلفاء إلى ما وراء فردان. وحدثت عند فالمي في ٢٠ سبتمبر معركة انطوت في الغالب على تبادل إطلاق المدافع. وأوقف تقدم بروسي لم يكن مصحوبًا بالعزم، وثبتت المشاة الفرنسية في مكانها، مذ كانت مدفعيتهم خيرًا من مدفعية الحلفاء. وظل دوق برونزويك بعد ذلك عشرة أيام وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم أخذ ينسحب إلى الراين. وكانت أعناب شامبانيا الحامضة قد نشرت الدوسنتاريا في الجيش البروسي. ومعركة فالمي هذه – ولم تكن لتعدو كثيرًا تبادل إطلاق المدافع – إحدى معارك التاريخ الفاصلة. وتم إنقاذ الثورة.

والتأم المؤتمر الوطني في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢، وأعلن من فوره الجمهورية. ولم تكد تلك الأحداث تنتهي حتى تمت محاكمة الملك وإعدامه كنوع من الضرورة المنطقية. مات الملك بوصفه رمزًا لا بوصفه رجلاً. إذ لم يجدوا أمامهم غير ذلك شيئًا يفعلونه به، يا له من مسكين، فإنه كان يسد مسالك الأرض. ولم تكن فرنسا لتستطيع أن تدعه يذهب ليشجع المهاجرين، ولا هي بمستطيعة أن تمنعه من إحداث الشر في بلادها؛ فكان وجوده مصدر تهديد لها. وكان مارا قد حض في غير هوادة على القيام بهذه المحاكمة قبل أن يوقع الدستور، لأنه يكون قبل ذلك ملكًا فعليًا، ويكون فوق القانون وبذا لا يمكن أن يكون غير شرعي. كذلك لم يكن مارا ليقبل السماح بالطعن في محامي الملك... والواقع أن مارا قد لعب في الموضوع من أوله إلى آخره دورًا مريرًا غير أنه دور عادل في الغالب؛ كان رجلاً عظيمًا، ذا ذكاء لطيف ممتاز، في إهاب من نار؛ يعصف به ذلك البغض العضوي المستقر في الدم، والذي ليس من ثمار العقل بل الجسد.

وقطعت رأس لويس في يناير ١٧٩٣. احتزت بالمقصلة لأن المقصلة (الجيلوتين) أصبحت منذ أغسطس السابق أداة الإعدام الرسمية في فرنسا. وكان دانتون فيما اتخذ لنفسه من دور الأسد ممتازًا جدًا في هذه المناسبة. فلقد زأر بأجهر صوت قائلاً: "يريد ملوك أوربا أن يتحدّونا، وها نحن أولاء نلقي إليهم رأس أحد الملوك".

١١- جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ - ١٧٩٤

ثم جاء بعد ذلك دور غريب في تاريخ الشعب الفرنسي. فقد توقد وميض لهب عظيم من التحمس لفرنسا والجمهورية. وانعقدت العزائم على وضع حد لروح المسالمة داخل فرنسا وخارجها، ففي الداخل أزمع القوم القضاء على الملكيين وكل شكل من أشكال عدم الولاء؛ وفي الخارج، صمموا أن تكون فرنسا حامية كل الثوريين ومعينتهم. ولا بد أن تصبح أوربا كلها بل الدنيا كلها جمهورية في تكوينها. وانثال شباب فرنسا إلى الجيوش الجمهورية انثيالاً. وانتشرت في كل أرجاء البلاد أغنية جديدة مدهشة وهي أغنية لا تزال تعمل في إحماء الدم فعل الصهباء هي "المارسيليز". وتدحرجت إلى الوراء الجيوش الأجنبية تلقاء هذه الأنشودة وطوابير الوثابين من حملة السونكي الفرنسيين ومدافعهم المنطلقة في حماسة. وقبل أن تأتي خاتمة ١٧٩٢ كانت الجيوش الفرنسية قد بلغت مدى تجاوز كل ما أحرزه الملك لويس الرابع عشر؛ وإذا هم يطئون في كل مكان أرضًا أجنبية. كانوا في بروكسل وكانوا اجتاحوا سافويا، وأغاروا حتى مايانس Mayence، واستولوا من هولندة على الشلد. وعند ذلك فعلت الحكومة الفرنسية فعلة خرقاء. إذ كان أسخطها طرد ممثلها من إنجلترة عند إعدام لويس، فأعلنت الحرب على إنجلترة. كانت فعلة خرقاء لأن الثورة التي أعطت فرنسا مشاة جديدة متحمسة ومدفعية زاكية متحررة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من التقاليد المعوّقة، قد أفسدت نظام بحريتها وكان للإنجليز السيادة في البحر. ووحد هذا الاستفزاز كلمة إنجلترة كلها ضد فرنسا، بعد أن كان هناك في بداية الأمر حركة متحررة كبيرة تعطف على الجمهورية.

ولسنا بمستطيعين أن ننبئك في أي تفصيل حديث القتال الذي قامت به فرنسا في السنوات القليلة التالية ضد تحالف أوربي. فأزاحت النمسويين إلى الأبد من بلجيكا، وحولت هولندة إلى جمهورية. وسلم الأسطول الهولندي وقد تجمد حوله الماء في نهر التِّكسل، لحفنة من الفرسان دون أن يطلق من مدافعه قذيفة واحدة. وتوقفت هجمات الفرنسيين نحو إيطاليا ردحًا من الزمان، ولم يحدث إلا في عام ١٧٩٦ أن جنرالاً جديدًا هو نابليون بونابرت، اقتاد الجيوش الجمهورية المهلهلة الثياب مظفرة عبر بيدمونت إلى مانتو وفيرونا. ولا يستطيع كتاب معالم تاريخية أن يصور لك الحملات بدقة؛ غير أنه ملزم أن يلحظ الصفة الجديدة التي ظهرت في الحرب. كانت الجيوش المحترفة القديمة تحارب لا غاية لها إلا القتال ذاته، وتسعى في بطء وتراخ، كالعمال الذين يشتغلون بالساعة؛ وكانت هذه الجيوش المدهشة الجديدة تحارب من أجل النصر - وإن كانت جائعة ظمئة. وكان أعداؤهم يسمونهم "الفرنسيين الجدد". يقول س. ف أتكنسون [1]: "كان أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعتهم. فالواقع أنه ما كان ليعوق هذه الجيوش المرتجلة أي عائق. فكان من المتعذر الحصول على الخيام بسبب انعدام المال. وكان في غير الإمكان نقلها بسبب العدد الهائل من العربات التي لا مفر عندئذ من الاحتياج إليها، وكانت كذلك غير ضرورية لأن المتاعب التي طالما سببت تسلل الجند زرافات لواذاً من الجيوش المحترفة، كان يتحملها رجال ١٧٩٣ - ١٧٩٤ مسرورين مغتبطين.

---

[1] في مقالته "الحروب الفرنسية الثورية" بالموسوعة البريطانية الطبعة الثانية عشرة.

كما أن المدد لهذه الجيوش التي لم يسمع الناس حتى ذلك الحين بمثل حجمها لم يكن من المستطاع حمله في قوافل، وسرعان ما تعلم الفرنسيون "فكرة العيش على حساب البلاد". وبذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية: سرعة الحركة والتطور الكامل القوة الوطنية، والهجود [1] في العراء والاعتماد في الميرة على البلد المقهور وحشد القوات وإجبار الأهالي على تقديم ما يلزم للجيش؛ وذلك كله مقابل المداورات الحذرة، والجيوش الصغيرة المحترفة، والخيام والجرايات الكاملة والألاعيب الدنيئة. وكان الأولون يمثلون روح الحسم في الأمور، ويمثل الآخرون روح الخطار بالقليل للحصول على القليل".

وبينما كانت هذه الجيوش (العرمرم) المتحمسة في أسمالها البالية تنشد "المارسيليز" وتقاتل من أجل "فرنسا"، دون أن يتضح لها تمام الوضوح فيما يبدو، هل كانت تنتهب الأقطار التي انثالوا إليها أو تحررها، كانت الحماسة الجمهورية في باريس تبدد نفسها بطريقة أقل مجدًا وكرامة بكثير. وكان مارا وهو الرجل الوحيد ذو الذكاء القاهر بين اليعاقبة قد أصابه الجنون بسبب دائه العضال، وسرعان ما قتل. وكان دانتون سلسلة من الصواعق الوطنية؛ فلم يبق عندئذ غير روبسبيير وتعصبه الراسخ الوطيد، فتسيطر على الموقف. ومن العسير أن يفضي الإنسان في هذا الرجل برأي، كان رجلاً ضعيف البنية خوافًا بطبعه مغرورًا صلفًا. ولكن كان فيه ألزم مواهب القوة وهي الإيمان. كان يعتقد لا في رب يألفه الناس، بل في كائن عليّ بعينه، وكان يرى روسو نبيا لذلك الكائن. فنصب نفسه لإنقاذ الجمهورية على الشاكلة التي يراها، وكان يتوهم أنه ليس في مستطاع أحد إلا إياه أن ينقذها. وبذا أصبح يعتقد أن بقاءه في دست الحكم إنقاذ للجمهورية. وكان يشير إلى أن الروح الحية في الجمهورية قد نشأت عن مذبحة الملكيين وعن إعدام الملك. وحدثت ثورات كثيرة: شبت واحدة منها في الغرب في محافظة لافانديه، حيث ثار الأهالي ضد التجنيد وضد طرد رجال الدين الأصليين من ممتلكاتهم، وكان يقودهم فيها بعض النبلاء والقسيسيين؛ وأخرى في الجنوب حيث ثارت ليون ومارسيليا وسمح ملكيو طولون لحامية إنجليزية وإسبانية بالنزول فيها. وكأنما ليس هناك أي جواب فعال على هذه الثورات إلا مواصلة قتل الملكيين. ولم يكن هناك شيء أحب من هذا إلى قساوة أفئدة سكان أحياء باريس الوضيعة. وأخذت محكمة الثورة تعمل بجد، وابتدأت عملية ذبح متواصلة.

وقد نفذ حكم الإعدام في مدة الثلاثة عشر شهرًا السابقة على يونيه ١٧٩٦ في ١٢٢٠ شخصًا؛ ونفذ الإعدام في الأسابيع السبعة التالية في ١٣٧٦ شخصًا. وجاء اختراع المقصلة في أنسب الأوقات لهذه الحالة التي ألمت بمزاج الناس. وقضت المقصلة على الملكة، وكذلك قضت المقصلة على معظم خصوم روبسبيير، وقضت المقصلة!!.. على الملحدين الذين أنكروا وجود أي كائن عليّ أسمى؛ وقضت المقصلة على دانتون لأنه رأى أن قد بولغ في استعمال المقصلة!!؟.. وكانت هذه الآلة الجديدة الجهنمية تحز يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، الرءوس ثم المزيد من الرءوس ثم المزيد فالمزيد، كما يتطلب مدمن الأفيون المزيد منه فالمزيد!!؟....

---

[1] الهجود: أي مبيت الجنود على الأرض دون خيام ولا لوازم معسكرات. (المترجم)

وكان دانتون ما يزال هو دانتون، إذ كان غضنفرًا فوق المقصلة وكان موقفه عليها مثاليًا. قال" لا ضعف يا دانتون!".

وأعجب شيء وأدعاه إلى الضحك أن روبسبيير كان شريفًا شرفًا لا يتطرق إليه الشك. بل لقد كان أشرف بكثير من أي فرد من جماعة الرجال الذين خلفوه وكان يطيف به إلهام يبث فيه رغبة حارة في إنشاء نظام جديد للحياة الإنسانية. وأخذت لجنة الأمن العام وهي حكومة الاثنا عشر للطوارئ وهي التي كانت عند ذاك دفعت بالمؤتمر جانبًا، تقوم بعمل إنشائي بالقدر الذي استطاع أن يستنبطه لها روبسبيير. وكان المعيار الذي حاولت أن تقيم عليه عملها البناء هائلاً ضخمًا. فإن كل المسائل المعقدة التي لا بد لنا اليوم من الكفاح وإياها قوبلت بحلول سريعة سطحية ضحلة وبذلت محاولات للتسوية بين الناس في العقار. قال القديس جوست "الثراء شنعة". فضربت الضرائب على أملاك الأغنياء أو صودرت لتقسيمها بين الفقراء. وكان لابد من أن يحصل كل رجل على منزل آمن ومورد رزق وزوجة وأولاد. وكان العامل جديرًا بأجره، ولكن ليس له الحق في الحصول على منفعة من المنافع. وجرت محاولة لإلغاء الربح إلغاء تامًا، وهو الحافز الخشن الفج لمعظم أعمال التجارة بين الناس منذ ابتداء الجماعة الإنسانية. والربح هو اللغز الاقتصادي الذي ما يزال يشكل علينا إلى اليوم. وصدرت قوانين عنيفة ضد الاستغلال بالسوق السوداء بفرنسا في ١٧٩٣. وجدير بالذكر أن إنجلترة وجدت نفسها في ١٩١٩ مضطرة أن تصدر قوانين أشبه ما تكون بتلك. ولم يقتصر همُّ حكومة اليعاقبة فقط على مجرد إعادة تخطيط النظام الاقتصادي – في معالم صريحة – بل تجاوزته إلى النظام الاجتماعي كذلك. فجعل الطلاق في نفس سهولة الزواج، وألغي التمييز بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين. واستحدث تقويم جديد، مع أسماء جديدة للشهور وأسابيع مكونة من عشرة أيام وما إلى ذلك – وقد أزيل كل ذلك منذ زمن بعيد؛ وكذلك أخلت العملة السمجة والموازين والمقاييس المعقدة بفرنسا القديمة مكانها – للطريقة العشرية البسيطة الواضحة التي لا تزال موجودة... وتقدمت بعض الفئات المتطرفة تقترح إلغاء "الله" فيما يلغى من النظم الأخرى تمام الإلغاء، واستبدال عبادة العقل به. وأقيمت بالفعل حفلة للعقل بكاتدرائية نوتردام اتخذت فيها إحدى حسان الممثلات ربة للعقل. ولكن روبسبيير وقف في وجه هذه الحركة إذ إنه لم يكن ملحدًا. قال "إنما الإلحاد نزعة أرستقراطية" فأما الفكرة القائلة بذلك الكائن العليّ الذي يراقب البريء المظلوم ويكلؤه ويعاقب المجرم الظافر، إنما هي بالضرورة فكرة الشعب". ولذا قضى بالمقصلة على هيبير Hebert، الذي احتفل بعيد العقل. كما قضى على كل أفراد جماعته.

وألم بروبسبيير مع تقدم صيف ١٧٩٤ شيء ملحوظ من الاضطراب الذهني. كان مهتمًا أعمق الاهتمام بديانته. (وكان اعتقال المشتبه فيهم وإعدامهم يجري آنذاك على أتم نشاط. فكان "الإرهاب" يجلجل في شوارع باريس في كل يوم بعرباته المليئة بالمحكوم عليهم). وقد حمل روبسبيير المؤتمر أن يصدر مرسومًا بأن فرنسا تؤمن بكائن علي أسمى، كما تؤمن بذلك المبدأ الباعث الطمأنينة في النفوس: مبدأ خلود الروح. وفي يونيه أقام عيدًا عظيمًا هو عيد كائنه الأسمى. وسار إلى الشأن دي مارس موكب ترأسه وهو في ثياب زاهية يحمل باقة عظيمة من الأزهار وسنابل القمح. وأحرقت في مشهد وقور رهيب تماثيل من مادة قابلة للاحتراق

تمثل الإلحاد والرذيلة؛ ثم نهض في مكانها بطريقة آلية ماهرة وبشيء قليل من الصرير، تمثال للحكمة غير قابل للاحتراق. وألقيت الخطب – وألقى منها روبسبيير أهمها – ولكن ظاهر أنه لم تجر أية عبادة...

ومنذ ذلك الحين بدت على روبسبيير بوادر الرغبة في التأمل بمعزل عن شئون العالم. فظل شهرًا كاملاً بمنأة من المؤتمر. وحدث في أحد أيام شهر يوليه أنه حضر وألقى خطبة عجيبة أنذرت بشكل واضح بقرب حدوث محاكمات جديدة. قال: "إني وقد شخصت ببصري متفكرًا في مجموع تلك الرذائل التي قوضها سيل الثورة الجارف، كانت في بعض الأحيان تأخذني رعدة الخوف من أن أتدنس من جيرة الشريرين النجسة... وإني لأعرف أن من السهل على عصبة الطغاة في العالم أن يتكاثروا على فرد بمفرده، غير أني أعرف كذلك ما هو واجب الرجل الذي يقدر أن يموت دفاعًا عن الإنسانية".

وهكذا استطرد حتى وصل إلى عبارات مبهمة كان يبدو أنها تهدد كل إنسان.

واستمع المؤتمر هذه الخطبة في صمت وسكوت، ثم حدث عندما قدم اقتراح بطبعها وتوزيعها، أن جأر بصياح الغضب وأبي السماح بذلك وخرج روبسبيير في استياء مرير وذهب إلى نادي أنصاره، وأعاد تلاوة خطبته عليهم! وامتلأت تلك الليلة بالكلام والمقابلات والاستعداد للغد؛ وفي اليوم التالي انقلب المؤتمر على روبسبيير، وهدده شخص اسمه تاليان بخنجره. ولما حاول أن يتكلم صاح به الأعضاء حتى أسكتوه، ودق الرئيس الجرس في وجهه. وقال روبسبيير: "يا رئيس السفاحين إني أطلب الكلمة!" وأبيت عليه الكلمة. وخانه صوته. فأخذ يسعل ويصخب وصاح بعضهم "إن دم دانتون يخنقه". فوجهت إليه التهمة. واعتقل هناك للوقت ومعه أهم أعوانه شأنًا.

وعند ذلك ثارت ضد المؤتمر ثائرة دار البلدية وكانت لا تزال قوية النزعة اليعقوبية. وأخذ روبسبيير ورفقاؤه عنوة من أيدي آسريهم. ومرت ليلة حدث فيها التجمع والزحف ثم الزحف المضاد، وأخيرًا التقت قرابة الساعة الثالثة قوات المؤتمر بقوات بلدية باريس خارج دار البلدية.

وكان هنريو، قائد اليعقابة يرقد مخمورًا في الطابق الأعلى إثر يوم قضاه منهمكًا في العمل؛ وعقبت ذلك مفاوضات، ثم انحازت جنود الكوميون بعد تردد قليل إلى صف الحكومة. وتصايح القوم في انفعال وطني وأطل أحدهم من نافذة بدار البلدية. ووجد روبسبيير وآخر من بقي معه من إخوانه أن جنودهم انفضوا من حولهم وخانوهم وأوقعوهم في الفخ. وألقى اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الرجال بأنفسهم من إحدى النوافذ، وأحدثوا بأنفسهم إصابات مروعة على الأسوار الحديدية دون أن يقتلوا أنفسهم. وحاول آخرون الانتحار. والظاهر أن أحد الجنود أصاب روبسبيير برصاصة في الفك الأسفل فقد وجدوه يحملق بعينين شاخصتين وسط وجه شاحب كان نصفه الأسفل من الدم.

وأعقب ذلك سبع عشرة ساعة قضاها في الألم المبرح قبل أن تحين نهايته. ولم ينبس بكلمة طوال تلك المدة، إذ كان فكه مربوطًا ربطًا خشنًا بقطعة قذرة من القماش، واقتيد هو ورفاقه، والأجسام المهشمة المحتضرة لأولئك الرجال الذين قفزوا من النوافذ – وكانوا في مجموعهم اثنين وعشرين رجلاً – إلى المقصلة بدل الذين قضى بإعدامهم في ذلك اليوم. وكانت عيناه مغمضتين معظم الوقت، ويقول كارليل إنه

فتحهما فرأى السكين العظيمة ترتفع من فوقه وأخذ يقاوم ويتملص. كذلك حدث فيما يظهر أنه صرخ عن مدى رفع الجلاد عنه ضمادته. ثم هوت السكين سريعة رحيمة. وانتهى عهد الإرهاب. ومنذ البداية حتى النهاية كان عدد المحكوم عليهم والمعدومين أربعة آلاف إنسان.

١٢- حكومة الإدارة

مما يشهد بالحيوية الهائلة والخير العميم في طوفان المثل العليا والمقاصد الجديدة التي أطلقت الثورة الفرنسية أسارها إلى عالم الجهود العملية، أنها كانت لا تزال تستطيع أن تفيض بسيل خلاق بعد أن رأى الناس لها صورة ممسوخة وسخروا منها حين تمثلت في شخصية روبسبيير وحياته العجيبتين المضحكتين. وروبسبيير صاحب الفضل في الكشف عن أعمق أفكارها، وهو الذي أبدى المتوقع من طرائقها وثمارها، خلال العدسات الغريرة المشوّهة التي صيغت منها كبرياؤه وأنانيته الخارجة عن كل معقول؛ وهو الذي سود ولطخ بالدم والرعب كل آمالها وما ينتظر منها؛ ومع ذلك فإن قوة هذه الفكرات لم تتدمر. إذ إنها تحملت الاختبارات القاسية التي ألمت بها أثناء عرضها على تلك الصورة المضحكة البشعة. وظلت الجمهورية بعد سقوطه تحكم حرة لا يهاجمها مهاجم منيعة لا ينال منها أحد منالاً. ولكن لم يكن لها من زعيم يقودها، وذلك أن خلفاءه كانوا جماعات من رجال مكرة أو عاديين، وواصلت الجمهورية الأوربية كفاحها مدة من الزمان، ثم لم تلبث حتى سقطت ثم نهضت ثانية، ثم سقطت ونهضت ولا تزال تكافح، وهي ترتطم بالعراقيل وتشتبك في الأحابيل غير أنها منيعة لا تقهر.

ومن الخير أن نذكّر القارئ في هذا المقام بالحجم الحقيقي لدور الإرهاب هذا، الذي يروع الأخيلة أيمّا ترويع، والذي بولغ فيه بناءً على هذا مبالغة هائلة بالقياس إلى بقية الثورة. فمنذ ١٧٨٩ إلى أخريات ١٧٩١ كانت الثورة الفرنسية عملية منتظمة، ومنذ صيف ١٧٩٤ كانت الجمهورية دولة منتظمة مظفرة. ولم يكن الإرهاب من عمل البلاد بأجمعها، بل مما جنته أيدي رعاع المدينة الذين كانوا مدينين بوجودهم ووحشيتهم إلى سوء الحكم والظلم الاجتماعي في الدولة البائدة؛ وما كان انفجار حكم الإرهاب ليحدث لولا إصرار الملكيين على خيانتهم وعدم ولائهم، إصرارًا أثار المتطرفين إلى درجة الجنون، وحمل كتلة الجمهوريين المعتدلين على عدم التدخل. وكان خيرة الرجال مشغولين بقتال النمسويين والملكيين على الحدود. وينبغي لنا أن نتذكر أن مجموع من قتلوا في حكم الإرهاب وصل في غاية جملته إلى بضع آلاف قليلة، وكان بين هؤلاء الأعداد ولا ريب عدد كبير من خصوم الجمهورية العاملين، الذين كان يحق لها أن تقتلهم قياسًا على معايير ذلك الزمان. وكان من بينهم من الخونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان، صاحب قصر "الباليه رويال" الذي أعطى صوته محبذًا موت لويس السادس عشر.

ولقد ضاع من الأرواح على يد القواد الإنجليز وحدهم في يوم افتتاح ما يسمى باسم هجوم السوم في يوليه ١٩١٦، أكثر مما ضاع في الثورة الفرنسية كلها منذ بدايتها إلى خاتمتها.

وإنا لنسمع كثيرًا عن شهداء حكم الإرهاب لأنهم كانوا قومًا من ذوي المكانة والمصاهرة والقرابة الطيبة، ولأنه أثير ضرب من الدعاية حول ما قاسوا من عذاب. ولكن علينا أن نوازن في أذهاننا بين ذلك وبين ما كان يجري في سجون العالم عامة في ذلك الزمان. فعندما كانت مقاليد الحكم في فرنسا بيد الإرهاب، كان يقتل في إنجلترة وأمريكا لجرائم ارتكبت ضد الممتلكات – وغالبًا ما كانت جرائم تافهة جدًا – عدد يفوق كثيرًا عدد من حكمت عليهم محاكم الثورة في فرنسا بسبب الخيانة للدولة. وبدهي أنهم كانوا في الواقع

أناسًا عاديين جدًا، ولكنهم قاسوا آلاما على طريقتهم الخشنة. فقد حدث مرة أن شنقت فتاة في ماساشوستس ١٧٨٩ لأنها أخذت بالإكراه قبعة وحذاء وشمابك من فتاة أخرى لقيتها في الطريق. كذلك وجد هوارد محب الإنسانية (قرابة ١٧٧٣) عددًا من الأفراد الأبرياء محجوزين في السجون الإنجليزية بعد أن حوكموا وحكم ببراءتهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا أجرة السجان. وكانت تلك السجون أماكن قذرة لا تخضع لأية رقابة فعالة. وكان التعذيب لا يزال يستعمل في الممتلكات الهانوفرية لصاحب الجلالة البريطانية الملك جورج الثالث. وظل يستخدم في فرنسا حتى عهد الجمعية الوطنية. فالحق أن هذه الأمور كلها تشير إلى مستوى العصر عامة.

وليس فيما سجل ما يدل على أن أي امرئ قد عذبه عمدًا رجال الثورة الفرنسية أثناء حكم الإرهاب. فإن هؤلاء المئات القلائل من السراة الفرنسيين قد تردّوا في حفرة كان يطيب معظمهم نفسًا بأن تحفر للآخرين. كان الأمر فاجعًا لا جرم، ولكن لم يكن فيه فاجعة عظيمة إذا قيس بمعيار التاريخ العام. فإن الرجل العامي في فرنسا كان أوسع حرية وأوسع رزقًا، وأشد سعادة إبان حكم "الإرهاب" مما كان في ١٧٨٧.

وإذا استعرضنا قصة الجمهورية بعد صيف ١٧٩٤ وجدناها قصة معقدة لمجموعة من الطوائف السياسية التي اتخذت لنفسها برامج وأهدافًا لا حصر لها، منها ما هو جمهوري راديكالي ومنها ما هو ملكي رجعي، غير أنها كانت تظللها رغبة عامة في إقامة نظام ما محدد فعال وإن كلفها ذلك قدرًا جسيمًا من الإذعان والتساهل. وأحدث اليعاقبة والملكيون سلسلة من الفتن، إذ يلوح أنه كان هناك في باريس ما عسانا أن نسميه اليوم باسم طبقة مشاغبي الشوارع، وهي على أتم الاستعداد للخروج للقتال والنهب في صف أي من الطرفين. ومع هذا فإن المؤتمر أنتج حكومة، هي حكومة الإدارة المكونة من خمسة أعضاء، والتي حافظت لفرنسا على تماسكها أمد خمس سنوات. وقضي على آخر فتنة وأشدها خطرًا في أكتوبر ١٧٩٥، بمهارة فائقة وحزم نافذ عن يد جنرال شاب ناهض هو نابليون بونابرت.

كانت الإدارة مظفرة في الخارج، غير أنها كانت خاملة غير خلاقة في الداخل، إذ كان أعضاؤها أحرص على الاستمساك بحلاوة الوظيفة وأمجادها، من أن يعدوا دستورًا يخليهم من العمل ويحل غيرهم محلهم، وكانوا أخون من أن يسلموا لغيرهم مقاليد عملية إعادة الإنشاء الاقتصادية والمالية التي تتطلبها حالة فرنسا. ولسنا بحاجة أن نذكر إلا اسمي رجلين منهم – أحدهما كارنوه (Carnot) الذي كان جمهوريًا شريفًا؛ وبارا (Barras) الذي كان لصًا بشكل ملحوظ. وقد كون حكمهم هذا الممتد خمس سنوات قصة عجيبة مثّلت بين فصول هذا التاريخ الحافل بالتغييرات العظيمة.. فإنهم تناولوا الأمور كما وجدوها. ولعبت حماسة الدعاة للثورة دورًا عظيمًا في حمل الجيوش الفرنسية إلى هولندة وبلجيكا، وسويسرا وجنوب ألمانيا، وشمال إيطاليا. كان الملوك يطردون في كل مكان وتقام في أماكنهم الجمهوريات.

ولكن حماسة تلك الدعاية التي أثارتها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة بغية تخفيف ما تلقاه الحكومة الفرنسية من الاضطراب والعسر المالي. وأخذت حروبهم تنحدر رويدًا رويدًا عن صفتها كحرب حرية مقدسة، وتقترب أكثر فأكثر من حروب الحكم البائد العدوانية. وكانت السياسة الخارجية

آخر ما كانت فرنسا ترغب في التجرد منه من مظاهر الملكية العظمى. وإنا لن ستطيع أن نتب ين أن تل ك السياسة ظلت على نفس قوتها الأولى أثناء حكم حكومة الإدارة كأنما لم يحدث هناك أية ثورة.

١٣- توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية

لقد اقتربت الآن ساعة انحسار هذا الفيض الدافق من الثورة في العالم؛ ذلك الفيض الذي خلق جمهورية أمريكا العظيمة وهدد بأن يغمر بطوفانه كل الملكيات الأوربية. وكأن شيئًا قد اندفع إلى أعلى من دون سطح الشئون الإنسانية؛ وبذل جهدًا جبارًا، ثم ما لبث أن تلاشى بددا إلى حين. وجرف أمامه كثيرًا من الأشياء المهجورة والضارة، ولكن بقيت من بعده أمور كثيرة ضارة غير عادلة. نعم إنه حل مسائل كثيرة، ولكنه ترك الرغبة في الزمالة والنظام تواجه مسائل أكثر ضخامة لم يبد عليه أنه تجاوز حد هتك الستر عنها. وذهبت أشكال معينة من الامتيازات، كما ذهب الكثير من ألوان الاستبداد والاضطهاد الديني. وعندما اختفت أشياء الحكم البائد هذه، بدت كأنما لم تكن لها أبدًا أية أهمية، وكل ما كان يهم فعلاً هو أن الرجال العاديين بالرغم من تمتعهم بالأصوات الانتخابية وحق الاقتراع، وبالرغم من كل دفعات نفوسهم وجودهم، كانوا ما يزالون لا هم بالأحرار ولا هم بالمستمتعين بقسط متعادل من السعادة، وأن الوعد الهائل الموعود والأمل في تفيؤ أكناف عالم جديد وهما الأمران اللذان جاءت الثورة بهما، ظلا وهمًا لا ظل لهما من الحقيقة.

ومع هذا فإن موجة الثورة هذه قد حققت تقريبًا كل شيء فكر فيه الناس تفكيرًا واضحًا قبل مجيئها. ولم تكن تفشل الآن بسبب امتناع الدافع، بل بسبب امتناع الفكرات المدروسة المصقولة. فقد جرفت إلى الأبد كثير من الأشياء التي طالما أوقعت الظلم بالإنسانية. والآن وقد جرفت وانتهى أمرها، بات واضحًا لكل ذي عينين، كم كان الرجال غير متأهبين لتلقي النهزات الخلاقة التي أتاحتها لهم هذه الإزالة. وما فترات الثورة إلا فترات عمل؛ وفيها يحصد الرجال ثمار الفكرات التي نمت أثناء أدوار فترات الهدوء بين الثورات. إنها لتترك الحقول نظيفة مستعدة لموسم جديد من مواسم النماء، ولكنها لا تستطيع أن تنتج على الفجاءة فكرات جديدة منضجة لتقابل بها لغزًا غير متوقع.

وكان طرد الملك والنبيل، والقسيس وقاضي محكمة التفتيش، وصاحب الأراضي وجابي الضرائب وملاحظ الأشغال، قد غادر كتلة الناس يواجهون لأول مرة بعض نواحي معينة جوهرية جدًا للتركيب الاجتماعي، وهي العلاقات التي سلموا بها من قبل ولم يدركوا البتة ضرورة التفكير الشديد وإطالة النظر فيها. وظهر أن النظم التي كانت تبدو قطعة من طبيعة الأشياء، والأمور التي كان يبدو أنها تحدث نتيجة لذلك النوع من الضرورة التي تطلع الفجر وتأتي بالربيع – ظهر أنها كانت أمورًا اصطناعية يمكن ضبطها والتحكم فيها، لولا ما هي عليه من التعقيد المربك، كما ظهر أنها الآن وقد ألغيت الروتينيات القديمة وتخلص الناس منها، أصبحت في أمس الحاجة إلى يد تضبطها وتهيمن عليها. ووجد النظام الجديد نفسه تلقاء ألغاز ثلاثة، كان غير مستعد مطلقًا لحلها: وهي الملكية والعملة والعلاقات الدولية.

وسنتناول هذه المسائل الثلاثة بالترتيب، ونسأل عن ماهيتها وكيف نشأت في الشئون الإنسانية؟ فإن كل حياة إنسانية تتصل بها اتصالاً عميقًا، كما أن حلها يمسها مسًا مباشرًا. والحق إن البقية الباقية من هذا التاريخ ستصبح من الآن بشكل واضح يتزايد وضوحًا كل يوم، تطورًا للمجهودات المبذولة لحل هذه المسائل، أو بمعنى آخر: إن هذا "التاريخ" سيصبح من الآن جهدًا غايته "تفسير الملكية، وتأسيس العملة، وإدارة دولاب

العلاقات الدولية"، على شاكلة تجعل في الإمكان إنشاء "مجتمع من الإرادة على أن يكون سعيدًا وتقدميًا، يعم العالم أجمع. فهن الألغاز الثلاثة التي يرمز لها صمت "أبي هول" القدر، والتي يجب على الدولة الإنسانية أن تجد لها جوابًا وإلا كان مآلها الهلاك.

وتنشأ فكرة الملكية من غرائز المقاتلة في النوع البشري. فقبل أن يكون الإنسان إنسانًا بزمان مديد كان القرد الجد مالكًا. والملكية البدائية هي ما يقاتل الوحش من أجله. فالكلب والعظمة، والببرة ووجارها، والغزال الهادر وسربه، كل هذه مِلْكيات يتوهج أوارها. وليس ثمة تعبير أسخف في علم الاجتماع من عبارة "الشيوعية البدائية". فإن الرجل المسن في قبيلة العائلة في الأزمان المبكرة من العصر الحجري القديم (الباليوليثي) كان يصر على ملكيته في زوجاته وبناته وأدواته ولعالمه المرئي المحيط به. فلو دخل أي رجل إلى عالمه المرئي المحيط به لقاتله، ولذبحه إن استطاع. ونمت القبيلة على مر العصور، كما بين ذلك أتكنسون تبيانًا مقنعًا في كتابه "القانون البدائي" [1]. وكان نموها نتيجة للتسامح التدريجي الذي أبداه الرجل المسن نحو وجود الشبان الأصغر منه سنًا، ونحو ملكيتهم للزوجات اللائي يؤسرن من خارج القبيلة، والآلات والحلي التي كانوا يصنعونها والصيد الذي كانوا يقتلون. ونمت الجماعة الإنسانية بفضل التوفيق بين ملكية هذا الفرد وملكية ذاك. كان ذلك التوفيق في أكبر شأنه توفيقًا وتحالفًا اضطر الرجال إليه اضطرارًا بسبب ضرورة دفع قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرئي المحيط بهم. فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضك أو أرضي، فذلك لأنه كان لزامًا أن تكون أرضنا. وإن كلا منا ليؤثر لو أنها كانت "أرضه هو"، ولكن هذا لا يمكن العمل به. ففي تلك الحالة يقوم الرجال الآخرون بتدميرنا. فكأن الجماعة الإنسانية إذن، إنما هي منذ بدايتها تخفيف لغلواء الملكية. والملكية في الوحش الضاري وفي المتوحش البدائي كانت أشد حدة منها في العالم الممدن اليوم. فهي في غرائزنا أقوى مغرسًا منها في عقولنا.

وليس هناك اليوم تحديد لنطاق الملكية عند المتوحش الفطري ولا الرجل غير المتعلم. ومن الخير لنا أن نتذكر دومًا أنه ما من إنسان يزيد بعده اليوم على أربعمائة جيل من جده المتوحش البدائي وكل ما تستطيع أن تقاتل من أجله إنما هو شيء أنت قادر على امتلاكه: من النساء وممن تبقى عليهم من الأسرى ومن الضواري المصيدة. ومن مسالك الغابة ومن مآخذ الحجر إلى غير ذلك. ومع نمو المجتمع، وتولّي ضرب بدائي من القانون الحد من القتال الفتاك، طور الناس طرائق خشنة وسريعة لإقامة الملكية. فصار الرجل يقدر أن يملك ما كان أول من صنعه أو وضع يده عليه أو ادعاه. وكان يبدو طبيعيًا أن كل مدين لا يستطيع تسديد دينه لا بد أن يغدو ملكًا لدائنه. ويعادل هذا في جريانه على الطبيعة أن الرجل بعد ادعائه امتلاك رقعة من الأرض، لا بد له من تحتيم دفعات مالية على كل رجل آخر يريد استعمالها. ولم يحدث إلا مع البطء الشديد، ومع بزوغ فجر احتمالات الحياة المنظمة وظهور بوادرها على الناس، أن ابتدأ الناس يرون في هذه الملكية غير المحدودة لأي شيء كان – مصدر إزعاج ومضايقة لهم. وألفى الرجال أنفسهم يولدون إلى عالم مملوك كله ومدعى ملكيته كله – لا بل وجدوا أنفسهم مملوكين أو مدعى ملكيتهم. ومن العسير الآن علينا أن نقف و

---

(1) Atkinson Primal Law

أثر الكفاحات الاجتماعية في المدنيات الأشد قدمًا، غير أن التاريخ الذي حدثناك به عن الجمهورية الرومانية يكشف لك مجتمعًا يستيقظ على فكرة أنه ربما غدا الدّينو مضايقة عامة، ولا بد عند ذاك من إنكاره والامتناع عن أدائه، وأن الملكية غير المحدودة للأرض إنما هي كذلك مضايقة من المضايقات. وإنا لنجد أن مملكة بابل (بابلونيا) عمدت في عهدها المتأخر إلى تحديد حقوق الفرد في امتلاك الأرقاء تحيدًا شديدًا. وأخيرًا نجد في رسالة ذلك الثوري العظيم، يسوع الناصري، هجومًا وطعنًا في الملكية لم يوجد مثله قبل ذلك أبدًا. قال "أيسر أن يمر الجمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غني (مالك العقارات العظيمة) ملكوت السموات".

ويلوح أن العالم ظل طوال الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرنًا الأخيرة يوجه سهام النقد بلا انقطاع للمقدار الذي يمكن السماح به من الملكية. وها نحن بعد انقضاء تسع عشرة مائة من السنين على يسوع الناصري، نجد كل العالم المستظل بالتعاليم المسيحية مقتنعًا بأن الملكية في الأشخاص أمر لا يمكن أن يكون، إذ حدث من ناحية هذا الأمر انقلاب في الضمير العام. وكذلك الفكرة القائلة "بأن الرجل يستطيع أن يفعل ما يشاء فيما يملك" قد هُزت هزًا واضحًا كبيرًا وضعفت ضعفًا ملموسًا بالعلاقة إلى أنواع أخرى من الملكية. على أن هذا العالم الذي نشهده في نهاية القرن الثامن عشر، لم يبلغ بعد في هذه المسألة إلا مرحلة الشك والاستفسار. ذلك أنه لم يكن لديه شيء واضح وضوحًا كافيًا يستطيع أن يتخذه أساسًا يعمل عليه، فضلاً عن شيء مستقر استقرارًا كافيًا. وكان من أوائل دوافعه حفظ الممتلكات من أن يعبث بها جشع الملوك وتبذيرهم وحمايتها من استغلال النبلاء المغامرين. وقد شبت الثورة من أجل الحفاظ على الملكية الخاصة. ولكن مبادئ المساواة التي أخذت، دفعت بها في غمرات النقد والتجريح للملكية التي نهضت لحمايتها. إذ كيف يستطيع الرجال أن يكونوا أحرارًا متساوين بينما العدد الجم منهم ليس لديهم أرض يعيشون عليها ولا شيء يطعمونه، كما أن الملاك لا يرضون بإطعامهم ولا بإيوائهم ما لم يكدحوا كدحًا شديدًا مسرفًا – تلك هي شكوى الفقراء.

وكان رد اليعاقبة على ذلك اللغز أن أكبوا على "التقسيم". فإنهم أرادوا أن يشدوا أزر الملكية ويعمموها. وكان هناك من قبل في القرن الثامن عشر قوم يرمون إلى نفس الغاية وإن كان ذلك بطريق آخر، هم جماعة بدائية بعينها من الاشتراكيين – أو بمعنى أدق من الشيوعيين – كانوا يريدون أن يلغوا الملكية الخاصة إلغاءً تامًا. وكان على الدولة في رأيهم أن تملك كل الممتلكات. ولم يشرع الناس إلا بعد مضي فترة كبيرة من القرن التاسع عشر، يدركون أن الممتلكات ليست شيئًا واحدًا بسيطًا. بل هي مركب عظيم من الملكيات ذوات القيم والأهميات والدرجات المختلفة. وأن كثيرًا من الأشياء (من أمثال بدن الإنسان وأدوات الفنان والثياب وفرش الأسنان) إنما هي ممتلكات شخصية بصورة عميقة جدًا ولا علاج لها أبدًا. وأن هناك نطاقًا عظيمًا من الأشياء أمثال السكك الحديدية والآلات ذوات الأنواع المختلفة والمنازل والحدائق المزروعة وزوارق المتعة وكل منها بحاجة أن تلقى منا تأملاً خاصًا جدًا لنقدر إلى أي درجة وتحت أي حدود يمكن وضعها تحت اسم الملكية الخاصة، وإلى أي مدى تقع في نطاق الملكية العامة ويمكن أن تديرها وتؤجرها الدولة خدمة للمصلحة الجماعية. ونحن نمتاز اليوم على الجيل الثوري الأول بذخر كبير من الأبحاث التي دارت في مدى السنوات المائة والثلاثين الأخيرة، ولكن حتى هذا "الأدب" المسطر في الملكية والنقد الموجه إليها لا يزال إلى اليوم اختمارًا هائلاً حامي الوطيس أكثر منه علمًا مقررًا. وكان من المستحيل والحالة هذه أن تستطيع فرنسا

القرن الثامن عشر أن تنتج أي مشهد آخر عدا تلك الحركات الشعبية الغامضة المربكة الراغبة في حرمان الملاك من أملاكهم، وعدا مشهد طبقات من الملاك الصغار والكبار الذين يستمسكون بما لديهم استمساك الغاضب المتجهم مطالبين قبل كل شيء بضمان الملكية.

ومما يتصل أوثق اتصال بغموض فكرة الملكية في أذهان الناس غموض فكراتهم عن "العملة". فإن كلا من الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية أصيبت من جراء هذا الأمر بمتاعب خطيرة. وإنا لنعالج هنا أيضًا أمرًا ليس بالهين اليسير، بل هو غمرة من العرف المتبع والأوضاع التقليدية والقوانين والعادات العقلية الفاشية، التي تنشأ عنها مسائل تسمح بأي حل يقوم على أسس بسيطة، والتي هي مع ذلك صاحبة أهمية حيوية في حياة المجتمع اليومية. وصحة الاعتراف الذي يتناوله الرجل مقابل اشتغاله يوميًا، ذات أهمية أولية تمامًا، كما هو بيّن، في عمل الجهاز الاجتماعي. وهناك نوعان من النمو تما بالتدريج على كر التاريخ الإنساني، هما نمو الثقة في المعادن النفيسة ونمو العملة نموًا اقتنع به الناس عمليًا أن العملة الجيدة يمكن الاطمئنان إلى امتلاكها قوتها الشرائية في أي مكان.

ولما كان استقرار ذلك الاطمئنان متوسطًا، فإنه تعرض لتأزمات وارتباكات جسيمة جدًا، نتجت عما كانت تعمد إليه الحكومات من خفض العملة ومن استبدال النقود المعدنية الفعلية بالوعود الورقية بالدفع. فما كادت تحدث زلزلات سياسية واجتماعية خطيرة، حتى أخذ نظام النقود يعمل بصورة متأزمة غير مضبوطة.

وقد ابتدأت كل من الولايات المتحدة والجمهورية الفرنسية حياتها في دور عسر مالي. وكانت كل من الحكومتين تقترض النقود وتصدر وعودًا ورقية بدفع الفوائد، وهي فوائد تفوق ما كانتا تستطيعان جبايته في غير مشقة. وأفضت كل من الثورتين إلى الشيء الكثير من الإنفاق والاقتراض العام المستيئس، وأدت في نفس الوقت إلى انقطاع في عملية الزراعة والإنتاج زاد في إنقاص الثروة الحقيقية التي يستطاع فرض الضرائب عليها. وإذ إن كلا من الحكومتين لم تستطع أن تواصل الدفع بالذهب، فقد لجأت إلى إصدار العملة الورقية (البنكنوت)، التي تعد فيها بأن تدفع بضمان الأراضي غير المتطورة (في أمريكا) أو أراضي الكنيسة المصادرة حديثًا (فرنسا). وتجاوز القدر الصادر في كل من الحالتين حد ثقة الناس في الضمان الجديد تجاوزًا بعيدًا. وهرب الذهب من الأسواق حيث أخفاه مَكَرَةُ الناس، أو أرسل إلى الخارج تسديدًا لأثمان البضائع المستوردة، ووجد الناس أنفسهم يحملون أنواعًا مختلفة من الصكوك وورق البنكنوت بدل العملة وكلها ذات قيمة متناقصة غير محققة.

ومهما يكن شأن أصول العملة من التعقيد، فإن آثارها العملية والغاية التي لا بد لها من خدمتها في المجتمع يمكن أن تذكر هنا بطريقة إجمالية. فإن النقود التي يتلقاها الرجل عن عمله (عقليًا كان أم جسميًا)، أو عن التخلي عن ملكيتها مقابل منفعة استهلاكية لا بد أن تستطيع في النهاية أن تشتري له ولاستعماله قدرًا يعادل ذلك بالتقريب من السلع المستهلكة. (ولفظة "السلع المستهلكة" عبارة نحب أن تفهم على أوسع معانيها بحيث تمثل حتى إحدى الرحلات، أو الاستماع إلى محاضرة أو حضور إحدى المسرحيات أو السكن أو الاستشارة الطبية وما إليها من الأشياء). فإذا ضمن كل فرد من المجتمع توفر هذه الأشياء له، وضمن أن

النقود لن تنحط قوتها الشرائية – فإن العملة وتوزيع البضائع بالتجارة تكون عندئذ في حالة سليمة مرضية. فعند ذلك، وعند ذلك فقط، يشتغل الرجال مسرورين راضين.

والحاجة الحتمية إلى ذلك الاستقرار وذلك الضمان في العملة، إنما تقوم بناءً على هذا في الحقائق الثابتة (Datum) التي منها يجب أن تبدأ الدراسة العملية للعملة والرقابة عليها. ولكن لا بد دائمًا من وجود التقلبات في قيمة العملة ولو في ظلال أثبت الأحوال وأرسخها. فإن صافي جملة السلع القابلة للشراء والاستهلاك في العالم وفي أقطار متنوعة، تختلف من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل؛ ولعل الخريف زمن خيرات ووفرة بالموازنة إلى الربيع؛ فإذا حدثت زيادة في السلع التي يمكن الحصول عليها في العالم تزداد القوة الشرائية للعملة، ما لم يرافق ذلك زيادة في مقدار العملة، فإن كان هناك من الناحية الأخرى نقص في إنتاج السلع الاستهلاكية أو تدمير عظيم غير مربح في السلع الاستهلاكية، شأن ما يحدث في الحروب، نقص نصيب جملة السلع الاستهلاكية ممثلاً في مبلغ من المال، ثم تعلو لا محالة الأسعار والأجور. فربما حدث في الحروب العصرية أن انفجار قنبلة كبيرة واحدة، وإن لم تصب شيئًا، يستهلك من العمل والمواد ما يعادل لدى أحد الرجال بالتقريب أجرة منزل ريفي ظريف أو نفقة عطلة سنوية. فإن أصابت القنبلة شيئًا ما، وجبت إضافة ذلك التدمير الآخر إلى النقص في السلع الاستهلاكية. ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى تنقص جزءًا يسيرًا من القوة الشرائية لكل عملة في العالم بأجمعه. فإن كان هناك أيضًا زيادة في العملة أثناء فترة تستنفد فيها السلع الاستهلاكية ولا تستبدل بها غيرها تمام الاستبدال – وضرورات الحكومة الثورية والعاملة على الحرب تكاد تتطلب ذلك على الدوام – تكون الزيادة عند ذلك في الأسعار والهبوط في قيمة العملة المدفوعة أجورًا، أكبر وأكبر.

وقد جرت العادة كذلك بأن الحكومات تضطر مدفوعة بتلك الشدائد إلى اقتراض المال، أعني أنها تصدر أوراقًا تحمل الفائدة بضمان رغبة المجتمع العام ومقدرته على تحمل الضرائب.

وتكون مثل هذه العمليات على درجة كبيرة من الصعوبة إن كان من يقوم بها رجالا على تمام الشرف يقومون بها في صراحة، تحت كامل ضياء العلانية والمعرفة العلمية. ولكن هذا الأمر لم يحدث البتة حتى يومنا هذا، ففي كل آن ومكان تجد الأناني البارع أي الصنف الشرير من الرجل الغني، يحاول أن ينحرف بالأمور قليلاً نحو مصلحته الخاصة. كذلك يجد الإنسان في كل مكان الأناني الغبي، على أهبة الاستعداد للتشرب بالخوف والتخاذل ذعرًا. ومن ثم تنكشف لنا الدولة على الفور وقد فدحتها وفرة في العملة، التي هي في واقع الأمر بمثابة دين لا يدفع الفوائد، كما يبهظها كذلك عبء فوائد القروض. ويبدأ كل من "الائتمان Credit" والعملة في التمايح والتقلب الشديد مع تبخر (تناقص) الثقة العامة. وقد نستطيع أن نقول عنهما عندئذ إنهما في حالة انحلال معنوي خلقي.

والعاقبة النهائية لعملة أصيبت بتمام الانحلال المعنوي هي إيقاف كل عمل وكل تجارة لا يستطاع مواصلتها بالدفع عينًا أو مقايضة. فإن الرجال يرفضون عند ذلك أن يعملوا، اللهم إلا مقابل الطعام والثياب والمسكن والدفع عينًا. والنتيجة المباشرة لعملة منحلة انحلالاً معنويًا جزئيًا هي رفع الأسعار وجعل التجارة

أمرًا مخيفاً مخطرًا، وملء نفوس العمال بالرِّيب والشكوك والتهيؤ للهياج. ففي مثل هذه الظروف يميل الرجل الذكي إلى إبقاء النقود في حوزته إلى أقصر أمد ممكن؛ فهو يطلب أقصى ما يستطيع في مقابل حقيقته التي بين يديه، ويشتري مرة ثانية حقيقة أخرى بأسرع مستطاعه لكي يباعد ما بينه وبين تلك المادة القابلة للهلاك، وأعني بها العملة الورقية. ويكابد كل أرباب الدخل الثابت والرصيد المدّخر ويقاسون من غلاء الأسعار، ويجد الأجراء ولهيب غضبهم يزداد في كل آن أوارا، أن القيمة الحقيقية لأجورهم في تناقص مطرد.

ومن الواضح أن تلك حالة يحتم فيها الواجب على كل شخص ذكي أن يبذل العون ويقوم بجهد في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها وبث الطمأنينة في نفوس الناس. على أن كل تقاليد المسعى الخاص، وكل فكرات الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، اتجهت إلى تبرير أعمال ذوي الذكاء الشديد والمهرة من الناس الذين نصبوا أنفسهم لتجميع الادعاءات، والألقاب والأملاك المحسوسة في ظل العواصف والتزلزلات والتقلقلات التي تحدث أثناء انهيار هذه العملة. ومن عجب أن الرجال المدركين للحقائق في العالم والذين كانوا ينصبون أنفسهم في إخلاص وبساطة لإعادة ما للعملة والائتمان من أحوال شريفة يمكن التعامل في ظلالها، كانوا رجالاً قليلي العدد، عديمي الأثر. فإن معظم رجال المال والمضاربات في ذلك الزمان كانوا يلعبون دور رجال كورنوال [1] دون وعي منهم إلى ما في ذلك من قلة الشرف، بل يفعلونه فيما يبدو بأتم أنواع الاستحسان الذاتي وأكمل مظاهر رضا زملائهم. لقد كان هدف كل شخص ذكي ماهر أن يجمع أكثر ما يستطيع من الثروة القابلة للتداول، وعند ذلك، وعند ذلك فقط، يعمد إلى تدبير وسيلة تؤدي إلى التوطيد السياسي، وتغادر له ملكية ما جمع أعود ما تكون عليه نفعًا. فهذه هي عوامل جو اقتصادي رديء مليء بالشكوك والعصبية المحمومة والجشع والمضاربات...

فأما الاتجاه الثالث الذي اتجهته الثورة دون أن تستعد له بفكرات نيرة واضحة، وهو مسألة العلاقات الدولية، فقد قدر عليها فيه تطورات تفاعلت أسوأ التفاعل وأجلبه للكوارث مع هذه الحالة، حالة المغامرة المالية والاقتصادية وهذا التخاطف والارتباك وانشغال بالهم بما أصاب ملكيتهم الخاصة ومركزهم النقدي في بلادهم، من انزلاق محير للعقول. فقد وجدت الجمهورية نفسها يوم ميلادها مشتبكة في حرب. وقد ظل المجندون الجدد ردحًا من الزمن يخوضون غمار هذه الحرب بوطنية وحماسة لم ير العالم لهما في تاريخه نظيرًا. ولكن لم يكن في الإمكان أن يستمر هذا الحال إلى الأبد. ووجدت حكومة الإدارة نفسها على رأس بلاد فاتحة، ولكنها كانت من الناحية الداخلية في عسر مالي واضطراب لا يطاقان، ووجدت نفسها تحتل أراضي أجنبية غنية مليئة بثروة يمكن الاستيلاء عليها، عامرة بالفرص المادية المالية. ويحمل كل منا في طياته طبيعة مزدوجة. ويلوح أن الفرنسيين بوجه خاص قد تطوروا بشكل منطقي متناسق (سيمتري) في حمل كلتا الطبيعتين. فقد جاءت فرنسا إلى هذه الأقاليم المغزوّة مُحرِّرًا ومعلمًا وكانت أستاذة الإنسانية في الروح الجمهورية. ومن ثم أصبحت هولندة وبلجيكا تسميان الجمهورية الباتافية، وأصبحت جنوا وملحقتها

[1] يشير الكاتب هنا إلى ما كان يفعله سكان كورنوال بغرب انجلترة؛ إذ يستدرجون السفن ويخدعونها بالأنوار لتتدمر على شاطئهم فينهبوها. (المترجم)

الرفييرا الجمهورية الليجورية، وغدا شمال إيطاليا الجمهورية السيزألبينية، وغير اسم سويسرا إلى الجمهورية الهلفاتية (Helvetian Republic)، وسميت روما وميلوز (Mulhausen) ونابولي جمهوريات. فإذا تجمعت هذه الجمهوريات حول فرنسا فإنها كانت على أن تكون مجموعة من كواكب الحرية اللوامع تقود العالم وتهديه. تلك هي الناحية المثالية في الموضوع. وفي نفس الوقت تقدمت الحكومة الفرنسية، والأفراد الفرنسيون مجتمعين مع الحكومة للقيام باستغلال كامل استنفادي لموارد تلك البلاد المحررة.

وبذا تبدأ فرنسا الجديدة في مدى عشر سنوات من اجتماع مجلس الطبقات أن تتخذ لها شبهًا عجيبًا بفرنسا القديمة. بل هي أشد عنفوانًا وأنشط قوة؛ وهي ترتدي فوق رأسها قلنصوة الحرية في مكان التاج؛ ولديها جيش جديد غير أن لديها أسطولاً محطمًا؛ وإن فيها لأناسًا أغنياء جددًا مكان الأغنياء القدماء، وفيها فلاحون جدد يكادون يكدحون أكثر من سابقيهم ويدفعون ضرائب أفدح؛ وفيها سياسة خارجية جديدة عجيبة الشبه بالسياسة الخارجية القديمة الملغاة؛ ولم يظهر فيها العهد الذهبي عهد المسيح المنتظر.

الفصل السادس والثلاثون

سيرة نابليون بونابرت

١- أسرة بونابرت في كورسيكا.

٢- بونابرت قائدًا جمهوريًا.

٣- نابليون قنصلاً أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤.

٤- نابليون الأول إمبراطورًا من ١٨٠٤ - ١٨١٤.

٥- المائة يوم.

٦- خريطة أوربا في ١٨١٥.

٧- طراز الإمبراطورية.

١- أسرة بونابرت في كورسيكا

ها نحن أولاء نصل الآن إلى شخصية من أشد شخصيات التاريخ إشراقاً وسطوعًا، هي شخصية مغامر مُحطَّم، يبدو أن قصته تظهر في نصاعة خارقة للعادة النضال العام الخفي الدقيق بين الأنانية والكبرياء والشخصية، وبين مرعيات المصلحة المشتركة الأشد ضعفاً والأكثر اتساعًا. وإنك لتلحظ قبالة هذه الخلفية المكونة من الارتباك والمحنة والأمل، أي قبالة هذه القارة الأوربية والدولة الفرنسية المنهكتين اللاهثتين، وهذا الفجر العاصف الضخم، ظهور هذه الشخصية الضئيلة القديمة الطراز بما لها من الصلابة والتماسك والكفاية وعدم الاستمساك بمبادئ الشرف مع الميل إلى التقليد والسوقية المتقنة. ولد في ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا التي كانت لا تزال نصف همجية. وكان ابناً لرجل غير ذي شأن تقريبًا، وهو محام كان في بادئ أمره وطنيًا يناضل الملكية الفرنسية، التي كانت تحاول أن تخضع كورسيكا، ثم انقلب عند مولده على وطنه وانضم إلى صف المغير الغاصب. وكانت أمه ذات طبيعة أقوى، محتدمة الوطنية ولها قوة شكيمة ومقدرة في الكياسة وتدبير الأمور. (كانت تضرب أولادها بالمقرعة، حتى لقد ضربت نابليون ذات مرة وهو في السادسة عشرة). وكان هناك إخوة وأخوات كثير، وظلت العائلة تلاحق الحكومة الفرنسية بالإلحاف في طلب المكافآت والوظائف. وفيما عدا نابليون فإن العائلة تبدو عائلة "جائعة" عادية تمامًا. كان ماهرًا ذكيًا سيئ الخلق متكبرًا غطريسًا. اكتسب من أمه وطنية (رومانسية) كورسيكية.

حصل بفضل رعاية محافظ كورسيكا الفرنسي على تعليم ابتدأ بمدرسة بريين Brienne العسكرية ثم بالمدرسة الحربية بباريس، ومنها انتقل إلى المدفعية في ١٧٨٥. كان دارسًا مجتهدًا لكل من الرياضيات والتاريخ، وكانت ذاكرته قوية قوة خارقة، وكان يدون ملحوظاته في دفاتر ضخمة لا تزال موجودة. ودفاتر المذكرات تلك لا تظهر فيه أي ذكاء استثنائي، كما أنها تحتوي كذلك على قطع صغيرة من الإنشاء الأصيل – حول الانتحار وما يماثله من موضوعات المراهقين. وقد وقع في حبائل سحر روسو منذ زمن مبكر؛ ثم تزايت حساسيته رهفاً وتطور في نفسه الاحتقار لمفاسد المدنية. وكتب في ١٧٨٦ نشرة ضد قسيس سويسري هاجم روسو. وكان يحلم بكورسيكا المستقلة المتحررة من نير الفرنسيين. ثم أصبح مع نشوب الثورة جمهوريًا متحمسًا ونصيرًا للنظام الجديد في كورسيكا. وظل يعقوبيًا بضع سنوات حتى سقوط روبسبيير.

٢ – بونابرت قائدًا جمهوريًا

وسرعان ما ذاع صيته بأنه ضابط نافع مقتدر، وقد استطاع بوساطة شقيق روبسبيير الأصغر أن يحصل على أول فرصة يبز بها أقرانه في طولون. وكان الملكيون قد سلموا طولون للبريطانيين والإسبان، واحتل أسطول متحالف ميناءها. وأعطيت لبونابرت قيادة المدفعية، واستطاع الفرنسيون بقيادته أن يرغموا الحلفاء على مغادرة الميناء والمدينة.

ثم عين بعد ذلك قائدًا للمدفعية في إيطاليا، ولكنه قبل أن يتسلم مقاليد عمله اكفهر الجو وبدا في الأفق أن موت روبسبيير قد يجر مصرعه أيضًا؛ فوضع تحت الاعتقال بوصفه يعقوبيًا، وظل خطر المقصلة محدقًا برقبته ردحًا من الزمان. ثم انقشع ذلك الخطر. وعين قائدًا للمدفعية في غارة على كورسيكا لم تأت بفائدة، ثم ذهب إلى باريس (١٧٩٥) وهو في حال رثة. وتصف مدام جونو في مذكراتها وجهه الهزيل ومظهره الرث في ذلك الزمان، وشعره "الأشعث سيئ التذرير يتدلى فوق معطفه الرمادي"، ويديه العاطلتين عن القفاز وحذاءه السيئ الدهان. كان ذلك زمان إجهاد وانتكاس أعقبا قساوات الجمهورية اليعقوبية. يقول هولاند دروز "كان نجم الحرية قد أخذ يأفل في باريس تلقاء إشراق عطارد (Meieury) والمريخ (Mars) والزهرة (Venus)" أي المالية والثياب العسكرية والبهاء الاجتماعي. وكان خيرة الرجال العاديين يعملون في الجيوش وراء الحدود. ولقد سبق أن ذكرنا من قبل آخر ثورة للملكيين في ١٧٩٥. ومن حسن طالع نابليون أنه كان في باريس في ذلك اليوم، فلقي في هذه المسألة نهزته الثانية. فأنقذ جمهورية الإدارة.

وأثرت كفايته في كارنو أيما تأثير، وهو أشد المديرين استقامة فأعجب به. زد على ذلك أنه تزوج من أرملة شابة حسنا، هي مدام جوزفين دي بوهارنية، وكان لها سلطان عظيم على باراه (Barras). والراجح أن هذين الأمرين هما اللذان ساعداه على الحصول على القيادة في إيطاليا.

وليس أمامنا هنا متسع لقصة حملاته الزاكية في إيطاليا (١٧٩٦ – ١٧٩٧)، ولكن لا بد لنا من كلمة أو اثنتين عن الروح التي تمت بها تلك الحملات على إيطاليا؛ لأنها تبين أنصع تبيان، تلك الروح المزدوجة لفرنسا ونابليون، وكيف أخذت الفكرة المثالية الجمهورية في الشحوب تلقاء الظروف العملية القاهرة. فإنه أعلن على الإيطاليين أن الفرنسيين إنما يقدمون لتحطيم أغلالهم – وكانوا عند قولهم!؟.. على أنه يكتب إلى حكومة الإدارة يقول: "لسوف نجبي عشرين مليونًا من الفرنكات، نحتم على الأهالي دفعها في هذه البلاد؛ فإنها من أغنى بلاد العالم". فأما جنوده فإنه خاطبهم بقوله: "إنكم جياع وتكادون تكونون عراة.. وإني لأقودكم إلى أخصب سهل في العالم. ولسوف تجدون هناك مدنًا عظيمة وولايات غنية وشرفًا ومجدًا وثروة..".

ونحن البشر مفطورون لا جرم – على طبيعة مخلطة كهذه؛ بيد أن هذه الفقرات التي كتبها شاب في السابعة والعشرين، يلوح أنها تظهر الطلاء الذهبي المموه للمثالية العليا الشريفة وقد زال عنها ونصل في سن مبكرة تبكيرًا غير عادي.

وكان نجاحه في إيطاليا زاكيًا كاملاً. وكانت رغبته في الذهاب إلى إيطاليا راجعة إلى أنه كان يتوقع أن يجد فيها أشد الأعمال اجتذابًا له؛ فخاطر بوظيفته في الجيش برفضه أن يقبل العمل المضني في قيادة حملة على العصاة في لافنديه. وكان قد أكب طويلاً على قراءة تراجم بلوتارك [1] والتاريخ الروماني، فكان خياله البالغ النشاط ملتهبًا عند ذاك بالأحلام، أحلام انبعاث الفتوح الشرقية للإمبراطورية الرومانية. تخلص نابليون من جمهورية البندقية بأن مزقها بين فرنسا والنمسا، محتفظًا لفرنسا بالجزائر الأيونية والأسطول البندقي. وقد أثبتت الأيام فيما بعد أن هذا الصلح المسمى صلح كامبو فورميو كان صفقة خاسرة لكل من الطرفين. فقد اشتركت جمهورية فرنسا الجديدة في قتل جمهورية قديمة – وأنفذ نابليون رأيه مخالفًا بذلك صيحة سخط وإنكار تعالت في فرنسا – وحصلت النمسا على مقاطعة فينيتيا، وهي الأراضي التي قدر عليها في ١٩١٨ أن تنزف فيها حتى تموت. وكانت هناك كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا والنمسا على الحصول فيما بعد على الأراضي الألمانية الجنوبية. ولم يكن الحلم بالتوسع الروماني نحو الشرق هو وحده الذي كان آنذاك يعمل عمله في عقل نابليون. فهذه هي أرض قيصر نفسها، وكان قيصر مثالاً سيئًا لذلك الجنرال الموفق في جمهورية غير وطيدة.

وكان قيصر قد عاد إلى روما من بلاد الغال بطلاً وفاتحًا. فكان مقلده يريد أن يعود من مصر والهند مظفرًا كذلك، ومن ثم تكون مصر والهند هي بلاد الغال بالنسبة إلى نابليون. وكانت عناصر الفشل تحملق بعينها في وجهه. إذ كان الطريق إلى مصر والهند بحريًا، وكان البريطانيون بالرغم من حدوث تمردين بحريين قريبي العهد، أقوى مُنّة في البحر من الفرنسيين. زد على ذلك أن مصر كانت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، ولم تكن هذه بأي حال دولة يستهان بها في تلك الأيام. ولكنه مع ذلك أقنع حكومة الإدارة، التي كانت بهرتها في إيطاليا أعماله العظيمة بالسماح له بالذهاب. وخرجت أرمادا [2] من طولون في مايو ١٧٩٨ واستولت على مالطة، ومن يمن طالعها أن تجنبت الأسطول البريطاني ووصلت إلى الإسكندرية. فأنزل جنوده على عجل، ولم تلبث معركة الأهرام أن جعلته سيدًا على مصر.

وكان الأسطول البريطاني الرئيسي في ذلك الوقت في ظاهر المحيط الأطلسي قبالة قادس، ولكن أمير البحر كان أفرد قوة من خيرة سفنه، بقيادة الفيس أميرال نلسون – وهو نابغة عظيم في الشئون البحرية نبوغ نابليون في الأمور العسكرية البرية – أرسله ليتعقب العمارة الفرنسية الصغيرة وينازلها. وطفق نلسون حينًا من الزمان يبحث عن الأسطول الفرنسي بلا جدوى؛ حتى وجده أخيرًا في مساء يوم أول أغسطس رأسيًا في خليج "أبي قير " فأخذه على غرة؛ إذ كان كثير من الرجال على البر وكان ثمة مجلس منعقدًا في سفينة القيادة. ولم تكن لديه خرائط، وكانت قيادة السفن في مياه ضحلة تحت أنوار الأصيل الكابية أمرًا محفوفًا بالمخاطر. ومن ثم استنتج الأميرال الفرنسي أن البريطانيين لن يهاجموه قبل طلوع الصبح، ولذا لم يتعجل

---

[1] تراجم بلوتارك. وهو كاتب إغريقي ولد في خيرونيا، وكان يلقي المحاضرات بروما في عصر هادريان. وكتابه "التراجم المتماثلة" يتكون من أزواج متقابلة من سير القادة والسياسيين الإغريق والرومان تعقبها مقارنات بين كل اثنين. (المترجم).

[2] عمارة بحرية من سفن الحرب. (المترجم).

في استدعاء رجاله الموجودين على البر إلى سفنهم حتى فات الأوان. ومهما يكن من شيء، فإن نلسون أخذ يضرب من فوره مخالفاً بذلك نصيحة كثير من قواده. ولم تشحط منه إلا سفينة واحدة فقط. فدلت بذلك بقية الأسطول على المنطقة الضحلة. وتحرك الأميرال بسفنه هاجمًا في خط مزدوج قرب غروب الشمس، فوضع الفرنسيين بين نارين. وأرخى الليل سدوله وقد التحم الطرفان في المعركة؛ وكان القتال يهدر ويهزم تحت جنح الظلام حتى أضاء المكان من فوره بلهيب السفن الفرنسية المحترقة، ثم بوميض سفينة القيادة الفرنسية الأورينت (L'orient). وقد انفجرت... ولم ينتصف الليل حتى كانت معركة النيل قد انتهت، وكان أسطول نابليون قد تدمر. وبذلك انقطع الطريق على نابليون إلى فرنسا.

ويقول هولاندروز نقلاً عن تيير Thiers، إن هذه الحملة المصرية كانت "أشد المحاولات التي سجلها التاريخ هوجا وتسرعًا". فقد غودر نابليون في مصر والترك يتجمعون عليه والطاعون يفتك برجاله: ومع هذا فإنه استمر ردحًا من الزمان يواصل القيام بهذه الخطة الشرقية. فأحرز في يافا نصرًا، وإذ كانت تعوزه الميرة فإنه أعمل الذبح في كل أسراه. ثم حاول أن يستولي على عكا، حيث استعملت ضده مدفعية الحصار الخاصة به، وكان البريطانيون استولوا عليها في البحر قبل ذلك بزمن يسير. حتى إذا عاد إلى مصر خائب المسعى قد أسقط في يده، فإنه أحرز فوزًا عظيمًا على جيش تركي عند أبي قير، ثم تخلى بعد ذلك عن جيشه في مصر – ولكن ذلك الجيش بقي يقاوم حتى عام ١٨٠١، حتى استسلم لقوة بريطانية – وفر نابليون بجلده إلى فرنسا ١٧٩٩، وقد نجا بأعجوبة من أن تأسره طرادة بريطانية بالقرب من صقلية.

ولقد لقي في هذه المشروع من الإخفاق ما يسقط كل ثقة بأي قائد – لو أن أمر ذلك الإخفاق عرف. بيد أن الطرادات البريطانية التي أوشكت أن تلقي عليه القبض هي التي أعانته على إخفاء خيبته إذ منعت تسرب أي علم بحقيقة الموقف في مصر إلى مسامع الشعب الفرنسي. فاستطاع أن يقيم ضجة عظيمة حول معركة أبي قير وأن يخفى فشله في عكا. ولم تكن الأمور في فرنسا في ذلك الحين على ما يرام. إذ منيت بالهزائم العسكرية في مواطن عدة؛ فضاع منها أكثر إيطاليا؛ وإيطاليا مما غرسته يدا بونابرت، فأدى هذا إلى اتجاه الأنظار إليه بوصفه المنقذ الطبيعي للموقف، هذا إلى أنه حدث الشيء الكثير من الاختلاس، وأن أخبار بعضها أخذت تتسرب إلى الناس. فكانت فرنسا في أحد أدوار فضائحها المالية، ولم يكن نابليون قد امتدت يده إلى أي مال، فكان الجمهور من ثم في تلك الحالة الكليلة حالة التعب المعنوي التي يطلب عندها الرجل القوي المتين، الرجل المدهش الفذ المستحيل المثال، الذي ينزل على قلب الأمة نزول البلسم والترياق، ويقوم بكل شيء لكل إنسان. وأخذ الناس يقذفون في روع أنفسهم أن هذا الفتى الحسن الظواهر ذا الوجه الجامد، الذي أعادته العناية الإلهية من مصر – إنما هو الرجل القوي الأمين المنشود – وأنه واشنجتون آخر.

واستجاب نابليون لمطلب زمانه وفي مؤخرة ذهنه صورة يوليوس قيصر أكثر منها صورة واشنجتون. ودبرت مؤامرة محكمة لاستبدال ثلاثة "قناصل" بحكومة الإدارة؛ يكون نابليون كبيرهم – وكأني بكل إنسان في ذلك الزمان يتلو أكثر مما ينبغي في صفحات التاريخ الروماني يقرأها ويستوعب ما فيها. والقيام بهذه المؤامرة عمل أعقد من أن يتسع له هذا المكان: وقد تضمن على طريقة كروموبل تشتيت المجلس الأدنى (أي

مجلس الخمسمائة)، وفي هذا الأمر فقد نابليون رباطة جأشه. فإن النواب صاحوا به ودفعوه، حتى ليلوح أن الخوف داخله. فكاد أن يغمى عليه وأخذ يتمتم ويلجلج وأرتج عليه فلم يحر كلامًا، ولكن أخاه لوسيان أنقذ الموقف، بأن استقدم الجنود وفَرَّقَ المجلس. على أن هذه الورطة الصغيرة لم تؤثر في نجاح الخطة النهائي. ونزل القناصل الثلاثة في بناء قصر لوكسمبرج، ومعهم قوميسيران اثنان لإعادة وضع الدستور.

وأخذ نابليون يعمل حيال زميليه والقوميسيرين بمنتهى الجرأة والصلف بعد أن عادت إليه كل ثقته بنفسه وبعد أن تحقق من نصرة الشعب له. وأنشئ دستور جعله الموظف التنفيذي الأكبر ولقّبه القنصل الأول، وخوله سلطات هائلة. وكان لزامًا أن يكون هو نابليون، إذ كان ذلك منصوصًا عليه في صلب الدستور. وكان على أن يعاد انتخابه أو يستبدل به غيره بعد انقضاء عشر سنوات. وكان على أن يساعده مجلس الدولة، يعينه هو بنفسه، ويكون من حقه أن ينشئ التشريعات وأن يرسل مقترحاته إلى هيئتين، هما الهيئة التشريعية (التي كانت تستطيع أن تعطي أصواتها في الموضوعات دون أن تناقشها) وهيئة التربيون (The Tribunate) (وكانت تستطيع أن تناقش. المسائل دون أن تعطي فيها صوتًا)، وينتخب الهيئتين مجلس شيوخ أعضاؤه معينون من بين أفراد طبقة خاصة هي "ذوو المكانة" في فرنسا، الذين كان ينتخبهم "ذوو المكانة في المديرية أو المحافظة" الذين كان ينتخبهم "ذوو المكانة في الكوميون" الذين كان ينتخبهم الناخبون العاديون؟ وكان الاقتراع على انتخاب ذوي المكان في الكوميون حقًا مباحًا للجميع. فكان هذا هو المظهر الوحيد للديمقراطية في هذا الهرم المذهل المحير!!....

وكان هذا الدستور في معظم أمره الثمرة المشتركة لفيلسوف جليل هو "سيايس Sieyes" (أحد القناصل الثلاثة) – بالاشتراك مع بونابرت. على أن فرنسا بلغ بها الإعياء من متاعبها وجهودها، وبلغ من ثقة الناس في فضيلة واقتدار هذا الرجل مبعوث المقادير، أنه عندما حدث في مستهل القرن التاسع عشر أن قدم هذا الدستور إلى البلاد أقره ٣,٠١١,٠٠٧ صوتًا ضد ١٥٦٢. لقد وضعت فرنسا نفسها بين يدي بونابرت وضعًا مطلقًا وأعدت العدة لأن تعيش في سلام وسعادة ومجد.

٣- نابليون قنصلاً أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤

وليس هناك من وجه للشك في أنه سنحت هنا فرصة لم تسنح قط لرجل في العالم من قبل. فهنا منصب قد يتقوس له ظهر أي امرئ إشفاقاً من نفسه على نفسه، وأن يبحث في زوايا قلبه، وأن يخدم الله والإن سان بأقصى مستطاعه. إن النظام القديم قد قضى أو كاد؛ وأخذت قوى عجيبة جديدة تندفع في أرجاء العالم تبحث عن شكل تصوغ فيه نفسها وقائد يوجهها. وكان الوعد المنتظر والأمل المعقود بجمهورية عالمي ة وب سلام عالمي دائم يداعبان أفئدة جمهور غفير من ذوي الأذهان المنزعجة. وكانت فرنسا بين يدي ه، وكاذ ت أداة طيّعة له يفعل بها ما يشاء، وهي أرغب ما تكون في السلام، غير أنها شاحذة للحرب شحوذ مهند ممتاز. ولم يكن يعوز هذه الفرصة العظيمة إلا الخيال النبيل. وإذ فات نابليون ذلك فإنه لم يكن ليستطيع إلا أن يتبختر بخيلاء على قمة جبل النهزات ذاك العظيم، كما يتبختر الديك الفرخ فوق تل من الروث. فإن الشخصية التي يكونها لنفسه في التاريخ شخصية بها ما لا يكاد يصدقه عقل من الغرور بالنفس والاحتقار الوقاح لك ل م ن وثقوا به وعدم الاكتراث بهم. وجنون عظمة يقلد به قيصر والإسكندر وشرلمان تقليد د الق ردة، ل ولا أن ه مخضب بالدماء الإنسانية الزكية لكان مبعث السخرية والاستهزاء. حتى "جاء" كم ا يق ول فكت ور هوج و بطريقته الهائلة "يومٌ ضاق فيه الله به ذرعًا"، فقذف به ركلاً بالأرجل ليختم أيامه في رك ن منع زل ي شرح ويشرح كم كانت أشنع أخطائه مسرحًا للذكاء والمهارة وهو يتربص في أرجاء جزيرته الح ارة الموح شة متصيدًا الطيور ويتشاجر شجارًا وضيعًا مع سجان منحط التربية لم يكن يوليه "الاحترام" اللائق.

ولعل عمله كقنصل أول أقل أدوار حياته معرة. فإنه تناول في يده الشئون العسكرية التي تقوضت أثناء حكم الإدارة. وبعد حملة معقدة في شمال إيطاليا، بلغ بالأمور إلى نصر حاسم عند مارينجو قرب الي سّاندريا في (١٨٠٠). وكان نصرًا قارب في بعض أوقاته أن يكون كارثة كبيرة. وفي ديسمبر من السنة نفسها أوق ع الجنرال مورو (Moreau) هزيمة ساحقة منكرة بالجيش النمسوي قرب هوهنليندن، في ظروف تكنفته فيه ا عوامل الثلج والوحل والجو الفظيع الرهيب فلو أن نابليون فاز بهذه المعركة لاحتسبت من بين أبرز م آثره وأعلاها كعبًا. وبهذه الأمور صار السلم المرجو أمرً ممكناً. وفي ١٨٠١ تم التوقيع عل ى الخط وة الأول ى الممهدة للصلح مع إنجلترة والنمسا. وانتهى الصلح مع إنجلترة بمعاهدة أميان في سنة ١٨٠٢. وصار نابليون مطلق اليدين يستطيع أن يتفرغ لفن السياسة والتدبير الخلاق المبتدع الذي كانت فرنسا - وأوربا بأجمعها من وراء فرنسا - في أشد الحاجة إليه. لقد أتاحت الحرب لفرنسا أن تم د رقع ة أرض ها وتوس ع ح دودها، وبمقتضى المعاهدة مع إنجلترة استرجعت فرنسا إمبراطوريتها في المستعمرات وأصبحت ف ي حال ة أم ن تتجاوز أقصى ما كان يحلم به الملك لويس الرابع عشر. وكان الباب مفتوحًا أمام نابليون لكي ين تج وي دعم نظام الأمور ويصنع دولة عصرية تكون نبراسًا ومصدر وحي وإلهام على كل أوربا والعالم قاطبة.

على أنه لم يحاول أن يعمل شيئاً من هذا القبيل. إذ كان خياله الهزيل المقلّد مليئًا بحلم أن يك ون ه و قيصر من جديد. فكان يدبر الخطط لجعل نفسه إمبراطورًا حقيقيًا، يضع على رأسه التاج ويجع ل مناف سيه وزملاءه في المدرسة وأصدقاءه عند موطيء قدميه. ولم يكن هذا ليمنحه أية قوة جديدة ليست في يديه حت ى

آنذاك، على أن ذلك يكون شيئًا أعظم أبهة وأشد فخامة، يكون شيئًا يدهش أمه. فيا لها من استجابة يـ ستجيب بها رأس من هذا النوع للتحدي الرائع الخلاق في ذلك الزمان؟!!.

ولكن لا بد أن تدرج فرنسا قبل كل شيء في مدارج الرخاء. إذ من المحقق أن فرنسا الجائعة لا تطيق وجود إمبراطور. فنصب نفسه لتنفيذ مشروع قديم للطرق كان لويس الخامس عشر أقره؛ وأنشأ الترع تقليـ دًا منه للترع الإنجليزية؛ ثم أعاد تنظيم البوليس ووطد شئون الأمن في البلاد. وتمهيدًا لمشهد درامته الشخصية، نصب نفسه لجعل باريس تبدو في شكل روما بمالها من عقود كلاسيكية وعمد كلاسيكية. ونشأت في تنظـ يم البنوك خطط جديدة تستدعي الإعجاب، فاستعملها. وكان في كل هذه الأمور مسايرًا لزمانه؛ فإنها أمور كانت لا بد آتية مع قدر من الاستبداد أقل وقدر من التمركز أضأل، ولو لم يولد نـ ابليون قـ ط. ونـ صب نفـ سه لإضعاف الجمهوريين الذين كان يدبر الخطط للعدوان على معتقداتهم الجوهرية. فسمح بعودة المهاجرين على شريطة أن يقدموا التوكيدات المرضية على احترام النظام الجديد. وكان منهم كثير يرغبون أشد الرغبة فـ ي العودة على مثل تلك الشروط وأن يدعوا آل بوربون وشأنهم وبعدوهم في خبر كان. ثم توصل إلـ ى صـ لح عظيم أبرم به "ميثاقًا Concordat" مع روما. تعهدت به أن تناصره وتعهد أن يعيد سلطانها في الأبروشيات. إذ كان يرى أن فرنسا لا يمكن أن تكون طيعة سلسلة القياد، وأنها لن تستطيع أن تطيق ملكية جديدة من غير الدين. قال: "كيف تستطيع أن تجد في دولة نظامًا من غير الدين؟ فالجماعة الإنسانية لا تستطيع أن تعيش من غير التفاوت في الثراء، الأمر الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة مستديمة بمعزل عن الديانة. فعندما يوشك أحد الرجال أن يقضي نحبه جوعًا إلى جوار آخر مريض بالكظة والبشم، فإنه لا يستطيع أن يرضى بهذا الفـ ارق ما لم تكن هناك سلطة تعلن أن الله إنما يريد ذلك كذلك؛ ولا بد للعالم من أن يحوي الفقيـ ر والغنـ ي؛ ولكـ ن تقسيم الأشياء في العالم الآخر وفي كل الأبدية الخالدة سيكون على أساس مخالف". وكانت الديانة فـ ي رأيـ ه وبخاصة الديانة من الصنف الكاثوليكي المتأخر، مادة ممتازة يستطاع بها تسكين العامة. وكـ ان فـ ي أيامـ ه اليعقوبية الأولى قد طعن في الدين لنفس ذلك السبب.

وثمة عمل جليل آخر يدل على مجال خياله وتقديره للطبيعة الإنسانية وذلك هو نظام "جوقـ ة الـ شرف Legion of Honour"، وهي خطة للإنعام على الفرنسيين بقطع من الشريط، خطة دبرت تـ دبيرًا محكمًـ ا معجبًا بقصد تحويل نظر ذوي الطموح من الرجال عن القيام بتصرفات هدامة.

كذلك اهتم نابليون بالدعاية المسيحية. وها هي ذي فكرة نابليون عن فوائد المسيح السياسية، وهي فكرة تلطخت بها كل البعثات الدينية الفرنسية منذ ذلك الحين. قال: "قد اتجهت رغبتي إلى إعادة إنـ شاء مؤسـ سة الإرساليات التبشيرية الأجنبية؛ إذ إن المبشرين الدينيين ربما كانوا ذوي نفع كبير إلى آسيا وإفريقيا وأمريكا، وذلك أني سأكلفهم بتعرف كل الأراضي التي يزورونها. ولن تقف قداسة ثيابهم عند حد حمايتهم بل سـ وف تخفي وراءها أبحاثهم السياسية والتجارية. ولن تكون روما بعد اليوم مستقر رئاسة مؤسسة المرسـ لين، بـ ل باريس".

ألا ترى في هذا فكرات تاجر لص لا فكرات رجل دولة؟ وعلاجه لمسألة التعليم يُظهِر في وضوح عمايته عن حقائق الفجر الجديد المنبثق من حوله. فأما التعليم الأولي فإنه أهمله إهمالاً يكاد يكون تامًا؛ فتركه لضمير السلطات المحلية، كذلك قرر أن المعلمين يجب أن تدفع رواتبهم من مصروفات التلاميذ؛ وواضح أنه لم يكن يرغب في أن يتعلم عامة الناس العلم؛ إذ لم تكن لديه أية بارقة إدراك ولو خاطفة عن السبب الذي من أجله يجب أن يتعلموا؛ ولكنه كان يهتم بتزويد المدارس الفنية والعليا بالمال، لأن دولته كانت في حاجة إلى خدمات رجال أذكياء واسعي الإطلاع يسعون وراء مصالحهم الذاتية. وكان هذا تراجعًا يبعث الذهول، عن الخطة العظيمة التي كتب مسودتها للجمهورية كوندورسيه [1] في ١٧٩٢، محبذًا إقامة نظام كامل من التعليم المجاني للشعب بأكمله. وتحقق الأيام في بطء ولكن بثبات واستمرار مشروع كوندورسيه؛ فإن الأمم العظيمة في العالم تضطر أن تضعه موضع التنفيذ والتحقيق رويدًا رويدًا، وتخرج وسائل نابليون من نطاق اهتمامنا. أما تعليم زوجات وأمهات جنسنا فدونكم حكمة نابليون فيه: "لست ممن يعتقدون أن بنا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا بعمل خطة لتعليم الإناث الصغيرات، فليس في المستطاع أن يربيهن أحدٌ خيرًا من أمهاتهن. وليس التعليم العام مناسبًا لهن؛ لأنهن لا يطلبن قط للعمل العام، وإنما الأخلاق هي الكل في الكل لهن، والزواج كل غايتهن".

ولم يكن القنصل الأول أعطف على النساء في قوانين نابليون (Code Napoléon). إذ لم يكن يباح للزوجة مثلاً أن تتصرف في أملاكها؛ بل كانت (أي الزوجة) في يد زوجها. وكان هذا القانون في معظمه من عمل مجلس الدولة. ويلوح أن نابليون كان يعطل مناقشات ذلك المجلس ويعتاقها أكثر مما يساعدها. وإنه ليجتاح الجلسات غازيًا بلا سابق إخطار، ويتكرم على أعضائه بإلقاء محاضرات طويلة مسهبة، كثيرًا ما كانت تخرج عن الموضوع قيد الدرس خروجًا تامًا. وكان المجلس يستمع إليه باحترام عميق؛ إذ كان ذلك هو كل ما يستطيع المجلس أن يفعله. وإنه ليستبقي مستشاريه إلى ساعات متأخرة من الليل؛ مخالفة لكل معقول، ويظهر افتخارًا ساذجًا بقدرته الفائقة على السهر. وقد تذكّر تلك المناقشات بارتياح عجيب إبان سنيه الأخيرة، ولاحظ في إحدى المناسبات أن مجده وفخاره لا يقوم على كسبه أربعين معركة بل على إنشائه قانون نابليون... وكان قانونه هذا شيئًا حسنًا، بقدر ما ذهب بالمعميات القانونية العسيرة القديمة، وأحل محلها الواضح البين من البيانات، فإنه جمع شتات مجموعة هائلة غير منتظمة من القوانين القديمة والجديدة ثم نقحها ووضحها، والقانون شأن كل عمل الإنشائي، كان يهدف إلى الكفاية المباشرة، فإنه وضع التعاريف للأشياء والعلاقات، حتى يشرع الناس في العمل عليها بلا مناقشة جديدة. ومما يقلل من أهميته المباشرة العملية أنه كثيرًا ما كان يُعرّف تلك الأشياء تعريفًا خاطئًا. ولم يكن وراء عملية التقنين هذه أية قوة ذهنية

---

[1] كوندورسيه (١٧٤٣ – ١٧٩٤): فيلسوف ورجل دولة فرنسي. اشترك في إنشاء الموسوعة وأكسبته مقالته في نظرية الإمكانيات شهرة واسعة، انضم إلى الثورة وانتخب عضوًا في الجمعية التشريعية (١٧٩١ – ١٧٩٢)، وكانت خطته التي كتبها عن واجب الدولة في التعليم أساسًا لخطة فرنسا التعليمية. عارض وإن كان من رجال الثورة في قتل الملك، فأهدر دمه. ولما قبض عليه في النهاية وجد ميتًا، ولعله تجرع السم. (المترجم).

تنهض كشيء متميز عن النشاط الذهني. إذ إنها سلمت بكل شيء قائم: "إن جلالته لا يعتقد إلا في الموجود"[١]. والواقع أن الفكرات الجوهرية الأساسية للمجتمع الممدن، وقواعد التعاون الإنساني كانت تمر في مرحلة إعادة تشكيل قطبها ومدارها نابليون – ولكنه لم يشعر بذلك الأمر أبدًا. وكل ما فعله أنه قبل دورًا من أدوار التغير. وحاول أنه يثبته إلى الأبد. ولا تزال فرنسا إلى يومنا هذا مُقَمَّطَةً مشدودة الوثاق بهذا الصُّديري الضيق الذي يرجع به العهد إلى أوائل القرن التاسع عشر، والذي حشرها فيه نابليون. ذلك بأنه ثبت أحوال النساء وثبت أحوال العمال وأحوال الفلاحين، ولا يزالون جميعًا يكافحون إلى يومنا هذا بين خيوط شبكة تعريفاته الجامدة. وتقدم نابليون في نشاط وقوة فنصب ذهنه الجامد الصافي الضيق الأفق لكي يستنهض قوة فرنسا ويشد من عزمها. ولم يكن ذلك الاستنهاض إلا جزءًا من الخطط الأعظم شمولاً التي كانت تملأ جوانب نفسه وتتسلط عليها. فقد اتجه خياله اتجاه الإصرار والعزم إلى "قيصرية Caesarism" جديدة. وفي ١٨٠٢ جعلهم يعينونه قنصلاً أول مدى الحياة مع إعطائه حق تعيين خلف له، وترتب على مراميه الواضحة إلى إلحاق هولندة وإيطاليا بفرنسا بالرغم من التزاماته في المعاهدات بأن يتركهما منفصلتين، أن أخذت معاهدة أميان تترنح ترنحًا شديدًا منذ البداية بذاتها. ولما كان من الضروري أن تثير عليه خططه حربًا مع إنجلترة، فقد كان يجدر به أن يتريث بأي ثمن حتى يرتفع ببحريته إلى حد التفوق على البحرية البريطانية. فإنه كان مطلق اليد يتحكم في موارد عظيمة لبناء السفن، وكانت الحكومة البريطانية حكومة واهنة، وكانت سنوات ثلاث أو أربع كفيلة بتحويل كفة الميزان. ولكنه بالرغم مما لقي في مصر من تجربة شاقة قاسية، لم يدرك قط أهمية القوة البحرية. وفي ١٨٠٣ عجل احتلاله لسويسرا بالأزمة؛ ونشبت الحرب من جديد مع إنجلترة. فقد حدث أن الوزير الضعيف أدينجتون أخلى مكانه في إنجلترة لوليم بت الأعظم منه مقدرة. ومنذ تلك الساعة أصبحت بقية قصة نابليون تدور حول تلك الحرب.

وقد ظل القنصل الأول أثناء مدة القنصلية يعمل ناشطًا على زيادة ثروات إخوته وأخواته. وهو أمر يتصل إلى النفس البشرية بسبب قوي ويمت إلى حب العشيرة وإلى المزاج الكورسيكي كما أنه ينفعنا في أن نفهم بالضبط كيف كان الرجل يقدر منصبه والنهزات الماثلة بين يديه. وهناك عامل ضخم في تكوين نابليون هو الرغبة في أن يذهل ويدهش ويروع أذهان آل بونابرت وجيرانهم ويخضعها لسلطانه. فكان يرقي إخوته بشكل يثير الضحك إذ إنهم كانوا رجالاً عاديين جدًا ولكن شخصًا واحدًا كان يعرفه حق المعرفة لم تخالجه الدهشة ولا داخلته الروعة ولا الخضوع. وكان ذلك الشخص هو أمه. كان يرسل إليها المال لتنفقه وتدهش به جيرانها؛ وكان يحضها على أن تتخذ لنفسها مظهرًا عظيمًا، وأن تعيش العيش الذي يتناسب وأم مثل هذا الابن العجيب الذي يهز العالم هزًا.

غير أن السيدة الوقور التي قرعت بالمقرعة رجل الأقدار وهو في سن السادسة عشرة، لأنه لعب بوجهه لجدته، لم تتبهر ولم تنخدع له عند سن الثانية والثلاثين، قد تستطيع فرنسا كلها أن تعبده ولكن الأم لم

---

(1) من اقتباس لهولاند روز عن جورجو ." Sa Majesté ne croit que ce qui est."

يساورها أي وهم خادع من قبله فكانت تضع النقود التي يرسلها جانبًا؛ وتواصل الما ضي عل ى اقت صادها المعتاد. قالت: "عندما ينتهي كل شيء سيكون ادخاري هذا موضع سرورك".

٤- نابليون الأول إمبراطورًا (١٨٠٤ – ١٨١٤)

لن نفصل لك القول في الخطوات التي غدا بها نابليون إمبراطورًا. وكان تتويجه ابتعاثًا للقديم هو أشد ما قد يتصوره العقل من ابتعاث القديم خرقًا للمعتاد. ولم يعد قيصر هو نموذجه المحتذى؛ بل كان نابليون عند ذاك هو شرلمان. فإنه توج إمبراطورًا، حقًا إنه لم يتوج في روما، بل في كاتدرائية نوتردام بباريس، واستحضر البابا بيوس السابع من روما للقيام بطقوس الاحتفال؛ ولما بلغ الأمر أوجه أخذ نابليون الأول التاج بيده ودفع البابا جانبًا، وتوج نفسه بنفسه. وبذلك تكون نصيحة شرلمان للويس [1] قد آتت آخر الدهر ثمارها. وفي سنة (١٨٠٦) ابتعث نابليون قطعة أخرى وقورة من الماضي السحيق، إذ إنه لما كان ما يزال يتعقب خطى شرلمان، فإنه توج نفسه بتاج لومباردي الحديدي في كاتدرائية ميلان. وعندئذ صار لزامًا على الجمهوريات بنات فرنسا الأربع أن يصبحن ممالك: ففي ١٨٠٦ نصب الأخ لويس في هولندة والأخ جوزيف في نابلولي. على أن قصة الممالك التابعة التي خلقها في أوربا، قصة أعقد وأقصر عمرًا من أن تتحملها هذه المعالم، وإن كان هذا العبث بالحدود عونًا على ما تلا ذلك من توحيد إيطاليا وألمانيا.

ولم يعمر هذا الحلف الذي تم بين شرلمان الجديد وليو الجديد، زمنًا طويلاً جدًا. ففي ١٨٠٧ شرع يتحدي البابا ويضغط عليه. وفي ١٨١١ جعل منه أسيرًا مضيقًا عليه في فونتنبلو. ولا يبدو أن هذه الإجراءات تنطوي على حكمة كبيرة. فإنها نفرت منه الرأي العام الكاثوليكي، كما نفر منه تتويجه الرأي العام المتحرر. وبذلك كف عن أن يكون نصيرًا وممثلاً للقديم والجديد على السواء. فأما الجديد فقد خان، وأما القديم فقد فشل في اكتسابه. وأخيرًا لم يعد يمثل أحدًا إلا نفسه.

ويبدو أن سياسته الخارجية لم تكن تنطوي إلا على مثل ذلك القدر الضئيل من التعقل؛ فإنها زجت آنذاك أوربا في غمرة دورة جديدة من دورات الحرب. ولما كان قد اختلف مع بريطانيا العظمى في أوان مبكر جدًا فإنه حشد جيشًا عرمرمًا في بولونية (Boulogne) ليغزو به إنجلترة، غير ناظر إلى الموقف البحري. بل لقد بلغ به الأمر أن صك مدالية وأقام عمودًا في بولونية تخليدًا لذكرى نصره في غزوته المنتظرة. وكان دبر بطريقة نابليونية محضة أن يخدع الأسطول البريطاني ويستدرجه بعيدًا، وأن يهرب جيش بولونيه ذاك غير مضيق المانش على أسطول صغير من الأرماث والزوارق، وأن تؤخذ لندن قبل أن يعود الأسطول. وفي نفس الوقت اضطرت النمسا والروسيا إزاء اعتداءاته في جنوب ألمانيا، إلى عقد تحالف وطيد مع بريطانيا ضده. وفي ١٨٠٥ وقعت ضربتان قاتلتان على كل أمل له في النصر النهائي، أنزلهما به أميرا البحر البريطانيان كالدر ونلسون. فإن الأول أنزل في يوليه هزيمة منكرة بالأسطول الفرنسي في خليج بسكي؛ وفي أكتوبر دمر الثاني أسطول فرنسا وإسبانيا المشترك في معركة الطرف الأغر. ومات نلسون ميتة رائعة وهو مظفر فوق سفينته "النصر". ومنذ تلك اللحظة استحكم العداء مريرًا بين نابليون وبريطانيا، وهي

---

[1] هو لويس الورع ابن شرلمان. انظر المعالم ص ٨٥٤ ج٣ ط٢. (المترجم).

في منعة لا تستطيع أن يصل إليها ولا أن يقهرها، بينما كانت هي تستطيع أن تضربه هذا أو هذاك على امتداد كل شواطئ أوربا.

وتكتم نابليون الخبر وأخفى أنباء ذلك الجرح القاتل الذي أصابه في "الطرف الأغر" بضع سنوات عن مسامع الفرنسيين. وكل ما سمعوه هو أن "العواصف قد سببت لنا خسارة بعض السفن الحربية بعد قتال أخرق". وبعد انتصار كالدر سحب نابليون جيشه من مدينة بولونية على عجل، واندفع به عبر أوربا وهزم النمسويين في "أولم" "وأوسترلتز". ودخلت بروسيا الحرب ضده في هذه الظروف المشئومة. فهزمت هزيمة تامة وحطمت قواها في معركة يينا (Jena) (١٨٠٦). ومع أن النمسا وبروسيا قد كسرتا فإن الروسيا كانت لا تزال قوة مقاتلة، وخصصت السنة التالية لذلك الخصم الأصعب مراسًا، الأبعد منالا، الأعسر مدخلاً. ولسنا بقادرين أن نتعقب في أي تفصيل صعوبات الحملة البولندية على الروسيا، ولقي نابليون شرًا كبيرًا في بَلْتَسْكَ – التي أُعلن في باريس أنها نصر عظيم – وكذلك لقي مثل هذا الشر في إيلاو (Eylau). ثم دحر الروس في فريد لاند ١٨٠٧. ولم يكن حتى ذاك الوقت قد مس الأرض الروسية بقدمه، وكان الروسيون لا يزالون غير مقهورين كالبريطانيين سواء بسواء؛ ولكن سنحت عند ذلك لنابليون بارقة عجيبة من الحظ الحسن. فإنه استطاع بواسطة خليط من التفاخر والخداع والمداهنة، أن يضم إلى جانبه قيصر الروسيا الشاب الطموح إسكندر الأول – إذ كان سنه لا يتجاوز الثلاثين – وأن يحمله على عقد تحالف معه. وتلاقى الإمبراطوران على عوامة في وسط نهر النيمن قرب تِلْست (Tilsit). حيث تفاهما.

وكان الإسكندر تشرب بالشيء الكثير من النزعة التحررية أثناء تلقيه العلم في بلاط كاترين الثانية. وكان يناصر بكل قواه الحرية والتعليم ونظام العالم الجديد – شريطة خضوعها لاستعلائه هو. قال أحد خلطائه في مستهل شبابه "إنه يسره أن يرى كل إنسان حرًا، على شريطة أن يكون كل إنسان مستعدًا أن يفعل بحرية ما يريده بالضبط". وقد أعلن أنه مستعد أن يلغي نظام " موالي الأرض Serfdom" وإن كلفه ذلك رأسه ثمنًا – لو حدث فقط أن تقدمت نتيجة لذلك أسباب الحضارة. وقال إنه يخوض الحرب مع فرنسا لكي يحرر الشعب الفرنسي – لأن نابليون كان طاغية مستبدًا. وبعد معركة فريد لاند أخذ يبصر نابليون تحت ضياء جديد. تلاقى هذان الرجلان بعد تلك الهزيمة بأحد عشر يومًا، وكان الإسكندر يمر ولا ريب في حالة من التعظيم التبريري الموافق لطبيعة أبناء طرازه حين يكونون في حالة مزاجية من التغير.

ولا بد أن المقابلة كانت مرضية تمام الإرضاء لنابليون. فقد كان ذلك أول لقاء له مع أحد الأباطرة على أساس من التكافؤ. وحلق في الجو خيالان من فوق ظهر تلك العوامة في تلسْت. قال الإسكندر: "ما هي أوربا؟ إنما نحن أوربا". تناقشا في شئون بروسيا والنمسا متأثرْين بهذه الروح، وتقاسما تركيا مقدمًا، ودبرا أمر غزو بلاد الهند، بل الواقع أنهما دبرا غزو معظم آسيا وأن تأخذ الروسيا فنلندة من السويديين؛ على أنهما أغفلا تلك الحقيقة المرة وهي أن القسم الأكبر من العالم مكون من بحر، وأن الأسطول البريطاني كان عند ذاك يبسط قلوعه في البحار غير منازع. وكانت بولندة قاب قوسين أو أدنى، وهي على أتم استعداد لأن تثور وتكون حليف فرنسا المتحمس لو أن نابليون رغب قط في هذا. على أنه كان عن بولندة في عماية تامة. كان

يومه يوم رؤى لا رؤية فيه. وقد أخفى نابليون في نفسه فيما يبدو حتى في ذلك اليوم، تلك الفكرة الجريئة بأن يتزوج يومًا ما أميرة روسية، أميرة حقيقية. على أنه ما لبث حتى تعلم بعد ذلك في ١٨١٠ – أن في هذا تجاوز لحدوده بعض الشيء...

وحدث بعد تلْست تقوض ملحوظ في صفات نابليون؛ فإنه أصبح أكثر اندفاعًا وأقل صبرًا على العقبات، واشتد به استبداد فكرة سيد العالم الذي هيأته الأقدار، وتزايدت مضايقته لكل من لقيه. وفي (١٨٠٨) ارتكب غلطة خطيرة جدًا. فإن إسبانيا كانت حليفه الذليل، وكانت تحت مطلق تصرفه تمامًا، ولكنه رأى من المناسب أن يخلع ملكها البوربوني لكي يرقي إلى عرشه أخاه جوزيف من عرش الصقليتين [1]. وقد أتم فتح البرتغال من قبل على نية أن يوحد تحت تاج أخيه كلا من المملكتين البرتغالية والإسبانية. ومن ثم ثار الإسبان عليه في حنق وطني متأجج، وأحاطوا بجيش فرنسي في بايلن، وأجبروه على التسليم. وكان ذلك ثلمة مدهشة في سيرة النصر الفرنسي المتواصل.

ولم يتباطأ البريطانيون عن التقاط موطئ القدم الذي أتاحته لهم تلك الثورة. فقد نزل في أرض البرتغال جيش بريطاني بقيادة السر آرثر ولزلي (المسمى بعد ذلك باسم الدوق ولينجتون) وهزم الفرنسيين في فيميرو، وأجبرهم على الانسحاب إلى إسبانيا. وأثارت أخبار هذه الهزائم هياجًا عظيمًا جدًا في الخواطر في ألمانيا والنمسا، وعاد القيصر فأظهر إزاء حليفه قدرًا أكبر من الغطرسة.

ثم تمت مقابلة أخرى بين هذين العاهلين في "إرفورت Erfurt"، كان فيها القيصر أقل تأثرًا وانبهارًا بخطط نابليون الوهاجة، وأعقبت ذلك أربع سنوات قضتها فرنسا في رفعة مُقَلْقَلَةٍ غير ثابتة، على حين كانت الحدود ترفرف على خريطة أوربا وفرقة الثياب على حبل الغسيل في يوم رائح. ونمت إمبراطورية نابليون الشخصية بما ألحق بها صراحة من أقطار، حتى تضمنت هولندة وشطرا كبيرًا من ألمانيا الغربية وكثيرًا من إيطاليا وكثيرًا من الشاطئ الأدرياتي الشرقي. ولكن المستعمرات الفرنسية كانت تسقط في أيدي البريطانيين واحدة تلو الأخرى، وأخذت الجيوش البريطانية في شبه الجزيرة الإسبانية تدفع بالفرنسيين في بطء نحو الشمال يساعدها في ذلك المتطوعون الإسبان. وكانت أوربا بأجمعها قد أخذت تمل نابليون أشد الملل؛ ولم يعد خصومه عند ذلك مجرد الملوك والوزراء، بل شعوبًا بأكملها كذلك. وكان البروسيون بعد كارثة "ييناJena" في ١٨٠٦ قد هبوا للعمل على تنظيم بيتهم. فإنهم قاموا بقيادة الفرايهر فون شتين واطرحوا نظامهم الإقطاعي جانبًا، وألغوا الامتيازات ونظام موالي الأرض، ونظموا التعليم الشعبي، والوطنية الشعبية، وأتموا تقريبًا – وكان هذا في واقع الأمر بلا نزاع داخلي – كل شيء حصلت عليه فرنسا في ١٧٨٩. ولما وافت ١٨١٠ كانت هناك بروسيا جديدة، هي النواة لألمانيا الجديدة. وعند ذلك أخذ الإسكندر وقد قُذفت في روعه فيما يبدو أحلام السيادة العالمية – يتخذ من جديد وضع صديق الحرية. وفي ١٨١٠ حدث احتكاك جديد بسبب اعتراض الإسكندر على مطامع نابليون في الزواج. ذلك أن نابليون كان قد أخذ عند ذلك بأسباب الطلاق من معينته القديمة جوزفين، لأنها لم تعقب ولدًا يضمن استمرار الملك في أسرته. والآن وقد أبيت

---

[1] الصقليتين: مملكة كانت تتكون من صقلية وجنوبي إيطاليا (نابولي). (المترجم).

على نابليون أميرة روسية بل الواقع أن الإسكندر حقره وذكره بضعة مولده، فإنه اتجه شطر النمسا وتزوج الأرشيدوقة ماري لويز. ذلك أن رجال السياسة النمسويين قرأوه قراءة صادقة. وكانوا على أشد الاستعداد لإلقاء أميرتهم إليه. وبهذا الزواج أوقع نابليون نفسه في أيديهم من أجل نظام الأسرة المالكة. وربما كان يستطيع أن يكون مكون عالم جديد، ولكنه آثر أن يكون صهرًا للعالم القديم.

وفي السنتين التاليتين داخل الوهن والانحطاط شئونه. فلم يعد بعد قائد الثورة ومكمل ما فاتها؛ ولم يعد بعد ذلك هو الروح المجسد لعالم مولود من جديد؛ بل كان مجرد صنف جديد من أصناف الأوتوقراطي أشد فجاجة. وقد باعد ما بينه وبين كل ذوي النفوس الحرة من الرجال، كما استدعى عداوة الكنيسة له. فكان الملوك واليعاقبة فيه على رأي واحد متفق ضده عندما بلغ الرأي حد القضاء عليه. وكانت بريطانيا عند ذلك هي خصمه اللدود، على حين كانت تتأجج في إسبانيا روح لا بد أنها ميسورة الفهم لكل كورسيكي؛ ولم يكن الأمر بحاجة إلا إلى شيء واحد هو الانفصال عن الإسكندر الأول لكي تدفع هذه الإمبراطورية إمبراطورية الخداع والمناظر المسرحية دفعًا يعثرها ويسقطها. وجاء الخلاف. وكانت مشاعر الإسكندر نحو نابليون على الدوام مبهمة مخلطة جدًا، فإنه كان يحسد نابليون بوصفه منافسًا ويحتقره بوصفه عصاميًا وضيع المنبت. زد على ذلك أن الإسكندر كان يكتنفه نوع من العظمة المبهمة العاطفية؛ وقد غلبت عليه نزعة تدين صوفية، وأخذت تساوره فكرة رسالة تدعوه والروسيا معًا إلى اجتلاب السلام إلى العالم بتحطيم نابليون. على أن اجتلاب السلام إلى أوربا، لم يكن يتناقض في رأيه مطلقًا مع ضم بولندة إليه؛ واستلحاقه معظم بولندة واستيلائه على أجزاء عظيمة من الإمبراطورية التركية!؟ وكان يرغب بوجه خاص أن يعيد التجارة مع بريطانيا، التي كان نابليون مُصِرًّا على انقطاعها. وذك أن تجارة ألمانيا جمعاء تقلقلت، وأن طبقات التجار الألمان كانت في غيظ شديد من "النظام القاري النابليوني"، الذي يرمي إلى القضاء على بريطانيا بطرد كل البضائع البريطانية من أقطار أوربا أجمع. وكابدت الروسيا من جراء ذلك عناء كثيرًا ولعلها قاست أكثر من ألمانيا.

وجاء الشقاق في ١٨١١، عندما انسحب الإسكندر من "النظام القاري". وفي ١٨١٢ اجتمعت جموع هائلة من الجنود تبلغ في مجموعها ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل، وأخذت تتحرك نحو الروسيا تحت القيادة العليا للإمبراطور الجديد. وكان نصف هذه القوة تقريبًا من الفرنسيين على حين جمع الباقون من حلفاء فرنسا والشعوب الخاضعة لها. كان جيشًا مخلطًا أشبه شيء بجيش دارا أو جيش قباذ. وكانت الحرب الإسبانية لا تزال على قدم؛ ولم يقم نابليون بأي جهد لإنهائها. وقد اقتطعت من فرنسا قوة يبلغ مجموعها ربع مليون رجل. فشق طريقه مقاتلاً عبر بولندة والروسيا إلى موسكو قبل حلول الشتاء – وظلت الجيوش الروسية تمتنع في جل شأنها عن قتاله – وأصبح مركزه خطرًا خطورة واضحة حتى قبل أن يطبق عليه الشتاء. فاستولى على موسكو متوقعًا أن يضطر ذلك الإسكندر إلى عقد الصلح. ولكن الإسكندر لم يرغب في عقد الصلح، ووجد نابليون نفسه في مركز هو أشبه شيء بمركز دارا في جنوب الروسيا، قبل ذلك بألفين وثلاثمائة من السنين. وكان الروسيون وهم ما يزالون بعد غير مغلوبين يهاجمون مواصلاته ويفنون أفراد جيشه – يساعدهم في ذلك المرض، فهلك من رجاله خمسة عشر ألفًا حتى قبل أن يصل إلى موسكو. ولكن

كانت تعوزه حكمة دارا فلم يرغب في التقهقر. وظل الشتاء معتدلا مدة طويلة طولا غير عادي – فكان في مقدوره أن ينجو. ولكنه بدلاً من ذلك أقام في موسكو يدبر الخطط المستحيلة. فقد كان قبل ذاك سعيد الحـ ظ سعادة عجيبة في كل مقامراته السابقة مع القدر؛ وقد نجا من مصر نجاة لا يستحقها، وأنقذه من التحطيم فـ ي بريطانيا الانتصارات البحرية البريطانية؛ ولكن ها هو ذا قد وقع في الفخ مرة أخرى، وما كان لينجـ و هـ ذه المرة. ولعله كان يبغي أن يقضي الشتاء في موسكو، ولكن الروسيين طردوه بسحب الدخان طرد النحل مـ ن أكواره، إذ أضرموا النار في المدينة وأحرقوا معظمها.

تأخر به الأوان في أكتوبر، بل تأخر به أكثر مما ينبغي، قبل أن يصح عزمه علـ ى العـ ودة. فحـ اول محاولة غير مجدية أن يخترق طريقه إلى خط تراجع جديد إلى الجنوب الغربي، ثم حول وجهة من تبقى لـ ه من جيشه اللجب نحو القطر الذي عاثوا فيه فسادًا أثناء تقدمهم. وكانت المسافات الشاسعة تفصلهم عـ ن كـ ل أرض موالية. ولم يكن الشتاء متعجلاً. وظل الجيش العرمرم أسبوعًا وهو يكافح بين الوحول؛ ثم جاء الصقيع الشديد ألوانًا، ثم تهاطلت أوائل ندف الثلج، ثم الثلج فالثلج....

وأخذ النظام ينحل رويدًا رويدًا. وانتشر الجيش الجائع يبحث عن الميرة حتى أصبح مجرد ثـ لـ مـ ن المغيرين. وقام الفلاحون عليهم دفاعًا عن النفس على أقل تقدير وأخذوا يكمنون لهم في الطرقات ويقتلونهم. وكانت غمامة من الراكبة الخفيفة ما تنفك تلاحقهم وتصيب منهم على الشاكلة الإسكيذية [1]. وهذا التقهقر من أكبر مآسي التاريخ.

وأخيرًا ظهر نابليون في ألمانيا ومعه هيئة قيادته وثلة من الحرس والأتباع، ولم يحضر معـ ه جيـ شه، وإنما كانت تتبعه فقط شراذم تجر سيقانها جرًا، وقد فقدت كل معنوياتها. ولكن الجيش العظيم المتقهقر بقيادة موراه وصل إلى كونجسبرج في حالة انتظام، بعد أن لم يتبق منه إلا ألف من الرجال من قرابـ ـة الـ ستمائة ألف. وتراجع موراه من كونجسبرج إلى بوزن. وكانت الفصيلة البروسية قد استسلمت للروس؛ وانفصل عنه النمسويون واتجهوا جنوبًا نحو وطنهم. وفي كل مكان كان اللاجئون المتنـ اثرون والرثـ و الثيـ اب الهزيلـ و الأجساد الذين عضهم الصقيع ينشرون أخبار الكارثة.

لقد تبدد سحر نابليون أو كاد. ففر مهرولاً إلى باريس. وشرع ينظم مجندين جددًا ويجمع جيوشًا جديدة بين حطام إمبراطوريته العالمية. وانقلبت عليه النمسا ١٨١٣؛ وكانت أوربا بأكملها تواقة إلى الثـ ورة علـ ى مؤتمن الحرية الذي قصر في حقوقها وفرط في أمانتها، ولم يخرج عن مجرد مغتصب محض. لقد تخلى عن النظام الجديد؛ فالآن دمره النظام القديم، الذي أنقذه وابتعثه. وثارت بروسـ يا، وابتـ دأت "حـ ـرب التحريـ ـر" الألمانية وانضمت السويد إلى زمرة أعدائه. وثارت هولندة بعيد ذلك وكان موراه جمع في بوزن حول نواته المنظمة أربعة عشر ألف فرنسي. وتراجعت هذه القوة خلال ألمانيا، كما قد يتراجع رجل تجرأ على المرور وسط قفص مليء بالسباع المخدّرة فوجد آثار التخدير قد أخذت تتبخر. وفي الربيع تناول نابليون القيادة العليا على جيوش جديدة، ثم كسب معركة عظيمة عند درسدن، ثم يلوح أنه قد أصيب ردحًا من الزمـ ـان بتـ شتت

---

[1] الإسكيذية أو الأشقوذية انظر ص ٣٤٣ ج٢ من المعالم ط٢. (المترجم).

وانهيار في قواه الفكرية والمعنوية. فأصبح سريع التأثر بشكل جنوني، ثم أخذت تلم به أحياناً حـ الات مـ ن الجمود. فإنه لم يفعل إلا القليل، أو لم يفعل شيئاً على الإطلاق يشفع به معركة درسدن. وفي سبتمبر ذ شبت "معركة الأمم" حول ليبزج وبالقرب منها، وانضم السكسون في أعقاب ذلك إلى الحلفاء وكانوا حتى ذلك اليوم يتبعون نجمه. ولم تنته السنة حتى كان الفرنسيون يتراجعون إلى فرنسا مندحرين.

وكانت ١٨١٤ هي حملة الختام. فاجتيحت فرنسا من الشرق والجنوب. فعبر الراين السويديون والألمان والنمسويون والروسيون، وجاء البريطانيون والإسبان من فوق جبال البرانس. وأخذ نابليون يقاتل مرة أخرى قتالاً زاكياً رائعًا، ولكنه قتال غير مجد. على أن الجيوش الشرقية لم يستطع أن تهزمه قدر ما اسـ تطاعت أن تشق طريقها إلى جواره، واستسلمت باريس في مارس. ولم يمض طويل حتى تنازل الإمبراطور في فونتنبلو عن العرش وكادت تقضي على حياته جماعة من الرعاع الملكيين في بروفانس وهو في طريقه إلى الخارج.

٥- المائة يوم

تلك هي الخاتمة الطبيعية الصائبة لحياة نابليون [١]. وها قد قضي عليه آخر الأمر. فلو كانت هناك حكمة حقيقية في تصريف الشئون الإنسانية، لوجب علينا الآن أن نحدثك عن تمركز العلم الإنساني والإرادة الإنسانية، وتوفرها على أداء الواجب الذي قطعت حياته حبل أدائه وأعني به واجب إنشاء نظام عالمي للعدالة والجهد الحر بدل النظام القديم المفلس. ولكنا لسنا بمحدثيك عن شيء من هذا القبيل. فقد كان العلم والحكمة غائبين غيابًا ظاهرًا ملموسًا عن مجلس الحلفاء العظيم. ووافت إليه النزعة الإنسانية المبهمة والغرور الحالم عند القيصر الإسكندر، ووافاه آل هابسبرج النمسويون الضعفاء، وآل هوهنزولرن البروسيون المغضبون، ووفدت عليه تقاليد بريطانيا الأرستقراطية وهي لا تزال وجلة الروع من الثورة، وضميرها لا يبرح منحرفًا متقلاً بما يبهظه من أراضٍ عامة مغتصبة وأطفال مصانع مكدودين عملاً. ولم يحضر المؤتمر أي شعب من الشعوب بل توافى له الملوك ووزرائه الخارجية دون غيرهم. ولم يكد المؤتمر يجتمع حتى أقبل الدبلوماسيون على العمل على عقد الصفقات والمعاهدات السرية كل من وراء ظهر أخيه. وبين مظاهر الفخامة والجلال التي لا يعلو عليها شيء، اجتمع المؤتمر في فيينا بعد زيارة شرف فخمة أداها ملوك الحلفاء للندن. وكانت الناحية الاجتماعية من المؤتمر قوية جدًا، فقد كثرت فيه السيدات الحسان، وتألقت به مجموعة زاهرة من النجوم وأصحاب البدلات الرسمية، وأقيمت به ما لا نهاية له من المآدب وحفلات الرقص، وروى فيه فيض جارف من النوادر والنكات المشرقة اللألآءة. وكان أذكى أفراد المجتمعين روحًا شخص بعينه اسمه تاليران، وهو أحد "أمراء نابليون"، كان حقًا رجلاً ذكيًا جدًا، عمل قسيسًا قبل عهد الثورة، وهو الذي اقترح ما قامت به الثورة من مصادرة أملاك الكنيسة، وهو الذي كان الآن داعية إلى إعادة آل بوربون!؟...

وأضاع الحلفاء الثمين من الزمان في منازعات تجلى فيها الطمع والجشع متزايدين؛ وعاد آل بوربون إلى فرنسا. وعاد معهم بقية "المهاجرين Émigrés "، وهم أشوق ما يكونون إلى التشفي والانتقام. وكأنما دفعت أنانية عظيمة جانبًا – لا لشيء إلا لكي تكشف الستر عن حشد من الأنانيين الأكثر دناءة وخسة. كان الملك الجديد أخًا للويس السادس عشر؛ وما كان أشد تلهفه إلى التسمي باسم لويس الثامن عشر بمجرد أن علم بوفاة ابن أخيه (لويس السابع عشر) في المعبد. كان مصابًا بالنقرس، وبليدًا. ولعله لم يكن من ذوي المقاصد السيئة، غير أنه كان رمزًا يمثل النظام القديم البالي، فأحس كل ما هو جديد في فرنسا بنذير الرجعية الثقيل الذي لازم مجيئه. لم يكن ذاك تحريرًا، بل استبدادًا وطغيانًا جديدًا ليس غير – بل هو طغيان ثقيل وضيع بدلاً من آخر نشيط رائع.

---

[١] الملاحظ هنا أن المؤلف يشتد في أحكامه على نابليون ويقسو عليه ويقلل من أهميته وينتقص قدر فتوحه، بل ويكاد يشمت فيه عندما سقط، وما أدري هل خرج ولز هنا عن نزعة الإنصاف التي امتاز بها، أم غلبت عليه النزعات البريطانية؟. (المترجم)

أليس أمام فرنسا من أمل غير هذا؟ وأظهر آل بربون حقدًا خاصًا إزاء كبار ضباط الجيش العظيم، وكانت فرنسا في ذلك الحين غاصة بأسرى الحرب العائدين، الذين وجدوا أنفسهم في ظل غمامة قاتمة. وقد أرسل نابليون إلى إمبراطورية صغيرة في جزيرة إلبا يتعزى بها عما أصابه. وكان على أن يظل ملقبا باللقب الإمبراطوري وأن تكون له دولة بعينها. فإن فروسية الإسكندر.. أو هوائيته!.. أبت إلا أن يعامل منافسه المخلوع هذه المعاملة. وانتزع آل هابسبرج منه إمبراطورته الهابسبرجية – فذهبت راضية قريرة العين إلى فيينا، ولم يرها نابليون بعد ذلك أبدًا.

وبعد أن قضى نابليون في إلبا أحد عشر شهرًا قدّر أن فرنسا ضاقت ذرعًا بآل بوربون، فاحتال حتى أفلت من السفن البريطانية التي كانت تراقب جزيرته وظهر في كان بفرنسا ليقوم بآخر لعبة له مع القدر. وكان مسيره إلى باريس موكب نصر عظيم؛ وطأ فيه بقدميه القيعان البوربونية البيضاء. ثم غدا، أمد مائة يوم "وهي فترة المائة يوم" سيدًا على فرنسا من جديد.

وأثارت عودته حالة ارتباك لدى كل فرنسي شريف. فمن ناحية كان ثمة هذا المغامر الذي خان الجمهورية، وكان هناك من الناحية الأخرى ذلك العبء السمج الذي جلبته عودة الملكية القديمة. ولم يكن الحلفاء ليقبلوا أن تحدث أي تجارب جديدة في موضوع الجمهورية. ومن ثم كان الاختيار عندهم بين أمرين: إما نابليون وإما آل بوربون. أعجيب إذن أن تكون فرنسا على الإجمال في صف نابليون؟ وها هو ذا قد عاد معترفًا بأنه تغير وأصبح رجلاً آخر؛ فلن يكون ثمة أي طغيان؛ ولسوف يحترم النظام الدستوري.

جمع جيشًا، وبذل بعض المحاولات في سبيل السلام مع الحلفاء؛ على أنه ما لبث عندما وجد هذه الجهود غير مجدية، أن تقدم فضرب البريطانيين والهولنديين والروسيين في بلاد البلجيك ضربة سريعة، مؤملاً أن يهزمهم قبل أن ينضم إليهم النمسويون والروس. فأوشك أن يصل إلى غرضه هذا تقريبًا. فإنه كسر البروسيين عند لجني (Ligny)، وإن لم يكسرهم بالقدر الكافي؛ وعند ذلك هزم هزيمة لا أمل له بعدها نتيجة لصلابة عود البريطانيين بقيادة ولنجتن عند وترلو (١٨١٥)، على حين وصل البروسيون بقيادة بلوخر وأطبقوا على جناحه الأيمن وقد تقدم النهار. وانتهت معركة وترلو بتشتيت شمل جيشه؛ وغادرت نابليون بلا معين وبلا أمل. وأعرضت عنه فرنسا مرة ثانية وكان كل إنسان انضم إليه تواقًا عند ذاك إلى مهاجمته والتبرؤ منه حتى يمحو الغلطة التي ارتكب. وأمرته حكومة مؤقتة في باريس أن يغادر البلاد، وأمهلته أربعًا وعشرين ساعة يتم فيها ذلك.

فحاول أن يذهب إلى أمريكا، ولكن ميناء روشفور الذي وصل إليه كانت تراقبه الطردات البريطانية. والآن وقد رفعت عن أعين فرنسا غشاوة الأوهام، وعادت فأصبحت على مضض ملكية من جديد، فإنها قامت تلاحقه في حرارة. فاعتلى ظهر مدمرة بريطانية، هي البلتروفون طالبًا أن يُقبل لاجئًا لائذًا، ولكنه في الواقع عومل كأسير. فأخذ بليموث ثم حمل من بليموث مباشرة إلى جزيرة سانت هيلينا المدارية الموحشة.

وهناك بقي حتى وافته منيته بالسرطان في ١٨٢١، بعد أن كرّس نفسه بوجه رئيسي لتحضير مذكراته، التي كانت خطته فيها أن يعرض كبريات أحداث حياته تحت ضياء ساطع جذاب، وكان رجلان ممن معه يسجلان محادثاته، ويثبتان انطباعاتهما عنه.

وراجت هذه المؤلفات رواجًا عظيمًا في فرنسا وأوربا. وظل الحلف المقدس بين ملوك الروسيا والنمسا وبروسيا (الذي دعي ملوك آخرون للانضمام إليه) يعمل عمله بمشقة كبيرة في ظلال وهم باطل بث في روعهم أنهم يوم هزموا نابليون قد هزموا الثورة، وأرجعوا ساعة القدر أدراجها، وأعادوا الملكية العظمى إلى أبد الآبدين. ويقال إن الوثيقة الرئيسية لخطة الحلف المقدس رسمت بوحي من البارونة فون كرودنر، التي يبدو أنها كانت نوعًا من المدبر الروحي للإمبراطور الروسي وكانت بدايتها كما يأتي: "باسم الثالوث المقدس الذي لا تنفصم عراه"، وكانت تلزم الملوك المشتركين فيها، "بأن يعدوا أنفسهم نحو رعاياهم وجيوشهم في مكان الوالد من العائلة" وأنهم "إذ يَعدّ أحدهم الآخر مواطنًا له"، يشد أحدهم أزر الآخر، ويحمون الدين الحق ويحضون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية. ويصرح الحلف بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية، وعسانا نستطيع أن نلاحظ أنه كان بناء على هذا ملكًا ميروفنجيا بكل معاني الكلمة ولا سلطان له إزاء هؤلاء الملوك المتربعين في دست الأحكام والذين هم لديه بمثابة محافظين للقصر؟[1].. ولم يكن لملك بريطانيا أي سلطة تخول له أن يوقع هذه الوثيقة، ولم يطلب أحد إلى البابا ولا السلطان أن يوقعاها، وانضم إليها سائر ملوك أوربا بما فيهم ملك فرنسا. على أن ملك بولندة لم يوقع لأنه لم يكن ثمة ملك لبولندة!!، وذلك لأن الإسكندر قام وهو في حالة من حالات الذهول الورع فألحق ببلاده معظم بولندة!. ولم يصبح الحلف المقدس أبدًا محالفة قانونية بين الدول، بل حلت محله عصبة أمم حقيقية، هي "اتحاد أوربا" الذي انضمت إليه فرنسا في ١٨١٨، والذي انسحبت منه بريطانيا في ١٨٢٢. وعقبت ذلك فترة سلام وعسف في أوربا. وكان كثير من الناس يميلون في تلك الأيام التي انقطع فيها حبل الأمل أن يرمقوا حتى نابليون نفسه بنظرة إحسان، وأن يقبلوا منه ادعاءه بأنه عندما كان يؤيد حقه، كان يؤيد حق الجمهورية وفرنسا، على طريقة لا يمكن تفسيرها. ونمت بعد وفاته نحلة تعده شيئًا ذا بطولة صوفية دينية.

---

[1] محافظ القصر: في ذلك إشارة إلى تاريخ ببين وشارل مارتل فليرجع إليها القارئ ص ٨٣٦ ج٣ م المعالم ٢. حيث كان الملك اسما للأسرة الميروفنجية ومقاليد الحكم كلها بيد محافظ القصر الذي يتولاها باسم الملك. (المترجم).

٦- خريطة أوربا في ١٨١٥

ظلت فكرة الحلف المقدس، والاتحاد الأوروبي الذي تمخض عنه ذلك الحلف، وسلسلة المؤتمرات والاجتماعات التي عقبت الاتحاد، محافظة مدة أربعين عامًا على سلام مزعزع الأركان في أوربا التي خرجت من الحروب منهوكة القوى. وهناك أمران رئيسيان حالا بين هذه الفترة وبين أن تكون سلامًا اجتماعيًا ودوليًا كاملاً، ومهدا السبيل لدورة الحرب التي وافت بين ١٨٥٤، ١٨٧١. وكان أول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية المختصة إلى استرداد الامتيازات غير العادلة، والتدخل في حرية الفكر والكتابة والتعليم. وكان الثاني هو مجموعة الحدود المستحيلة التي رسمها الديبلوماسيون في فيينا.

وكان ميل الملكية إلى الرجوع إلى الأحوال القديمة البائدة واضحًا أولاً وبوجه خاص في إسبانيا. حتى لقد بلغ الأمر هناك أن أعيدت محاكم التفتيش. فأما عبر المحيط الأطلسي، فإن المستعمرات الإسبانية حذت حذو الولايات المتحدة وثارت على نظام الدول الكبرى الأوربي، عندما نصب نابليون أخاه جوزيف ملكًا على إسبانيا في (١٨١٠). وكان زعيم الاستقلال وواشنجتون أمريكا الجنوبية هو الجنرال بوليفار. ولم تستطع إسبانيا أن تقمع هذا العصيان، فطال به الأمد مثلما طال بحرب استقلال الولايات المتحدة، وأخيرًا تقدمت النمسا باقتراح يتسق وروح الحلف المقدس، تذكر فيه أن من واجب ملوك أوربا أن يساعدوا إسبانيا في كفاحها ذاك. فعارضت في ذلك بريطانيا في أوربا، فأما في أمريكا فإن العمل السريع الذي قام به رئيس الولايات المتحدة الرئيس مونرو في (١٨٢٣)، هو الذي قضى على مشروع هذا الاسترداد لسلطان الملوك قضاء نهائيًا. فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعدّ أي بسط للنظام الأوربي في نصف الكرة الغربي عملا عدائيًا. وبذا نشأ "مبدأ مونرو"، الذي ضد نظام الدول الكبرى عن أمريكا قرابة مائة من السنين، وسمح للدول الجديدة في أمريكا الإسبانية بأن تكوّن مقدراتها على الشاكلة التي ترضيها. ولئن فقدت الملكية الإسبانية مستعمراتها، فقد كانت على الأقل تستطيع تحت حماية الاتحاد الأوربي أن تفعل ما تشاء في أوربا. وأخمد جيش فرنسي فتنة شعبية قامت في إسبانيا في (١٨٨٣)، بانتداب من أحد المؤتمرات الأوربية، وفي الوقت ذاته قمعت النمسا ثورة شبت في نابلي.

وفي (١٨٢٤) مات لويس الثامن عشر، وخلفه كونت أرتوا الذي رأيناه مهاجرًا يرفرف ويحوم من فوق الحدود الفرنسية في (١٧٨٩) فاتخذ لقب شارل العاشر. ونصب شارل نفسه لتدمير حرية الصحافة والجامعات وإعادة الحكم المطلق، وأخذ الصوت بالموافقة على اعتماد نابليون فرنك لتعويض النبلاء عن إحراق قصورهم ومصادرة أملاكهم في (١٧٨٩). وفي (١٨٣٠) ثارت باريس ضد هذا الملك الذي يتمثل فيه النظام العهيد [1]، وتبدلت به لويس فيليب بن فيليب دوق أورليان المعروف، الذي حكم عليه بالإعدام أثناء حكم الإرهاب. ولم تتدخل في هذا الشأن بقية الملكيات الأخرى بأوربا، إذ واجهها استحسان علني من بريطانيا العظمى واختمار تحريري قوي في ألمانيا والنمسا. ومهما يكن من شيء فإن فرنسا كانت لا تزال

[1] ورد في معجم الوسيط ما نصه: "العهيد": القديم العتيق الذي مر عليه عهد طويل". (المترجم).

محتفظة بالنظام الملكي. وظل هذا الملك الشاب لويس فيليب (١٨٣٠ – ١٨٤٨) هو ملك فرنسا الدستوري أمد ثمانية عشر عامًا. ولكنه سقط في (١٨٤٨) وهي سنة عظيمة الأحداث في أوربا، وسنحدثك عنه ما في الفصل التالي.

تلك هي التأرجحات القلقة التي ألمت بصلح مؤتمر فيينا، والتي أثارت التصرفات الرجعية لأنصار الملكية. فإن التأزمات التي نشأت عن خريطة الدبلوماسيين غير المدروسة دراسة علمية تسببت في تجمع القوى بتعمد أكثر، ولكنها كانت أشد خطرًا على سلام البشرية. فإن من أكثر الأمور عسرًا ومضايقة أن يدير السياسي شئون أقوام مختلفين عنصرًا يتكلمون لغات مختلفة ويقرءون من ثم أدبًا مختلفاً ولهم فكرات عامة مختلفة، وخاصة إذا بلغت هذه الفروق والاختلافات حد السخط بسبب المنازعات الدينية. وليس في طوق أي شيء اللهم إلا بعض المصالح القوية المتبادلة (من أمثال احتياجات الدفاع المشترك لدى سكان سويسرا الجبليين)، أن يبرر إقامة ترابط وثيق بين شعوب متباينة في لغاتها وعقائدها، بل إن سويسرا ذاتها يقوم بها أقصى درجات الحكم الذاتي المحلي استقلالا. وعندما تموت في النهاية تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب فعسى هؤلاء السكان السويسريون أن ينجذبوا تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب فعسى هؤلاء السكان السويسريون أن ينجذبوا نحو وشائجهم الطبيعية في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. وعندما يكون الحال كشأنه في مقدونيا حيث يختلط السكان تخلطاً موزعًا إلى رقاع صغيرة من القرى والنواحي، فعندئذ تحتم الظروف قيام نظام الكانتونات. ولكن إذا نظر القارئ إلى خريطة أوربا كما رسمها مؤتمر فيينا، رأى أن هذا المجلس كان كمن يرسم خطة الوصول بالسخط المحلي إلى أقصاه. فإنه دمر الجمهورية الهولندية، ثم راح بغير ما داع، فجمع بين الهولنديين البروتستانت وبين الكاثوليك المتكلمين بالفرنسية الذين كانوا في الأراضي المنخفضة الإسبانية (النمسوية). وأقام بهما مملكة للأراضي المنخفضة. ولم يكتف بأن يسلم جمهورية البندقية القديمة فقط، بل كل شمال إيطاليا حتى ميلان للنمسويين الناطقين بالألمانية. وأدمج منطقة السافويا الناطقة بالفرنسية مع أجزاء من إيطاليا بغية إرجاع مملكة سردينيا. وكانت إمبراطورية النمسا والمجر من قبل ذلك خليطاً به ما يكفيه من عوامل التفجر من الجنسيات المتنافرة غير المتسقة ما بين ألمانيين ومجريين وتشيكوسلوفاك ويوغوسلاف ورومانيين وانضم إليهم الآن الإيطاليون، ثم جعلتها أحداث (١٧٧٢، ١٧٩٥) أكثر استحالة مما كانت. فأما البولنديون الكاثوليك ذوو الروح الجمهورية فقد أسلموا بصفة رئيسية إلى حكم القيصر الأقل حضارة وصاحب الدين اليوناني الأرثوذكسي، عدا أن أجزاء هامة منها ذهبت إلى بروسيا البروتستانتية. كذلك ثبتت قدم القيصر فيما احتازه من بلاد الفنلنديين المختلفين عنه اختلافاً كليًا. وربُط الشعبان غير المتشابهين النرويجي والسويدي تحت حكم ملك واحد. وتركت ألمانيا – كما سيرى القارئ – في حالة ارتباك خطرة بوجه خاص. فقد كانت كل من بروسيا والنمسا داخلتين جزئيًا وخارجتين جزئيًا في اتحاد كنفدرالي (Confederation) ألماني كان يضم عددًا كبيرًا من الدول الصغرى. ودخل ملك الدانمارك على مائدة الاتحاد الكنفدرالي بسبب وجود ممتلكات له في ذلك الاتحاد تتكلم الألمانية في هولشتين. وأدخلت لكسمبورج في ذلك الاتحاد الكنفدرالي الألماني، مع أن حاكمها كان كذلك هو ملك الأراضي المنخفضة، ومع أن كثيرًا من سكانها كانوا يتكلمون الفرنسية. وهنا تلمس إغفالاً تامًا لحقيقة واقعة هي أن القوم الذين يتكلمون

الألمانية ويبنون فكراتهم على الأدب الألماني، وأن القوم الذين يتكلمون الإيطالية ويبنون فكراتهم على الأدب الإيطالي، وأن القوم الذين يتكلمون البولندية ويبنون فكراتهم على الأدب البولندي سوف يكونون جميعًا أسعد حالاً ويكونون من أعود الناس على سائر الإنسانية نفعًا ومعونة وأقلهم بها شرًا وضرًا، إذا هم أداروا شئونهم على تراكيب لغتهم داخل نطاق لسانهم الخاص. أعجيب إذن أن تكون من بين أشد الأغنيات ذيوعًا في الناس في ألمانيا أثناء تلك الفترة، أغنية تصرح بأنه حيثما كان اللسان الألماني يتكلم، كانت أرض الأجداد الألمانية.

ولا يزال الناس حتى في يومنا هذا كارهين أن يعترفوا بأن مناطق الحكم ليست من الشئون التي يجوز فيها المساومات والتفاعلات بين القياصرة والملوك ووزارات الخارجية. وهناك "خريطة ضرورية سياسية للعالم" تتعالى فوق كل هذه الأمور. وثمة طريقة أخرى هي "أحسن الطرق المستطاعة" يقسم بها أي جزء من أجزاء العالم إلى مناطق إدارية، وذلك بالنظر إلى لغة وجنس سكانها، وإنه لمما يهمنا جميعًا أن نضمن وجود هذه الأقسام وأن تؤسس أشكال الحكومة تلك بصرف النظر تمامًا عن الدبلوماسيات والرايات" والمدعيات" "والولاءات" الميلودرامية الانفعالية، وعن خريطة العالم السياسية الموجودة اليوم. وخريطة العالم السياسية المخططة حسب الطبيعة تأبى إلا أن تنفذ. وهي تضطرب وتتحرك تململاً من دون الخريطة السياسية الاصطناعية كما يتململ جبار في وضع لا يريحه. ففي (١٨٣٠) قامت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية – وقد حفزتها الثورة في فرنسا – فثارت على شريكتها الهولندية في مملكة الأراضي المنخفضة. وسارعت الدول إلى تسكين هذا الموقف وقد أرعبها إمكان قيام جمهورية بها أو استلحاقها إلى فرنسا ومنحت البلجيكيين ملكا هوليوبولد الأول أمير ساكس كوبرج جوثا. وحدث كذلك في (١٨٣٠) ثورات لم يكتب لها التوفيق بإيطاليا وألمانيا، وفتنة أشد خطورة بكثير في بولندة الروسية. وقامت في وارسو حكومة جمهورية وصمدت عامًا كاملاً حيال نيقولا الأول (الذي خلف الإسكندر في ١٨٢٥)، ثم قُضي عليها عند ذاك بعنف وقساوة كبيرين. وصدر قرار بتحريم اللغة البولندية، واستبدلت بالكنيسة الكاثوليكية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بوصفها الديانة الرسمية للدولة...

وهناك انفجار في خريطة العالم السياسية المطابقة للطبيعة حدث في (١٨٢١)، وانتهى بالحصول على مناصرة إنجلترة وفرنسا والروسيا. وكان ذلك الانفجار هو ثورة اليونان ضد الأتراك. ذلك أن اليونانيين ظلوا يقاتلون قتال المستيئس أمد ست سنوات، على حين وقفت حكومات أوربا تنظر إليهم متفرجة.. واحتج الرأي الحر على هذا الجمود؛ وانضم إلى الثوار المتطوعون من كل دولة أوربية، وانتهى الأمر بأن قامت بريطانيا وفرنسا والروسيا بعمل مشترك. فدمر الأسطولان الإنجليزي والفرنسي الأسطول التركي في معركة نوارين (١٨٢٧) وغزا القيصر تركيا. وأعلنت حرية بلاد اليونان بمعاهدة أدرنة (١٨٢٩)، ولكن لم يسمح لها بأن تواصل تقاليدها الجمهورية القديمة. واتخذت الدول لبلاد اليونان ملكًا ألمانيا هو أمير بافاري اسمه أوتو – فغلبت عليه أوهام اعترته حول حقه المقدس، ونبذ في ١٨٦٢ – وأقيم حكام مسيحيون في الولايات الدانوبية (التي هي الآن رومانيا)، وسربيا (وهي جزء من منطقة يوغسلافيا). وكان هذا إذعانًا جزئيًا للخريطة السياسية الموافقة للطبيعة، ولكن كان لا بد من سفك الدم الكثير قبل أن يطرد التركي طردًا تامًا من هذه الأراضي. وبعد ذلك بزمن يسير قامت الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة تنادي بحقوقها في ألمانيا وإيطاليا.

٧- طراز الإمبراطورية

انعكست محاولة نابليون إعادة الإمبراطورية الرومانية انعكاسًا تبدت فيه الأمانة البالغة في فن العمارة والثياب والأثاث وفن التصوير في تلك الفترة. وقد قاموا في كل هذه الأمور بمحاولة ابتعاث الأشكال والروح المطابقة لواقع روما الإمبراطورية. وكأنما أفلتت من المتاحف ألبسة الرأس النسائية وثياب السيدات وخرجت تسعى في الطرقات. وأخذت مجاميع الأعمدة وأقواس النصر تتهادى وتتبختر في طريقها إلى أعظم مواقع المدن الكبرى كافة. وفازت باريس بقوس النصر وقلدتها لندن على الفوز فكان لها قوس الرخام (Marble Arch). واختفت من الوجود تطورات البروق (الباروك)[1] والركوكو[2] في مباني النهضة لأن الناس فضلوا عليها واجهات أخرى أقسى وأعبس مظهرًا. وكان كانوفا الإيطالي هو المثّال العظيم لذلك الزمان. وكان دافيد يطرب لأشكال الأبطال العراة. وخلد إنجرس (Ingres) أميرات نابليون على صورة ربات منازل رومانيات وربات رومانيات. وتماثيل لندن العامة تمثل ساسة تلك الفترة وملوكها الموقرين في أشكال أعضاء السناتو والأباطرة. وعندما اختارت الولايات المتحدة تصميمًا لخاتمها الأعظم، كان من الطبيعي أن تختار فيه النسر وأن تضع في مخالبه سهم المشترى[3].

---

(1) كلمة باروك مأخوذة عن الكلمة البرتغالية Barroco ومعناها الجوهرة غير المنتظمة الشكل وتدل في الاصطلاح الفني على طراز خاص شديد الزخرف شاع في أوربا بين عامي ١٦٠٠ – ١٧٢٠ أو ١٧٦٠ والكلمة من أصل عربي هو لفظ "براق". (المترجم).

(2) روكوكو: مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Rocaille ومعناها الحصاة على شكل الصدفة وهو اصطلاح في الفنون الزخرفية يطلق على زخرف يتألف من الأصداف والأحجار وقد شاع منذ عام ١٨٣٠ عند ختام الطراز البروكي (المترجم).

(3) المشتري: أكبر آلهة الرومان. (المترجم).

الفصل السابع والثلاثون

حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته

١- الانقلاب الآلي.

٢- العلاقة بين الانقلابيين الآلي والصناعي.

٣- اختمار الفكرات في ١٨٤٨.

٤- تطور فكرة الاشتراكية.

٥- عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية.

٦- كيف أثر مذهب داروين في الفكرات الدينية والسياسية.

٧- فكرة القومية.

٨- المعرض الكبير في ١٨٥١.

٩- سيرة حياة نابليون الثالث.

١٠- لنكولن والحرب الأهلية في أمريكا.

١١- الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين.

١٢- التدافع الثاني على الإمبراطوريات وراء البحار.

١٣- السابقة الهندية في آسيا.

١٤- تاريخ اليابان.

١٥- ختام فترة التوسع وراء البحار.

١٦- الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤.

١٧- التصوير والنحت والعمارة في القرن التاسع عشر.

١٨- الموسيقى في القرن التاسع عشر.

١٩-نهوض القصة إلى المرتبة العليا في الأدب.

١- الانقلاب الآلي

تبدو حياة نابليون الأول وشخصيته في مؤلفات القرن التاسع عشر التاريخية ضخمة لا تتناسب وأهميته. فإنه كان قليل الأهمية بالنسبة للحركة الرحيبة السائرة قدمًا بالشئون الإنسانية نحو الأمام. ولم يزد على أن كان مقاطعًا لتلك الحركة ومذكرًا بالشرور الكمينة، كما كان أشبه شيء بباكتريا بعض الأوبئة. ولو نظرنا إليه حتى من زاوية الأوبئة واعتبرناه باكتريا، فإنه لم يكن منها في المقام الأول؛ فإنه قضى على عدد من الأنفس يقل عما قضى عليه وباء الأنفلونزا في سنة ١٩١٨، وأنتج من التمزيق السياسي والاجتماعي أقل مما أنتجه الطاعون في عصر جستنيان.

لم يكن بد من ظهور تمثيليته الصغيرة على المسرح بين فصول المسرحية الكبرى، ولم يكن مندوحة من حدوث تلك التسوية الأوربية المرقعة التي تتبدى في الاتحاد الأوربي، ذلك أنه لم يكن هناك مجموعة مدروسة من الفكرات يمكن أن يقام عليها عالم جديد. وإن الاتحاد الأوربي نفسه كان ينطوي على عامل من عوامل التقدم. فإنه على الأقل اطرح جانبًا روح "الفردية" الممثلة في الملكية الميكيافللية وأعلن أنه توجد دولة إنسانية أو على الأقل دولة أوربية. فلئن قسم ذلك الاتحاد العالم بين الملوك، فإنه أدى تحية التجلة والإكبار للوحدة الإنسانية وخدمة الله والإنسان.

والواجب الدائم الأثر الذي كان على الإنسانية أداؤه، قبل أن يكون في الإمكان إقامة أي بناء سياسي واجتماعي جديد مستديم، وهو الواجب الذي لا تزال الفطنة الإنسانية منشغلة به رغم ما ألم به من فترات التوقف والمقاطعة وما أحاط به من مظاهر الغضب والشغب –كان وما ينفك هو واجب إنتاج وتطبيق:"ا" علم للملكية يكون أسًّا تبنى عليه الحرية والعدالة الاجتماعية، "ب" علم للعملة يضمن وجود وسيط اقتصادي كفء، "جـ" علم لأصول الحكم والعمليات الجماعية، يستطيع به الناس في كل مجتمع أن يتعلموا كيف يتولون مصلحتهم المشتركة بتوافق وانسجام، "د" علم للسياسة العالمية يمكن أن يقضي على ما في الحروب بين الجنس والجنس، والشعب والشعب، والأمة والأمة، من التدمير والإسراف الشديد والقساوات الفظيعة، ويمكن به أن توضع بفضله مصالح قيام البشرية المشتركة تحت رقابة مشتركة؛ وفوق كل شيء، "هـ" علم يكفل قيام نظام للتعليم شامل للعالم قاطبة يدعم إرادة الناس ومصلحتهم في مغامرتهم الإنسانية المشتركة.

فأما صناع التاريخ الحقيقيون في القرن التاسع عشر، وهم القوم الذين سوف تحدّد عواقب أعمالهم الحياة الإنسانية مقدمًا لمدة قرن كامل من الزمان، فقد كانوا هم أولئك الذين روجوا لهذا الجهد الحماسي البنّاء وأسهموا فيه. فلو قيس إليهم وزراء الخارجية ورجال الدولة والسياسيون في تلك الفترة لما زادوا عن فئة من التلاميذ المشاغبين الذين يصلون أحياناً إلى حد إضرام الناس والإحراق، أو بضع نفر من سراق المعادن، الذين يعبثون هنا وهناك ويحدثون شرًا موقوتاً بين المواد الباقية على أرض بناء عظيم لم يفهموا كنهه.

وعلى حين أن عقل المدنية الغربية في القرن التاسع عشر بأكمله، وهو العقل الذي أطلقته النهضة من عقاله، ظل يجمع نفسه لأداء واجب التعمير الاجتماعي والسياسي الخلاق الذي ما يزال عليه عبء القيام به

– فقد غمرت العالم موجة تغيير عام في القوة البشرية وفي أحوال الحياة المادية التي أباحت سبل وجودها الجهود العلمية الأولى لهذا العقل المتحرر.

وابتدأت نبوءات روجر باكون تعيش في عالم الحقيقة. فإن المعرفة والثقة المتجمعة لدى الأجيال القليلة المتعاقبة من الناس الذين حملوا لواء التنمية العلمية، قد أخذت عند ذاك تؤتى ثمارًا كان في مستطاع العامة من الناس أن يفهموها. وكانت الآلة البخارية هي أشد تلك الثمار الأولى وضوحًا. وكانت أولى الآلات البخارية المستعملة في القرن الثامن عشر مضخات تستعمل في صرف المياه إلى خارج مناجم الفحم المحتفرة حديثًا. وكانت مناجم الفحم هذه تشغَّل لاستخراج الكوك بغية استعماله في صهر الحديد الذي كان الفحم النباتي المتخذ من الخشب يستخدم فيه آنفًا. وإلى جيمس وات وهو صانع آلات دقيقة في جلاسجو يرجع الفضل في تحسين تلك المضخة البخارية، وجعْل استعمالها لدفع الماكينات أمرًا ممكنًا. وقد وضعت أول آلة استعملت لهذا الغرض في مصنع لنسج القطن بنوتنجهام في (١٧٨٥).

وفي (١٨٠٤) كيف ترفيتيك آلة وات وجعلها صالحة لأعمال النقل، وأنشأ أول قاطرة. وفي (١٨٢٥) فتح للسفر أول خط حديدي بين ستوكتون ودارلنجتون. ولا تزال الآلة الأصلية وهي (القاطرة رقم١، ١٨٢٥) تزين رصيف محطة دارلنجتون. وما وافى منتصف القرن حتى كانت شبكة من الطرق الحديدية قد عمت كل أرجاء أوربا.

هنا حدث انقلاب فجائي فيما ظلّ زمانًا طويلاً حالة ثابتة في الحياة الإنسانية، وأعني بذلك أقصى سرعة للنقل البري. وقد سافر نابليون بعد كارثته الروسية من قرب فيلنا إلى باريس في ٣١٢ ساعة، وهي رحلة تقارب الألف والأربعمائة من الأميال. كان يسافر مستمتعًا بكل ما تتصوره العقول من الميزات، وكان معدل مسيره يقل عن خمسة أميال في الساعة. وذلك في حين أن الراكب العادي لم يكن ليستطيع أن يقطع هذه المسافة في ضعف هذا الوقت. وكانت هذه السرعة تقارب نفس سرعات السفر القصوى التي كانت ممكنة بين روما وبين بلاد الغال في القرن الأول الميلادي، أو بين ساردبس وسوسا في القرن الرابع ق. م.

ثم جاء على الفجاءة تغيير هائل. فإن السكك الحديدية خفضت هذه الرحلة لأي راكب عادي إلى ما يقل عن ثمانية وأربعين ساعة، أي إنها خفضت المسافات الأوربية الرئيسية إلى ما يداني عشر ما كانت عليه. وجعلت من الممكن القيام بالعمل الإداري في مناطق تكبر بعشرة أضعاف ما كان في الإمكان إدارته حتى ذلك الحين بواسطة إدارة واحدة. وما برح المغزى الكامل لهذا الاحتمال في أوربا ينتظر الأيام التي تحققه. فإن أوربا ما برحت تقسّمها شبكة حدود رسمت في عصر الحصان والسكة الزراعية. وكانت آثار ذلك الحدث في أمريكا سريعة مباشرة. وكان معنى ذلك لدى الولايات المتحدة الأمريكية الزاحفة غربًا، هو إمكان وجود اتصال مستمر بواشنجتون، مهما تكن المسافة التي تنتقلها الحدود عبر القارة. وكان معنى ذلك هو الوحدة التي تصان على معيار كان لولاها من أضرب المستحيل.

وكان ظهور الزورق البخاري أسبق قليلاً من الآلة البخارية في مراحلها الأولى. وكان هناك زورق بخاري هو (شارلوت دنداس)، ينتقل في قناة (الفورت والكلايد بإنجلترة) في (١٨٠٢)، وفي (١٨٠٧) كان

لأمريكي يدعى فالتون باخرة معدية، هي الكليرمونت بها آلات مصنوعة ببريطانيا، وكانت تسير في نهر الهدسون أعلى نيويورك. وكانت أول سفينة بخارية سارت في البحر أمريكية كذلك وهي "الفينكس" التي كانت تسير من نيويورك (هوبوكن) إلى فيلادلفيا. وكذلك كان شأن أول سفينة تستخدم البخار (وكان لها أيضًا قلوع) عبرت الأطلسي، وهي السافانا (١٨١٩). وكانت كل هذه زوارق ذات عجلة رفاسة، ولكن زوارق العجلة الرفسة لا تصلح للعمل في عرض البحار الثقيلة. فإن الطارة الرفاسة سهلة الكسر، وعند ذلك يصبح الزورق عاجزًا أشل.

وظهرت عقب ذلك السفينة البخارية ذات الداسر اللولبي[1]. وكان لا بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن يصبح الداسر اللولبي شيئًا عمليًا يمكن الانتفاع به. ولم تشرع حمولة السفن البخارية في أن تزيد على حمولة السفن الشراعية إلا بعد أن بلغ القرن منتصفه. وبعد ذلك أمسى التطور في النقل البحري سريعًا وأخذ الناس لأول مرة يعبرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التحقق من موعد وصولهم. وكان عبور الأطلسي قبل ذلك مغامرة غير محققة تمتد أسابيع كثيرة قد تترامى إلى الشهور، فلم تزل السرعة فيه تزداد حتى خفضت مدته في (١٩١٠) في حالة أسرع البواخر، إلى أقل من خمسة أيام، مع إمكان تحديد ساعة الوصول على وجه التقريب. وشمل نفس هذا التخفيض في الزمن ونفس هذا التحقق من المواصلات الإنسانية جميع محيطات العالم وبحاره.

وساير تطور البخار على سطح الأرض وفي عباب الماء، ظهور أمر آخر جديد رائع أضيف إلى تسهيلات التواصل البشري، ونشأ عن أبحاث "فولتا" و "جالفاني" و "فارادي" في الظواهر الكهربية المتنوعة. وظهر التلغراف الكهربي إلى عالم الوجود في (١٨٣٥) ووضع أول سلك بحري (كابل) تلغرافي تحت أطباق البحر في (١٨٥١) بين إنجلترة وفرنسا. ولم تمض بضع سنوات حتى كان نظام التلغراف قد عم العالم المتمدن بأكمله، وبذا أصبحت الأخبار التي كانت حتى ذلك اليوم ترحل متباطئة من موضع إلى موضع تنتشر في كل أرجاء المعمورة في وقت واحد تقريبًا.

وقد كانت هذه الأشياء وأعني بها السكك الحديدية البخارية والتلغراف الكهربي أشدّ المستحدثات روعة وثورة لدى أذهان عامة الناس في منتصف القرن التاسع عشر، على أنهما لم يكونا إلا أبرز وأسمج تباشير عملية أشد منهما اتساعًا وعظمًا. وأخذت المهارة والمعرفة الصناعية التكنيكية تتطوران في سرعة غير مألوفة، وإلى حد غير مألوف إذا قيس تقدم ذلك العصر بتقدم أي عصر سابق عليه.

وانبسطت قدرة الإنسان على المواد الإنشائية المتنوعة وكان انبساطها في البداءة أقل ظهورًا بكثير في حياته اليومية، ولكنه أصبح آخر الأمر على درجة عظيمة من الأهمية. وقبل أن ينتصف القرن الثامن عشر كان الحديد يستخلص من خامه بواسطة فحم الخشب، وكان يتناول قطعًا صغيرة ثم يطرق ويصاغ في الشكل المطلوب. كان مجرد مادة يعمل فيها صانع. وكانت جودة نوع الحديد وطريقة معالجته تعتمد اعتمادًا هائلاً على خبرة الصانع الفرد وفطنته. وكانت أكبر كتل الحديد التي يستطاع معالجتها في مثل تلك الظروف تصل

---

[1] الداسر اللولبي (Screw) أو الدافع اللولبي: هو مرواح (Propeller) ويستعمل في دفع السفن أو الطائرات. (المترجم).

في أعظم شأنها (في القرن السادس عشر) إلى طنين أو ثلاثة. (فكان هناك إذن حدّ أعلى محدود جدًا لحجم المدفع). ونشأ الفرن العالي [1] في القرن الثامن عشر وازداد تطورًا باستخدام فحم الكوك. ولسنا نجد قبل القرن الثامن عشر صفائح الحديد المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٢٨)، ولا الأسياخ والقضبان المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٨٣). وجاءت مطرقة "نازميث" البخارية في زمن متأخر هو (١٨٣٩).

ولم يستطع العالم القديم أن يستعمل البخار بسبب تأخره في علوم المعادن والتعدين. فأما الآلة البخارية حتى المضخة البدائية، فلم يكن في الإمكان تطويرها قبل أن تتيسر صفائح الحديد. وتبدو الآلات الأولى لعين الرائي العصري قطعًا من الحديد الخردة سمجة مستوجبة لأشد الرثاء، ولكنها كانت أقصى ما يستطيع علم المعدنيات أن يخرجه في ذلك الزمان. وجاءت طريقة "بسمنر" في زمن يقارب في تأخره (١٨٥٦)، ثم تلتها على الفور (١٨٦٤)، عملية الأتون المفتوح الذي كان في المستطاع إذابة الصلب وكل أنواع الحديد فيه، وتنقيتها وصبها بحالة وعلى مقياس لم يسمع الناس بهما حتى آنذاك. ولقد يستطيع الإنسان اليوم أن يرى في الفرن الكهربي أطنانًا من الصلب الوهاج المبيض بالحرارة وهو يَهْدِرُ هدير اللبن المغلي.

وليس في مراحل التقدم الإنساني العملية السابقة ما يعدل في عواقبه ما بلغه الإنسان اليوم من تلك السيادة التامة على كتل هائلة من الصلب والحديد وعلى تكوينها ودرجة جودتها. وكانت السكك الحديدية الأولى والآلات المبكرة بجميع أصنافها مجرد انتصارات للوسائل الجديدة لمعالجة الفلزات[2]. وسرعان ما ظهرت سفن الحديد والصلب والكباري الضخمة، وطريقة جديدة للبناء بالفولاذ على معيار هائل. وأدرك الناس بعد فوات الزمن الطويل أنهم كانوا يصممون سككهم الحديدية على مقياس سعة [3] يتجلى فيه الخوف المفرط، وإنه كان في مستطاعهم أن ينظموا أسفارهم على أساس قدر أوفى من الثبات والراحة باستعمال مقياس سعة أعظم كثيرًا من الموجود.

ولم تكن هناك في العالم قبل القرن التاسع عشر أية سفن تتجاوز حمولتها ألفين من الأطنان. وليس هناك اليوم أي عجب في وجود باخرة ذات خمسين ألف طن. ومن الناس من يهزءون بهذا التقدم زاعمين إياه تقدمًا في "مجرد الحجم" فقط، غير أن هذا النوع من الزراية إنما يدل على ضيق أفقهم.

فليست السفينة العظيمة ولا المبنى ذو الهيكل الفولاذي صورة مضخمة من سفينة الماضي الصغيرة أو بناء الماضي الصغير كما يتوهمون، وإنما هي شيء مختلف في نوعه، يبنى بناءً أخف وأقوى، من مواد أجود وأمتن. وبدل أن تكون شيئًا يعتمد على السوابق والحساب التقريبي، إذا بها شيء يرجع إلى حسابات دقيقة معقدة. ففي المنزل أو السفينة القديمة، كانت المادة هي المتسلطة – فكان الحال يقتضي أن تطاع المادة وما يلزمها طاعة العبيد؛ فأما السفينة الحديثة أو المنزل الجديد فقد قبض فيهما على ناصية المادة وغُيِّرت

---

[1] الفرن العالي (Blast – Furnace) هو فرن لصهر الحديد ينفخ فيه الهواء الساخن. (المترجم).

[2] علم الفلزات (Metallurgy): هو العلم والفنون المطبقة على المعادن بما في ذلك استنزالها من خامها وتنقيتها وخلطها سبائك وتشكيلها ومعالجتها ودراسة تكوينها وبنيتها وخواصها. (المترجم)

[3] مقياس سعة (Oavge) مسافة ما بين القضبان. (المترجم).

معالمها وضبطت أحوالها. تصور ذلك الفحم والحديد والرمل المستخرجة من المحاجر والمناجم، وهي تؤخذ وتشغل، وتصهر وتصب لكي تقام آخر الأمر برجًا رفيعًا براقًا من الصلب والزجاج يعلو على المدينة المزدحمة بستمائة قدم!

وهذه التفاصيل عن تقدم معرفة الإنسان بالخواص الفلزية للصلب ونتائجها قد أدلينا بها على سبيل المثال والتوضيح. وفي إمكاننا أن نروي لك قصة مماثلة لهذه عن الخواص الفلزية للنحاس والقصدير وعن عدد غفير من المعادن نجتزئ منها بذكر اثنين هما النيكل والألومنيوم، وهما معدنان لم يكونا معروفين قبل انبثاق فجر القرن التاسع عشر.

وإنما يعود إلى هذه السيادة العظيمة النامية على المواد، أعني على الأنواع المختلفة من الزجاج وعلى الصخور وأنواع (البياض) وما إليها، وعلى الألوان والتكوين، الفضل في إحراز الإنسان أهم انتصاراته في الثورة الميكانيكية حتى هذا الأوان. ومع هذا فإنا ما نزال في مرحلة اجتناء أول بواكير ذلك الأمر. لدينا القوة، ولكن ما يزال علينا أن نتعلم كيف نستخدم قوتنا. وكثيرًا ما كانت هبات العلم هذه تستخدم استخدامات سوقية أو قبيحة الذوق أو مبهرجة أو سمجة حمقاء أو شنيعة. ولم يكد الفنان ولا الفني المنفذ [1] أن يشرعا حتى الآن في العمل في الأضرب اللانهائية للمواد التي هي الآن بين أيديهما.

ونما علم الكهرباء الجديد نموًا مماثلاً لهذا التوسع في الاحتمالات الميكانية ولم يحدث إلا في العقد الثامن من القرن التاسع عشر أن شرعت هذه المجموعة من الأبحاث العلمية أن تؤتي ثمارًا تؤثر في العقل السوقي. ثم جاء بغتة كل من النور الكهربائي والجر الكهربائي؛ وشرعت عقول الناس العاديين تدرك أن في الإمكان تبديل (Transmutation) القوى، أعني احتمال إرسال القوة التي يمكن تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة حسبما يختار الإنسان، على امتداد سلك من النحاس، كما ترسل المياه داخل الأنابيب.

وكان البريطانيون والفرنسيون في مبدأ الأمر هما الشعبان القائدان للعالم في مضمار هذا الإخصاب العرفاني العظيم. ولكن ما عتم الألمان الذين تعلموا الذلة في حكم نابليون أن أظهروا للوقت من الحماسة والدأب في البحث العلمي ما جعلهم يدركون هؤلاء القادة. وكان العلم البريطاني في معظم أمره من خلق رجال من الإنجليز والاسكتلنديين [2] الذين يشتغلون خارج مراكز الحذلقة العادية.

وقد أسلفنا إليك من قبل كيف أن الجامعات في إنجلترة قل عليها الإقبال الشعبي بعد الإصلاح الديني، وكيف أنها أصبحت وقفًا على النبلاء والأعيان كما صارت الحصن المنيع للكنيسة الرسمية. وتغلبت عليها روح ادعاء كلاسيكية ران عليها الغباء والتفاخر بالفخامة؛ كما أنها تسلطت على مدارس الطبقتين الوسطى والعليا. وكانت المعرفة الوحيدة التي تعترف بها هي الإلمام بنصوص لمختارات من الأدب الكلاسيكي اللاتيني والإغريقي إلمامًا لا ينطوي على نقد ولا تمحيص، وكانت أمارة حسن الأسلوب هي وفرة ما فيه من اقتباسات وإشارات وعبارات متحجرة جامدة.

---

[1] المنفذ الفني (Adapter): المنفذ لخطة المهندس. (المترجم)

[2] ولكن ليلاحظ القارئ بويل والسير و. م. هملتون بوصفهما من رجال العلم المبرزين الإرلنديين. (المؤلف).

ومن ثم تواصل التطور المبكر للعلم البريطاني، بالرغم من هيئة التعليم الرسمية، ورغم أنف العداوة المريرة التي أبداها أصحاب مهنتي التعليم والكهنوت. كذلك تسلطت على التعليم الفرنسي تقاليد اليسوعيين الكلاسيكية، وترتب على ذلك أنه لم يعسر على الألمان أن ينظموا هيئة من البحاثة، كانت صغيرة بالنسبة لاحتمالات الموضوع، ولكنها كبيرة بالنسبة إلى الفئة القليلة من المخترعين والتجريبيين البريطانيين والفرنسيين. ومع أن هذا العمل عمل البحث والتجريب كان آخذاً بأسباب جعل بريطانيا وفرنسا أغنى بلاد العالم وأقواها، فإنه لم يكن بجاعل رجال العلم والابتداع أغنياء ولا أقوياء. وهناك ضرب ضروري من الروح غير الدنيوية يحيط برجل العلم المخلص لعلمه. فإنه أشد انشغالاً بمباحثه من أن يدبر ويخطط وسائل يستطيع أن يجر من ورائها المغانم.

وبناء على ذلك تقع عملية الاستغلال الاقتصادي لمكتشفاته بشكل سهل جدًا وطبيعي جدًا في أيدي طراز من الناس أكثر ميلاً إلى الاقتناء والاحتياز. وكان كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والتكنيكي ينتج في بريطانيا العظمى محصولاً جديدًا من الأغنياء الذين كانوا من تمام الرضا عن أنفسهم بحيث يتركون الإوزة الذهبية البيض تموت جوعًا، وإن لم يظهروا كما فعل العلماء المدرسانيون ورجال الأكليروس نفس الرغبة الجامحة في إهانة إوزة البيض الذهبي القومي وقتلها. كانوا يرون أن المخترعين والمكتشفين يجيئون بحكم الطبيعة لكي ينتفع من ورائهم من هم أشد منهم ذكاءً ومهارة.

وكان الألمان أكثر منهم حكمة بقليل في هذا الأمر. فإن "العلماء" الألمان لم يظهروا نفس الكراهية العنيفة نحو العلم الجديد بل سمحوا له بالتطور. كذلك لم يكن يخالج الألماني صاحب الأعمال والمصنع نحو مواطنه العالم نفس ما كان يخالج منافسه البريطاني من احتقار للعلماء. كان هؤلاء الألمان يعتقدون أن المعرفة ربما أصبحت محصولاً مزدرعًا يستجيب للمخصبات. لذلك سلموا للذهن العلمي بقدر معين من الفرصة ينتهزه؛ فكانت مصروفاتهم العامة على أعمال البحث أكبر نسبيًا، وجوزي هذا الإنفاق أوفى الجزاء.

وما بلغ القرن التاسع عشر نصفه الثاني حتى كان العالم الألماني قد جعل اللغة الألمانية لغة ضرورية لكل طالب علوم يرغب في أن يكون على الدوام في الطبيعة مماشيًا آخر إنتاج في فرع علمه، وأحرزت ألمانيا في فروع معينة من العلوم وفي الكيمياء بوجه خاص تفوقًا عظيمًا جدًا على جيرانها الغربيين. وأخذ الجهد العلمي في ألمانيا في العقدين السابع والثامن يحدث آثاره في ثمانينات القرن، وأخذ الألمان يسبقون بريطانيا وفرنسا سبقاً متواصلاً في النجاح التطبيقي الفني (التكنيكي) والصناعي. ومن المستحيل في معالم للتاريخ مثل هذه أن نتعقب شبكة العمليات العقلية المركبة التي أدت إلى هذا التوسع المتواصل في المعرفة والقوة الذي يجري الآن في العالم. وكل ما نستطيع فعله هنا أن نسترعي التفات القارئ إلى أبرز نقاط التحول التي اقتادت آخر الأمر "زلاقة" الشئون الإنسانية إلى ما هي عليه من حال التقدم السريع.

وقد حدثناك عن أول فكاك للتطلع الإنساني، وعن بدايات البحث والتجريب المنتظم. كذلك حدثناك كيف حدث عندما جاء النظام الروماني البلوتوقراطي [1] وما ترتب عليه من روح استعمارية ثم ذهب من العالم

---

[1] البلوتوقراطي: القائم على حكم الأثرياء. (المترجم)

ثانية – أن تجددت عملية البحث هذه. وحدثناك عن إفلات البحث من الاستخفاء والاستفادة الشخصية إلى فكرة النشر وإلى الأخوة في المعرفة، ولاحظنا تأسيس الجمعية الملكية البريطانية، والجمعية الفلورنسية، وأشباههما بوصفهما نتيجة لهذا التنظيم للفكر على أسس "الاشتراكية". كانت هذه الأمور هي جذور الانقلاب الميكانيكي، وما دام جذر البحث العلمي الصرف حيًا فلن يقف تقدم ذلك الانقلاب عند حد. وربما جاز لنا أن نقول إن الثورة الميكانية ذاتها ابتدأت باستهلاك ما في إنجلترة من الخشب في مصانع الحديد. وأفضى ذلك إلى استعمال الفحم، وأدى منجم الفحم إلى المضخة البسيطة، وأدى التحول بالمضخة على يد "وات" إلى آلة تدفع الماكينات، إلى ظهور القاطرة والسفينة البخارية. وكان ذلك هو الدور الأول من أدوار توسع عظيم في استعمال البخار. وابتدأ دور ثان للثورة الميكانية بتطبيق العلم الكهربي على المسائل العملية وعلى تطوير الإضاءة الكهربية ونقل القوة والجر.

وثمة دور ثالث لا بد من تمييزه، جاء عندما ظهر في العقد التاسع طراز جديد من الآلات، وهي آلات حلت فيها قوة التمدد في خليط متفجر محل قوة التمدد في البخار. ولم تلبث الآلات الخفيفة العالية الكفاية التي أصبحت بذلك في حيز الإمكان أن طبقت على السيارة، وتطورت آخر الأمر حتى بلغت درجة عالية من الخفة والكفاية تجعل الطيران شيئًا عمليًا، والطيران فكرة كان معروفًا منذ زمن مديد أنها ممكنة.

وكان جهد إخوان رايت في أمريكا ذا أهمية أولية في هذا الميدان. وفضلاً عن هذا فإن الأستاذ لانجلي التابع لمعهد سميثسون بنيويورك تمكن في زمن يرجع إلى (١٨٩٧) من صنع آلة للطيران، وإن لم تبلغ من السعة حد حمل جسم إنساني. فأما مجهوده الثاني وهو طائرة كاملة الحجم، فقد فشل في محاولاته الأولى، ولكن كوريس وفق بعد إدخال تغييرات عظيمة جدًا عليها، إلى الطيران بها بنجاح بعد ذلك ببضع سنين. حتى إذا وافت (١٩٠٩) أصبح في إمكان الطائرة أن تعمل في النقل الإنساني. وكانت بوادر بعض التوقف في زيادة السرعة الإنسانية قد لاحت في الأفق مع إحكام السكك الحديدية والانتقال بالسيارة في الطرق؛ ولكن جاءت مع آلة الطيران تخفيضات جديدة في قيمة المسافة بين نقطة على سطح الأرض ونقطة أخرى. وقد كانت المسافة بين لندن وأدنبرة تستغرق ثمانية أيام في القرن الثامن عشر. وفي (١٩١٨) قدمت لجنة النقل الجوي البريطانية تقريرًا تقول فيه إن الرحلة من لندن إلى ملبورن وهي نصف الدورة الكاملة حول الأرض، يرجح أن يمكن في بضع سنين أن تتم في نفس مدة الأيام الثمانية.

وينبغي ألا نبالغ في التشديد على هذه التخفيضات الرائعة في المسافة الزمنية بين مكان وآخر. فما هي إلا مجرد مظهر واحد من مظاهر تكبير الاحتمالات الإنسانية أعظم عمقًا وأشد ضخامة. فإن علم الزراعة والكيمياء الزراعية مثلاً أصابا أطوارًا من التقدم مماثلة لهذه تمامًا إبان القرن التاسع عشر. وبلغ من تعلم الناس تخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أضعاف وخمسة أضعاف المحاصيل التي كانوا يحصلون عليها من المساحة نفسها في القرن السابع عشر. وكان هناك تقدم أشد خرقًا للمعتاد في العلوم الطبية. فارتفع معدل متوسط العمر وزادت الكفاية اليومية وتناقص ضياع الحياة بددًا بسبب سوء الصحة.

من أجل ذلك كله يجتمع لنا الآن تبدل تام في الحياة الإنسانية يبلغ من ضخامته أن يكون طورًا جديدًا في التاريخ. فقد أوجد الإنسان هذه الثورة الميكانية فيما يربو على القرن بقليل. وقام الإنسان إبان تلك المدة بخطوة في أحوال حياته المادية أسرع من كل ما خطاه في جميع الفترة الطويلة المحصورة بين المرحلة الباليوليثية (العصر الحجري القديم) وعصر الزراعة، أو بين أيام بيبي في مصر وأيام جورج الثالث. وظهر إلى عالم الوجود هيكل جديد هائل للشئون الإنسانية. ومن الواضح أنه يتطلب إعادة تنسيق طرائقنا الاجتماعية والاقتصادية من جديد. بيد أن هذه التنسيقات الجديدة المطلوبة قد ترتبت بالضرورة على تطور الثورة الميكانيكية، وهي لا تزال حتى اليوم في مراحلها الافتتاحية لَمَّا تتجاوزها.

٢- العلاقة بين الانقلابين الآلي والصناعي

تجنح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما سميناه هنا باسم الانقلاب الآلي، الذي كان شيئًا جديدًا تمام الجدة في الخبرة الإنسانية ناشئًا عن تطور العلم المنظم، وكان خطوة جديدة تشبه اختراع الزراعة أو اكتشاف المعادن، وبين شيء آخر مختلف تمام الاختلاف في مصادره وأصوله، شيء كان له من قبل سابقة تاريخية، هو التطور الاجتماعي والمالي الذي يسمى الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية.

كانت العمليتان تسيران جنبًا إلى جنب، وكانتا تتفاعلان بعضهما مع بعض تفاعلا مستمرًا، ولكنهما كانتا مختلفتين أساسًا وروحًا وجوهرًا. إذ لم يكن بد من أن يحدث انقلاب صناعي من نوع ما، ولو لم يوجد الفحم الحجري، ولو لم يوجد البخار ولا الماكينات؛ ولعله كان سيقتفي في هذه الحالة بدقة أشد، خطى التطورات المالية والاجتماعية التي حدثت في السنوات المتأخرة للجمهورية الرومانية. ولعله كان يعيد قصة المزارعين الأحرار المشردين عن أملاكهم، وقصة مناسر العمال ونظام المزارع الكبيرة والثورات المالية الكبرى، وإحدى العمليات المالية المقوضة للمجتمع.

والواقع أن طريقة المصنع ذاتها جاءت قبل ظهور القوة والماكينات. فكأن المصانع لم تكن ثمرة للآلات، بل "لتقسيم العمل". فإن العمال المدربين المكدودين كانوا يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وصناديق الورق المقوى والأثاث ويقومون بتلوين الخرائط وصور الكتب وما إليها، قبل أن تستعمل العجلات المائية نفسها في العمليات الصناعية. وكانت هناك مصانع في روما في أيام أوغسطس، فإن الكتب الجديدة مثلاً كانت تملى على صفوف من النساخ في مصانع الوراقين. وسوف يدرك كل لبيب من دارسي الكاتب الإنجليزي دانيال ديفو ونشرات فيلدنج السياسية، أن فكرة جمع الفقراء كالقطيع في أماكن ليشتغلوا أحشادًا في كسب رزقهم، كانت أمرًا سبقت معرفته في بريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر. وهناك من الإشارات ما يدل على هذا حتى في زمان يرجع في قدمه إلى أيام اليوتوبيا [1] التي ألفها السير توماس مور (١٥١٦). كان الانقلاب تطورًا اجتماعيًا وليس ميكانيًا.

وكان تاريخ أوربا الغربية الاجتماعي والسياسي إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يترسم في الحقيقة نفس الطريق الذي سارت فيه الدولة الرومانية في القرون الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح. وكانت أمريكا من نواح كثيرة إسبانيا جديدة. وكانت الهند والصين مصرًا جديدة. على أن الانقسامات السياسية في أوربا، والفورات السياسية ضد الملكية، وعناد العامة وربما أضيف كذلك قابلية الذكاء الأوربي الغربي العظيمة لتلقي الفكرات والمستحدثات الميكانيكية، قد حولت العملية إلى وجهات جديدة تمام الجدة. وبفضل المسيحية بوجه خاص انتشرت فكرات الترابط الإنساني انتشارًا أعم وأعظم في هذا العالم الأوربي الأحدث جدّة، ولم يكن السلطان السياسي مركزًا إلى هذا الحد. ومن ثم سارع النشيط من الرجال التواق إلى الثراء،

---

[1] اليوتوبيا: جزيرة خيالية تصورها السير توماس مور حاوية لأكمل النظم السياسية والدينية والقانونية والاقتصادية. واسمها الأصلي بالعربية الطوبى. (المترجم)

فوجه كل همه عن طيب خاطر منصرفًا عن فكرة الرقيق ومناسر العمال إلى فكرة القوة الميكانيكية والماكينة.

أما الثورة الآلية (الميكانيكية) أي عملية الاختراع والاكتشاف الآلي، فكانت شيئًا جديدًا في الخبرة الإنسانية، وقد سارت في سبيلها غير عابئة بالعواقب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصناعية التي عسى أن تترتب عليها. فأما الثورة الصناعية من الناحية الأخرى، شأن معظم الشئون الإنسانية الأخرى، فقد ألم بها وما يزال يلم بها العميق المتكاثر من التغير والانحراف بسبب التغير المستمر في الأحوال الإنسانية الناشئ عن الثورة الميكانيكية. وينحصر الفارق الضروري بين اختزان القناطير المقنطرة من الأموال، وإبادة صغار المزارعين وصغار رجال الأعمال، وطوْر المالية الكبيرة في القرون المتأخرة للجمهورية الرومانية من ناحية، وبين الحالة الشديدة المماثلة لتلك والتي قوامها تركز رءوس الأموال في القرن الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى، ينحصر في الفارق العميق في خصائص العمل التي كانت الثورة الميكانيكية تحدثها.

كانت القوة في العالم القديم هي قوة الإنسان، فكان كل شيء يعتمد اعتمادًا مطلقًا على قوى الدفع في العضل الإنساني؛ عضل الجهلة والمقهورين من الرجال. وكان قليل من العضل الحيواني قوامه ثيران وخيول الجر وما إليها يضاف إلى عمل الإنسان. فأنى كان هناك حمل لا بد من رفعه فقد كان الرجال هم الذين يرفعونه، وأنى وجب أن يقطع حجر، كان الرجال يقدُّونه، وأنى لزم حرث حقل من الحقول، كان الرجال والثيران يحرثونه؛ وكان المعادل الروماني للسفينة البخارية هو الغليون (Galley) أي السفينة القديمة بما فيها من صفوف المجدفين المكدودين.

وكانت نسبة ضخمة من أفراد البشرية تستخدم في المدنيات الأولى في العمل الشاق الآلي البحت. والماكينات المدفوعة بالقوة لم يبد فيها عند البداية ما يبشر بأي أمل في فكاك الإنسان من ربقة مثل هذا العناء العضلي الذي لا زكاء فيه. فكانت جماعات عظيمة من العمال تستخدم في حفر القنوات، وفي عمل قطوع السكك الحديدية وجسور [1] الأنهار وما إليها. تزايد عدد عمال المناجم تزايدًا هائلاً. ولكن اتساع التسهيلات وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك جدًا. ومع مضي الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المنطق البسيط الواضح للموقف الجديد يثبت وجوده بشكل أشد وضوحًا. فلم تعد الكائنات الإنسانية تطلب بعد ذلك بوصفها مصدرًا لمجرد قوة لا يميز بين مفرداتها أحد. إذ كان ما يمكن صناعته آليًا بواسطة الكائن الإنساني ممكنًا صناعته أسرع وأجود بواسطة الآلة، ولذا لم تعد هناك الحاجة إلى الكائن الإنساني الآن إلا حيث يتطلب الأمر الاختيار والذكاء. فكأن الكائنات الإنسانية لم تعد تطلب إلا بوصفها كائنات إنسانية لا غير. فأما ذلك العسيف [2] المشتغل بالأعمال الشاقة الذي قامت على أكتافه كل المدنيات السالفة، ذلك الكائن المخلوق لمجرد الطاعة، ذلك الإنسان الذي كان عقله شيئًا لا لزوم له – فقد أصبح غير ضروري لرفاهة الإنسانية.

---

[1] الجسور ليست هنا بمعنى الكباري بل بالمعنى الذي يقال عنه في مصطلح أهل مصر الكورنيش. (المترجم).

[2] العسيف (Drudge): فاعل تساء معاملته ويرهق بالباهظ الحقير من الأعمال. (المترجم).

وصدق هذا على الصناعات العتيقة كالزراعة واستخراج المعادن صدقه على أحدث عمليات التجهيز في المعدنيات. فأما الحرث والبذر والحصاد فقد ظهرت لها آلات سريعة تعمل عمل عشرات الرجال. وفي هذا الميدان تزعمت أمريكا العالم القديم. وكانت الحضارة الرومانية تقوم على كائنات إنسانية رخيصة منحطة عن مكانتها، والحضارة العصرية يعاد بناؤها على القوة الميكانيكية الرخيصة. إذ جاءت مائة من السنين اطرد فيها رخص القوة وغلاء العامل. فلئن اضطرت الماكينات أمد جيل أو بعض جيل أن تنتظر دورها في المنجم، فإن ذلك كان لمجرد أن الرجال لبثوا ردحًا من الزمان أرخص من الماكينات. فكانوا يقدرون في نورثمبرلند وديرهام في أيام استخراج الفحم الأولى تقديرًا يبلغ من الرخص والحطة أنه لم تجر العادة بإقامة التحقيق حول أجساد القتلى في كوارث المناجم. وكانت الحاجة إلى نقابات العمال ماسة لتغيير حالة الأمور هذه.

ولكن هذا الاتجاه العام نحو إكمال العمل اليدوي والقضاء عليه بواسطة الآلات، كان انقلابًا ذا أهمية من الدرجة الأولى تمامًا في الشئون الإنسانية. وكان أهم ما يشغل بال الغني والحاكم في المدينة القديمة أن يحتفظ بمدد متواصل من العسفاء المشتغلين بالأعمال الشاقة. إذ لم يكن هناك أي مصدر آخر للثراء. فلما تطاول العهد بالقرن التاسع عشر أخذت تزداد وضوحًا لدى القوم الأذكياء الموجِّهين للآخرين، الفكرة القائلة بأن الرجل العادي لا بد له الآن من أن يكون شيئًا أحسن من فاعل عسيف بكدح. فكان لا بد من تعليمه للحصول على "الكفاية الصناعية على الأقل". وكان لا بد له من أن يفهم ما عليه حال الدنيا.

وقد كان التعليم الشعبي منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى، نارًا تتقد تحت الرماد في أوربا، كما كانت تتقد تحت الرماد في آسيا حيثما وضع الإسلام قدمه، بسبب الضرورة القاضية بجعل المؤمن على شيء من الفهم للعقيدة التي تنقذ روحه، وتمكينه من قراءة ما تيسر من الكتب المقدسة التي تحمل إليه اعتقاده. وقد أدت الخصومات بين الطوائف المسيحية وما صحبها من تنافس على الأنصار، إلى حرث التربة وتمهيدها لبذر بذور التعليم الشعبي العام. فقد حدث في إنجلترة مثلاً عندما ضرب القرن التاسع عشر في عقديه الرابع والخامس، أن أنتجت منازعات الطوائف وضرورة الاستحواذ على الأنصار صغارًا، وفرة في المدارس الليلية، ومدارس الأحد وسلسلة من الهيئات التعليمية للأطفال، والمدارس البريطانية غير المنتمية إلى أية طائفة دينية والمدارس القومية التابعة للكنيسة، بل حتى المدارس الأولية الكاثوليكية.

وكان أصحاب المصانع الأقدمون عهدًا والأقل استنارة وعلمًا يكرهون هذه المدارس ويعارضونها لضيق أفقهم حتى عن النظرة الخاصة إلى مصالحهم الخاصة. وفي هذا المجال أيضًا تزعمت ألمانيا الفقيرة الأكثر جيرانها منها ثروة. وسرعان ما وجد المعلم الديني في بريطانيا أن طالبي المكاسب قد انحازوا إليه، وقد غلبهم شغف غير متوقع إلى تعليم عامة الناس، وإلا فإلى "تدريبهم" إلى مستوى أعلى في الكفاية الاقتصادية والإنتاجية.

وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي العام في كل أرجاء العالم المصطبغ بالصباغ الغربي. ولم يصحب هذا تقدم مماثل في تعليم الطبقات العليا – ولا ريب أن قد حصل شيء من التقدم ولكنه ليس شيئاً يعادل ذاك ويقابله – وبذا لم يعد ذلك البون العظيم الذي كان حتى حين يقسم العالم إلى الطبقة القارئة والمجموعة غير القارئة، يزيد كثيرًا عن فارق ضئيل جدًا في المستوى التعليمي. وكانت الثورة الميكانيكية تقف من وراء هذه العملية. وكانت تسير غير عابئة في الظاهر بالظروف الاجتماعية، ولكنها مصرة في الحقيقة إصرارًا عنيدًا على إلغاء الطبقة التامة الأمية في كل أرجاء العالم إلغاء كاملاً.

ولم يستطع عامة سكان روما بأية حال فهم الثورة الاقتصادية في الجمهورية الرومانية فهمًا واضحًا. فإن المواطن (الممادن) الروماني العادي لم ير قط التغيرات التي كان يعيش فيها رؤية واضحة مفهومة كما نراها نحن الآن. على أن الثورة الصناعية وهي تمضي في سبيلها قرب نهاية القرن التاسع عشر، كانت واضحة لأعين العامة الذين كانت تؤثر فيهم، وكانوا يعرفون أنها عملية واحدة متماسكة، لأنهم كانوا قد أخذوا للوقت يستطيعون القراءة والمناقشة والتواصل، ولأنهم كانوا يضربون في الأرض ويرون الدنيا على شاكلة لم تصل إليها فئة من العامة قبلا. ولقد حرصنا في هذه "معالم التاريخ" أن نومئ لك إلى الظهور التدريجي للعامة بوصفهم طبقة لها إرادة مشتركة وفكرات مشتركة. ومن رأي الكاتب أن الحركات الضخام لعامة الناس فوق مساحات جسيمة، لم تصبح في الإمكان إلا نتيجة لديانتي الدعاة: المسيحية والإسلام، وإصرارهما على الاحترام الذاتي للفرد. وقد سقنا قصة حماسة العامة للحرب الصليبية بوصفها مميزًا لدور جديد من أدوار التاريخ الاجتماعي.

غير أن هذه الحركات الضخام بذاتها كانت قبل القرن التاسع عشر، محدودة نسبيًا. ولكن فتن الفلاحين للمطالبة بالمساواة ظلت ابتداءً من زمان ويكليف فما عقبه، مقصورة على مجتمعات للفلاحين في مواضع محلية محدودة، ولم تنتشر إلا على بطء إلى نواح تؤثر فيها مؤثرات مشابهة. أجل إن صناع المدن كثيرًا ما كانوا يشغبون، ولكن ذلك كان شيئاً محليًا بحتًا.

ولم يكن إحراق القصور في الثورة الفرنسية من عمل فلاحين قد قلبوا حكومتهم، بل من عمل فلاحين أطلقهم من قيودهم قلب حكومتهم. وكان "كوميون" باريس أول ظهور فعال لصناع المدينة بوصفهم قوة سياسية، وكان الجمهور الباريسي في الثورة الأولى جمهورًا شديد التخلط بدائي التفكير متوحشاً، بالموازنة إلى أي جمهور أوربي بعد (١٨٣٠).

على أن الثورة الميكانيكية لم تقتصر على إدخال التعليم قسرًا على السكان كافة، بل كانت مؤدية إلى رأسمالية كبيرة وإلى إعادة تنظيم كبير المعيار للصناعة قدر له أن ينتج في العامة نظامًا من الفكرات جديدًا مميزًا بدلاً من مجرد العناد القلق والثورات الأولية التي تحدث من دهماء أمّيين.

ولقد سبق أن لاحظنا كيف شقت الثورة الصناعية الطبقة الصانعة، التي كانت حتى حين ضربًا من طبقة متوسطة مخلطة، إلى نوعين من الطبقات، هي أصحاب الأعمال الذين بلغوا من الثراء ما مكنهم من

الاختلاط بالطبقات المالية والمتجرة وصاحبة الأراضي؛ والمستخدمين (العمال) الذين كانوا ينتقلون إلى حالة تقرب رويدًا رويدًا من حالة مجرد عمّال المناسر والزراعة. وبينما كان العامل الصناعي يهبط، كانت ترتفع قيمة العامل الزراعي بسبب إدخال الآلات الزراعية والزيادة في قوة إنتاجه الفردي.

وعند منتصف القرن التاسع عشر، كان كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) وهو يهودي ألماني بلغ بسطة عظيمة من العلم، قد أخذ يشير إلى أن تنظيم الطبقات العامة على يد جماعة من مُلاك رأس المال المتزايدي التمركز تزايدًا متواصلاً مستمرًا، كان يطور تصنيفًا اجتماعيًا جديدًا يحل محل أنظمة طبقات الماضي الأكثر تعقيدًا. ذلك أن الأملاك بالقدر الذي هي به قوة، كانت تجمَّع بعضها إلى بعض في أيد قليلة نسبيًا، هي أيدي كبار الأغنياء، أي طبقة الرأسماليين، على حين كان ينتج هناك اختلاط عظيم في العمال الذين لديهم القليل أو ليس لديهم شيء من الأملاك، الذين كان يسميهم باسم "أصحاب الأملاك سابقًا" أو "البروليتارية [1] " – (وهو استعمال خاطئ لهذه الكلمة) – وهم الذين لا مناص لهم بسبب تنازع مصالحهم ومصالح الأغنياء من أن يطوروا "وعيًا مشتركًا" بين أفراد طبقتهم.

وقد جاء على الناس ردح من الزمان بدا لهم فيه أن الفوارق في التعليم والتقاليد بين العناصر الاجتماعية المتنوعة الأقدم عهدًا، والتي كانت تمر في عملية الصهر والخلط بعضها ببعض لتصبح الطبقة الجديدة طبقة (أصحاب الأملاك سابقًا)، قد أخذت تناقض هذا التعميم الجارف. فكانت تقاليد أصحاب الحرف وصغار أصحاب العمل والمزارعين الفلاحين ومن إليهم تختلف جميعًا بعضها عن بعض وعن التقاليد الحرفية المتنوعة للعمال. ولكن هذا التعميم "الماركسي" يصبح الآن مقبولاً أكثر فأكثر مع انتشار التعليم ورخص ثمن الكتب.

هذه الطبقات التي لم يكن يربطها في أول الأمر رابط غير فقر مشترك أصابهم جميعًا على السواء، كانت ولا تزال تنخفض عن نفس مستوى الحياة أو ترتفع إليه وتجبر على قراءة نفس الكتب والاشتراك في نفس المضايقات. ومن ثم فإن شعورًا من التماسك بين كل أنواع الرجال الفقراء الذين لا أملاك لهم ضد الطبقة التي تكدس الأرباح ومتمركز الثروة، قد أخذ يزداد وضوحًا أكثر فأكثر في عالمنا هذا. فإن الفوارق القديمة تذوى، فيذهب الفارق بين رب الحرفة والعامل في العراء، وبين الموظف صاحب السترة (الجاكتة) السوداء والعامل صاحب معطف العمل الواقي (العفريتة)، وبين القسيس الفقير ومعلم المدرسة الأولية، وبين رجل الشرطة وسائق الأومنيبوس. فلا بد لهم جميعًا من مشترى نفس الأثاث الرخيص، ولا بد لهم من سكنى البيوت الرخيصة المتشابهة. ولا بد أن يختلط أبناؤهم وبناتهم جميعًا ويتزوجوا بعضهم من بعض. ويصبح النجاح في المستويات العليا أمرًا ينقطع دونه أكثر فأكثر أمل عامة الناس. وتبرر الحوادث كل يوم أكثر فأكثر آراء ماركس الذي لم يدافع عن حرب الطبقات قدر ما تنبأ بها؛ وهو يعني بحرب الطبقات الحرب التي

---

(1) البروليتارية (Proletariat): هي الطبقات الدنيا أو عامة الشعب أو العمال وهي كلمة مشتقة من اللفظة اللاتينية (Proletarius)، ومعناها مواطن من أدنى طبقة، يخدم الدولة لا بأملاكه بل بنسله (Panes). ومن ثم يشير المؤلف إلى الفارق بين استخدام اللفظ قديمًا وحديثًا (المترجم).

تشنها طبقة "أصحاب الأملاك سابقاً" على الأقلية التي لا تبرح تمتلك الأملاك وقد يدفع بعضهم أحياناً في جدله ضد ماركس بأن نسبة الناس الذين لهم مدخرات مستثمرة قد تزايدت في كثير من المجتمعات العصرية. فهذه المدخرات هي من الناحية الفنية التكنيكية "رأسمال" وأصحابها إنما هم "رأسماليون" على ذلك المنوال، ويظن أولئك أن هذا يناقض بيانات ماركس القائلة بأن الملكية تتمركز في أيد تنتقل في عددها من القليل إلى الأقل. وكان ماركس يستعمل كثيراً من مصطلحاته بلا عناية ويسيء اختيارها، وكانت فكراته خيراً من ألفاظه. فقد كان عندما يكتب "الأملاك" يعني "الأملاك إلى حد الذي هي به قوة". وللمستثمر الصغير قوة صغيرة صغراً ملحوظاً على رأس ماله المستثمر.

٣- اختمار الفكرات في ١٨٤٨

لا شك أن من أعسر الأمور تعقب المعالم الإجمالية لاختمار الأفكار الذي كان يحدث أثناء الانقلاب بين الآلي والصناعي في القرن التاسع عشر. على أنه لزام علينا أن نحاول ذلك إن نحن شئنا أن نربط بين ما سبق حدوثه في هذا التاريخ وبين حال عالمنا اليوم.

ومن المناسب أن نميز بين فترتين رئيسيتين في السنوات المائة الممتدة بين (١٨١٤، ١٩١٤). فقد جاءت أولاً الفترة بين (١٨١٤ – ١٨٤٨)، وفيها حدث قدر جسيم جدًا من التفكير المتحرر والكتابة الأسمحية المتحررة في دوائر محددة، ولكن لم تحدث فيها أية تغييرات عظيمة أو تطورات كبيرة في الفكر بين كتلة الشعب العامة. وكانت شئون العالم تلك الفترة تعيش – إن جاز لنا مثل هذه العبارة – على رأسمالها الذهني القديم، فإنها كانت تمضي وفق الفكرات الرئيسية "للثورة" والثورة "الرجعية" المضادة. وكانت الفكرات التحررية السائدة هي الحرية وضرب مبهم بعينه من فكرة المساواة. وكانت فكرات المحافظين هي الملوكية؛ والديانة المنظمة، والامتيازات الاجتماعية والطاعة.

وكانت روح المحالفة المقدسة حتى (١٨٤٨)، وهي روح مترنيخ تكافح لمنع أي انتعاش للثورة الأوربية التي خانها نابليون وأرجعها أدراجها. ومن الناحية الأخرى كانت الثورة في أمريكا بجزعيها الشمالي والجنوبي، قد انتصرت. وكانت الروح التحررية في القرن التاسع عشر تسودها لا ينازعها هناك منازع. وكانت بريطانيا قطرًا قلقًا، لا هي تميل بولائها تمام الميل إلى الرجعية ولا تميل به تمام الميل إلى حركة التقدم، ولا هي صادقة في روحها الملكية ولا صادقة في روحها الجمهورية فكانت أرض كرومويل وكذلك كانت أرض الملك المرح شارل، وكانت مضادة للنمسا؛ ومضادة لآل بوربون، ومضادة للبابا، ومع ذلك فإن روح القمع فيها كانت ضعيفة. ولقد حدثناك عن أول سلسلة من عواصف التحرر في أوربا في (١٨٣٠) وحواليها. وصدر في بريطانيا في (١٨٣٢) مشروع قانون إصلاح يوسع حق الانتخاب توسيعًا عظيمًا ويعيد إلى مجلس العموم شيئًا كثيرًا من خصيصته التمثيلية، فخفف كثيرًا من توتر الموقف.

وجاءت قرابة (١٨٤٨) وحواليها مجموعة ثانية من الانفجارات أشد من الأولى خطورة بكثير، أفضت إلى خلع ملكية آل "أورليان"، وتأسيس جمهورية ثانية في فرنسا (١٨٤٨ – ٥٢)، وأثارت شمال إيطاليا والمجر ضد النمسا، وأهاجت البولنديين في "بوزن" على الألمان، وجعلت البابا يفر من وجه الجمهوريين في روما. وعقد في براج مؤتمر شائق جدًا هو مؤتمر الكتلة السلافية الذي تسلف مقدمًا كثيرًا من تلك التسويات والتعديلات الإقليمية التي تمت في (١٩١٩). وانفض المؤتمر بعد أن قمعت الجنود النمسوية عصيانًا شب في براج. فأما العصيان الهنغاري فكان أشد قوة فواصل الكفاح سنتين. وكان زعيمه الأكبر هو لويس كوسوث. ولم يبرح بعد أن دحر ونفي، يواصل دعاية عظيمة في سبيل حرية وطنه وقومه.

وقد أخفقت كل هذه الفتن في النهاية إخفاقًا تامًا. وترنح النظام القائم ولكنه ظل واقفًا على قدميه. ولا ريب أن هذه الفتن كانت وراءها تذمرات اجتماعية خطيرة، ولكن لم تكن لهذه الثورات حتى آنذاك، اللهم إلا في حالة باريس، أية صورة واضحة ملموسة. وأحسن ما يقال عن عاصفة (١٨٤٨) هذه – بقدر ما يهم أوربا

– أن تنعت في كلمة واحدة باسم "ثورة الخريطة السياسية الطبيعية" على الترتيبات الاصطناعية لدبلوماسيي فيينا، وعلى نظام القمع الذي ترتب على تلك الترتيبات.

ومن ثم يكون تاريخ أوربا من (١٨١٥ – ١٨٤٨) على وجه العموم، لاحقاً لتاريخ أوربا من (١٧٨٩ – ١٨١٤). ولم يكن ينطوي على أية فكرات جديدة حقاً وما برح رأس المتاعب هو الكفاح بين مصالح الرجال العاديين وبين نظام الدولة العظمى التي أرهقت بالضغط حياة البشرية وقيدتها – وإن يكن في الكثير من الأحاديين كفاحًا أعمى سيئ التوجيه.

ولكن حدث بعد (١٨٤٨)، أي من (١٨٤٨ إلى ١٩١٤) أن عملية إعادة تسوية الخريطة إعادة تتجه إلى إيجاد إيطاليا حرة موحدة، وألمانيا موحدة، تواصلت ولم تقف عند حد. فقد بدأ دور جديد في عملية التكيف الذهني والسياسي وفق ما بلغته البشرية من المعرفة الجديدة والقوى المادية الجديدة. ثم حدث انفجار عظيم للفكرات الجديدة الاجتماعية والدينية والسياسية، تغلغل بها في العقل الأوربي العام. ولسوف نتأمل في الأقسام الثلاثة التالية مصادر هذه الانفجارات ونوعها ذلك بأنها وضعت لنا الأسس التي نبني عليها اليوم فكرنا السياسي، غير أنها ظلت زمناً طويلاً وليس لها أثر كبير على السياسة المعاصرة. فاستمرت السياسة المعاصرة تجري على السنن القديمة. وإن داخل الوهن المتواصل ما لها من دعامة في ضمائر الناس واعتقاداتهم الفكرية.

ولقد وصفنا لك آنفاً الطريقة التي قوضت بها إحدى العمليات الذهنية القوية نظام الملكية العظمى بفرنسا قبل (١٧٨٩). وثمة عملية تقويض مماثلة كانت تجري في أرجاء أوربا إبان فترة الدول الكبرى من (١٨٤٨ – ١٩١٤). إذ انتشرت في كل أرجاء الهيئة الاجتماعية شكوك عميقة حول نظام الحكومة وحول مدى الحريات التي لكثير من أشكال الملكية في النظام الاقتصادي. ثم جاءت حرب هي أعظم حروب التاريخ وأشدها تدميرًا، ومن ثم استحال على الذين عاشوا بعدها مباشرة أن يقدروا قوة ومجال الفكرات الجديدة التي تجمعت في هذه السنوات الست والستين. فلقد مرت الدنيا في ملمة كبرى أعظم كثيرًا، حتى من الكارثة النابليونية نفسها، وما نحن إلا في فترة راكدة بين المد والجزر تقابل فترة (١٨١٥ – ٣٠) وتمت إليها بسبب. وما زلنا نتوقع أن تأتينا سنتنا (١٨٣٠، ١٨٤٨) الخاصتين بنا وبالقرن العشرين فتكشفان لنا أين نحن وقوف.

٤- تطور فكرة الاشتراكية

قفونا في كل أرجاء هذا الكتاب التضييق التدريجي الذي حاق بفكرة الملكية منذ الادعاء الأول غير المحدود للرجل القوي على ملكية كل شيء، ومنذ إدراك الناس تدريجيًا الفكرة الأخوية بوصفها شيئًا يسمو على البحث الشخصي عن الذات. وقد بدأ الأمر بأن أخضع الناس بدافع الخوف من الملك والله، لسلطان شيء أعظم من المجتمعات القبلية. ولم يحدث إلا في خلال الآلاف الثلاثة أو على الأكثر الآلاف الأربعة الأخيرة من السنين، أن تهيأ لنا برهان واضح يدل على أن نكران الذات الإختياري في سبيل غاية أعظم، وبغير أجر يرجى أو ثواب ينتظر، كان فكرة مقبولة لدى الناس، أو أن أي إنسان قد قام بطرحها.

ثم إننا نجد شيئًا ينتشر على وجه الشئون الإنسانية، كما تنتشر رقاع من ضياء الشمس ثم تمر فوق جوانب التلال في يوم ريح من أيام الربيع، هو الفكرة القائلة بأن في التضحية بالنفس سعادة أعظم من أي إرضاء ذاتي أو انتصار شخصي، وحياة للبشرية مختلفة وأعظم قدرًا وأكثر أهمية من صافي مجموع حياة الأفراد الذين يوجدون في نطاقها؛ ورأينا هذه الفكرة تصبح وهاجة كالنبراس، ناصعة نصاعة ضياء الشمس حين تلتقطه إحدى النوافذ وتعكسه على منظر طبيعي فتبهر به الأبصار، رأيناها في تعاليم "بوذا"، "ولاو تسي" وبوجه أشد ما يكون وضوحًا في تعاليم "يسوع" الناصري.

ولم تفقد المسيحية قط أثناء كل ما ألم بها من التغيير والمفاسد بارقة إخلاص لملكوت الرب تجعل بذخ الملوك والحكام الشخصي أشبه الأشياء بوقاحة خادم أفرط في أناقة ثيابه، وتجعل أبهة الأثرياء وإشباعهم لشهواتهم أشبه شيء بتبذير اللصوص. وما من رجل يعيش في مجتمع مسته أنامل ديانة مثل المسيحية أو الإسلام، بمستطيع أن يكون عبدًا تام العبودية. فإن في هاتين الديانتين صفة لا تمحى تجبر الرجال على إصدار الأحكام على سادتهم وعلى تحقيق مسئوليتهم الخاصة نحو العالم.

وبينما كان الناس يتلمسون طريقهم نحو حالتهم الفكرية الجديدة منتقلين إليها من حالة الشره الأناني العنيف وروح القتال الغريزية الشرسة في جماعة العائلة الباليوليثية الأولى، فإنهم جهدوا أن يعبروا عن اتجاه أفكارهم وضرورياتهم تعبيراً متخالفًا جدًا. ووجدوا أنفسهم على خلاف وفي نزاع مع الفكرات القديمة المقررة. وكانت بهم نزعة طبيعية لمناقضة هذه الفكرات مناقضة صريحة، والوثوب من فوقها إلى عكسها المطلق.

وقد قامت الحركة الأولى متسرعة نافدة الصبر، فأعلنت أنها تهدف إلى مساواة شاملة، ولكن غلبتها والحق يقال الفوضى الشاملة، خاصة وقد واجهها عالم، الحكم فيه والطبقات والنظام تبدو جميعًا وكأنما لا هم لها إلا إيتاء الفرص للأنانية الشخصية والظلم الفاجر. وواجهها عالم تبدو فيه الملكية أنها لا تزيد كثيرًا عن وقاية للأنانية ووسيلة إلى الاستبعاد، وكان من الطبيعي أيضًا أن نجحد كل ملكية.

ويبين لنا تاريخنا أن هناك على الدوام دافعًا متزايدًا يدفع الناس إلى الثورة على الحكام وعلى الملكية. وقد تعقبنا ذلك الدافع في القرون الوسطى، وهو يحرق قصور الأغنياء ويجرب التجاريب في الثيوقراطية [1] والشيوعية. وكان هذا التمرد المزدوج واضحًا جليًا في الثورات الفرنسية. فإذا نجد في فرنسا رجالاً يصرحون وأعينهم مسلطة على ضرائب الحكام، بأن الأملاك حرمة يجب ألا تنتهك، كما نجد آخرين يصرحون وأبصارهم شاخصة إلى مساومات صاحب العمل القاسية أنه يجب أن تلغى الملكية. وهم يعيشون جنبًا إلى جنب ويستلهمون جميعًا نفس الروح الواحدة، كما أنهم أعضاء طبيعيون في الحركة الثورية نفسها. ولكن ما كانا في كلا الحالين ثائرين عليه إنما هو أن الحكام وصاحب العمل، لا يزالون كغيرهم من البشر أفرادًا أنانيين يبحثون عن خير أنفسهم ويظلمون الناس بدل أن يكونوا خدامًا للمجتمع.

وإنا لنجد هذا الاعتقاد ينمو في أذهان الناس على مر العصور: وهو أن في الإمكان قيام ذلك التنظيم الجديد للقوانين والسلطات قيامًا يقدم للناس الحكم والنظام، بينما هو لا يبرح يصد أنانية أي حاكم وأية طبقة حاكمة قد تكون ضرورية، ويزود الناس بذلك التعريف للملكية الذي يمنح الحرية من غير قوة ظالمة. وقد شرعنا ندرك في أيامنا هذه أنه ليس في المستطاع بلوغ هذه الغايات إلا بمجهود إنشائي مركب، فإنها تنشأ بسبب منازعات الحاجات الإنسانية الجديدة ضد الجهالة والطبيعة الإنسانية القديمة؛ بيد أنه شاع طوال القرن التاسع عشر ميل مستمر ثابت إلى حل المسألة ببعض الحلول البسيطة. (ليكون الناس سعداء إلى أبد الآبدين، وذلك بغض النظر عن أن الحياة الإنسانية كلها، بل والحياة عامة، ليست على مر العصور إلا محاولة متواصلة لإيجاد حل لمشكلة معقدة مستمرة).

وقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر عددًا من التجارب في تكوين جماعات إنسانية تجريبية ذات نوع جديد، ومن أهم تلك التجارب من الناحية التاريخية، تجاريب وفكرات روبرت أوين (١٧٧١ – ١٨٥٨)، وهو غزّال قطن من مانشستر، وهو يعد بوجه عام المؤسس للاشتراكية العصرية. ونشوء كلمة "الاشتراكية" لأول مرة إنما كان بالعلاقة إلى عمله حوالي (١٨٣٥). ويلوح أنه كان رجلاً من رجال الأعمال على غاية من الكفاية. فإنه ابتكر عددًا من المستحدثات في صناعة غزل القطن، وجمع ثروة لا بأس بها في سن مبكرة. وقد أحزنه ضياع ما في عماله من احتمالات بشرية بددا؛ فنصب نفسه لتحسين حالهم وتحسين العلاقات بين صاحب العمل والعمال. فجهد أن ينفذ ذلك أولاً في مصنعه بمانشستر ثم في نيولانارك بعد ذلك، حيث ألفى نفسه متصرفًا بالفعل في مصانع تستخدم ألفين من الأفراد.

وتوصل بين (١٨٠٠، ١٨٢٨) إلى أمور ضخمة جدًا. فإنه أنقص ساعات العمل، وجعل مصنعه صحيًا مقبولاً، وألغى استخدام الأطفال صغار السن جدًا، وحسن تدريب عماله وزود العمال بأجور البطالة أثناء فترة كساد في التجارة، وأسس مجموعة من المدارس، وجعل من نيولانارك مثالاً يحتذى لحركة عمالية صناعية أحسن وأطيب، على حين كانت في نفس الوقت تحافظ على رخائها التجاري. كتب كتابات قوية مدافعًا عما كانت تتهم به أغلبية البشرية من الإفراط في المسكرات وعدم التبصر في العواقب، التي كان أهل العصر

[1] الثيوقراطية (Theocracy): حكومة قسوس تدعى أن الله مصدر سلطتها. (المترجم).

